مغامرات لجمن

في العراق والجزيرة العربية

١٩٠٨ ـ ١٩٢٠



تأليف: الرائد. ن. براي

«الحاكم السياسي البريطاني لكربلاء»

ترجمة وتعليق: سليم طه التكريتي

اشتريته من شارع المتنبي ببغداد
في 13 / صفر / 1444 هـ
في 09 / 09 / 2022 م هـ

سرمد حاتم شكر السامرائي

م. سرمد حاتم شكر

مغامرات لجمن
في العراق والجزيرة العربية

«١٩٠٨ - ١٩٢٠»

تأليف: الرائد. ن. بولي
«الحاكم السياسي البريطاني لكربلاء»
ترجمة وتعليق: سليم طه التكريتي.



دار واسط للدراسات والنشر والتوزيع
المنصور - بغداد - العراق - ص . ب (٦٢٥٠)
هاتف - ٥٤١٣١٢٣ - تلكس ٣٣٣٨- ٢١

«لهذا الكتاب قصة»

سمعت بهذا الكتاب لاول مرة في السنة التي صدر فيها في لندن سنة ١٩٣٦، حين تولى احد المثقفين البارزين ببغداد، «عزرا حداد» نشر اول عرض عنه في العدد السنوي من مجلة «الحاصد» لتلك السنة. ولقد رحت ابحث عن الكتاب منذ ذلك الوقت، فلم اعثر عليه الا في سنة ١٩٦٢ لدى المرحوم «محمد الحامي» في البصرة والمشهور باسم «محمد خان بهادر»* فما ان سألته عنه حتى اسرع، رحمه الله، الى مكتبته العامرة في مكتبه، فالتقطه وناولني اياه.

وفي اوائل سنة ١٩٧٩ كنت قد اكملت ترجمة ذلك الكتاب، ووضعت له الشروح والتعليقات التي اعتدت ضمها الى كل الكتب التي ترجمتها، ثم عرضته على دائرة الرقابة بوزارة الثقافة والاعلام فوافقت على طبعه ونشره.

واذا صدرت الطبعة الاولى من ترجمتي لمذكرات الدكتور سندرسن طبيب العائلة الملكية في العراق، واعجب القراء بجودة طبع الكتاب واناقته، عرض علي الشخص الذي تولى الاشراف على طبعه في بيروت، وهو اللبناني «رفيق حسين نعمة» بان يتولى طبع ماأريد طبعه من كتبي في بيروت فكان كتاب «مغامرات لجمن» من بين الكتب التي اتفقت معه على ان يقوم بطبعها في شهر شباط سنة ١٩٨١

بقيت انتظر وصول الصفحات المنضدة لتصحيحها، فانقضت سنوات ١٩٨١، ١٩٨٢، ١٩٨٣، من دون ان اتسلم تلك الصفحات او اتلقى اي رد على اي من الرسائل والبرقيات المسجلة. وحين كنت في صيف سنة ١٩٨٤ في لندن طلبت الى الصديق الاديب نجدة فتحي صفوت ان يبحث لي عن نسخة من الكتاب الانكليزي الاصلي، لان الناشر العتيد !» رفيق حسين نعمة قد اخذ نص الكتاب مع الترجمة بحجة نقل الصور والخرائط فيه ولقد ابلغت الاخ نجدت بان لايتردد حتى في دفع خمسين باونا في اية نسخة يحصل عليها من الكتاب.

وحين عدت من سفرتي تلك وجدت ان «رفيق نعمة» في بغداد، وقد جلب معه الصفحات المنضدة للكتاب، ولكتاب اخر معه لايقل عنه اهمية، فامضيت زهاء شهر كامل في تصحيح ملازم التنضيد من اية اخطاء قد تكون فيها، واعدتها اليه فوعدني بانه سوف يعود حالا الى بيروت لاكمال طبع الكتابين المذكورين.

غير ان رفيق حسين نعمة «وذلك هو اسمه الكامل، والذي استمرأ كرم العراقيين ورفيع اخلاقهم، ظل قابعا في بغداد، يدور هنا وهناك حتى اوائل شهر ايلول سنة ١٩٨٧ حين جاءني وانبأني بانه يريد الان العودة الى بيروت، ويسألني عما اذا كنت ارغب في اضافة اي شيئ الى الكتابين، اللذين سبق لي ان نقحت ملازمها المنضدة منذ صيف ١٩٨٤، فاجبته بالنفي

---

* كلمة مغولية تعني «الشجاع» كما افادني بذلك الصديق المرحوم علي غالب البحري

والازدراء به ، وعاتبته على مثل هذه المماطلة والتأخير، وقررت اقامة الدعوى عليه في المحاكم العراقية لان بيني وبينه عقدا مكتوبا بشأن طبع الكتابين كنا قد وقعنا عليه في اوائل سنة ١٩٨١. ومع كل ذلك فقد غادر رفيق العراق في اواخر ايلول ١٩٨٧ ولم اسمع عنه اي خبر منذ ذلك الوقت حتى الآن

والحقيقة انني حاولت ان اعيد ترجمة كتاب «مغامرات لجمن» هذا، وان استعير نسخة من الاصل الانكليزي باية وسيلة فلم افلح. واكثر من هذا انني كنت في سنة ١٩٧٦ قد بعت نسختين من نفس الكتاب الى مكتبة المتحف العراقي، فلما حاولت استعارتهما لم اجد حتى ولا نسخة واحدة منها، ولذلك عدت الى النسخة التي اخذتها من «رفيق اول الامر» واعادها ممزقة وخالية من الصور والخرائط، فاعدت ترجمة الكتاب مجددا بالصفة التي يجدها القراء هنا، والذي اعتقد بانه سوف يرضيهم ويوفر لهم المتعة والاطلاع على معلومات قيمة عن تلك الفترة من تأريخ العراق والجزيرة العربية وسوريا والتي اصبحت الآن من اخبار الماضي

سليم طه التكريتي

الاول من نيسان ١٩٨٩

«مقدمة الترجمة»

لجأت الدول الغربية، بعد ان تم اقتلاع المستعمرات الصليبية من فلسطين، وبقية الاقطار العربية التي انشئت فيها، حيث كان لاعداء العروبة والاسلام من المتسترين بستار الاسلام وحب ال البيت الطاهرين، وعلى رأسهم الطائفة النصيرية، الدور الاول في تسهيل الغزو الصليبي، نقول لجأت الدول الغربيه الى ابتداع فكرة الاستكشاف والفتح في آسيا وافريقيا، وعلى اساس ذلك سارعت الدول الغربية القوية في ذلك الوقت الى دخول ميدان الصراع على اقتسام الاقطار الاسيوية والافريقية فيما بينها، حيث بدأت الحملات البرتغالية، والهولندية والفرنسية والانكليزية.

ولكن تلك الحملات العسكرية سبقتها اعمال تمهيدية تمثلت في الرحلات والجولات التي كان يقوم بها اشخاص مدربون تحت ستار المتاجرة، او القيام بمشروعات للمواصلات، او الرحلات او التنقيب عن الآثار. ولقد كان العراق يحتل المرتبة الاولى في تلك المشروعات الاستكشافية، والتجسسية في وقت واحد، ابتداءا برحلة الطبيب الهولندي «ليونارد راوولف في سنة ١٥٧٣ والتي ترجمناها وطبعتها وزارة الثقافة والفنون في سنة ١٩٧٨ تحت عنوان » رحلة المشرق ، ورحلات المغامرين الانكليز من امثال «نيوبري» في سنة ١٥٨١ والسر انطونى شرلى في سنة ١٥٨٩، والمستر هربرت في سنة ١٦٣٨، ورحلة لجمن في سنة ١٩٠٨ وما بعدها واخيرا رحلة «المس غرترود بل» في سنة ١٩٠٩. ولقد تأكد بان كل اولئك الرحالين والاثاريين والتجار وغيرهم كانوا من منتسبي دوائر الاستخبارات في بلادهم، وعلى رأس هولاء ليونارد وولي والمؤرخ توينبي وغيرهما

يقول «السر صموئيل هور» المندوب السامي الانكليزي في فلسطين بعد الحرب العالمية الاولى، في المقدمة التي وضعها لهذا الكتاب «ان الحرب قد ابرزت قلة من الشخصيات الشهيرة، في الجبهة الغربية غير ان الحرب في جبهة الشرق، كانت اساساالثلاثة من ابطال القصص الرومانسية ، العقيد لورنس ، والرائد «صون» و«لجمن» الرياضي والمكتشف، وقائد الرجال والذي كان يعد اشبه بنصف آله بين القبائل البدوية الكبيرة».

لقد انصب اهتمامنا في ترجمة هذا الكتاب على كل مايمس العراق بالدرجة الاولى من قريب او بعيد، منذ ان هبط لجمن ارض العراق لاول مرة سنة ١٩٠٨ وهو في طريقه من الهند الى انكلترا عبر الخليج العربي والعراق ، وسوريا وتركيا ثم اوربا ومن ثم مرافقة الجيوش الانكليزية التي بدأت باحتلال العراق سنة ١٩١٤، وتوليه حاكمية لواء الموصل حتى مصرعه في خان النقطة «بين بغداد والفلوجة اثناء ثورة العشرين المجيدة

كما اننا اضفنا الى ذلك كله مغامراته في الوصول الى شبه جزيرة العرب بقصد الوصول الى امارة «ابن الرشيد» في حائل، ومحاولة اقناع اميرها بالتخلي عن تحالفه مع الاتراك، مثلما اقنع اضرابه من الجواسيس حكاما اخرين من الاقطار العربية بالانضمام الى الانكليز في تلك الايام.
وكل ما نرجوه من القراء الكرام ان الا يبخلوا علينا باية توضيحات او صعوبات يجدونها في ثنايا هذا الكتاب. والذي اود ان انبه القارئ الكريم هو ان المؤلف ،وهو انكليزي طبعا ومتحيز لقومه، حاول ان يبرز «لجمن» في كتابه «بطلا اسطوريا» وان ينعته بنعوت كبيرة لا يصح ان تطلق ابدا على امثاله من الذين يتركز هدفهم في الرحلات والجولات على الالمام بالبلاد التي يتجولون فيها لاغراض استعمارية خالصة كما اكدت الوقائع ذلك دوما
والله الموفق لما هو خير واحسن.

«الفصل الاول»
نشاة لجمن واولى جولاته

في ضواحي مدينة ريفية صغيرة تدعى «بترزفيلد»[1] على الطريق التي تؤدي شمالا، خلال «غلدفورد»، [2] الى لندن، كان يقوم منزل دافئ من اجر احمر اللون ،متين البناء، يضم الكثير من المروج، والاشجار، والازهار، ويدل على الرخاء، في هذا المنزل الذي كان يعكس في غفوته الهادئة بحق، روحية تلك المنحدرات الجنوبية التي تحتضنه، تلك الروحية التي لم تمسسها القسوة الطاغية التي تمثل بها العالم الحديث، في هذا المنزل رزق الدكتور أ. و. ليجمن [3] وزوجته ، ولدا، في اليوم السابع والعشرين، من شهر تموز سنة ١٨٨٠، سماه «جرالد افلين»[4] الذي نقدم قصة حياته هذه.

في الوقت الذي ولد فيه «جرالد» كانت هناك ثلاث بنات قد سبقنه في الولادة هن: مابيل، وملدريد، وجانيت، اضافة الى مولودين توفيا في سن الطفولة.

وحين بلغ جرالد «السابعة من عمره، ادخل مدرسة خاصة على مقربة من مدينة (برايتون)[5] وبعد ان امضى في المدرسة اياما، كتب يقول متباهيا «ان هذا المكان فاخر جدا، وان الطعام فيه افضل من طعام البيت!». وبعد اسبوعين زالت جدة المكان فكتب يقول «ليس هذا المكان لطيفا كما تصورت. انه مكان مخيف لان الاولاد فيه يتحدثون بكلمات شنيعة، من امثال «مجنون وحمار». ولم يبرز جرالد في المدرسة، بصفة رياضي، او باحث، ولذلك فلم يكن يتوقع ان ينجح في امتحان القبول بكلية «ساندهرست»[6] وهي الكلية التي نجح فيها فعلا.

تخرج ليجمن في كلية ساندهرست العسكرية برتبة ملازم ثان حين كان في التاسعة عشرة من عمره. ولقد وطد نفسه على الفور، بان يخوض غمار المغامرات، وان لم يكن قد تحقق من ذلك، لانه ما ان تسلم مهمته حتى عين في الفوج الاول من كتيبة ساسكس[7] التي استقرت بعد ذلك في جزيرة «مالطة» وما لبث ان تلقت فيما بعد امرا باداء بعض الخدمة الفعالة في جنوبي افريقيا.

كان عليه الآن، ان يجرب اشق مدرسة قد يجربها المرء، انها مدرسة الحرب، ولذلك تلق

---

(1) PETRSFIELD

(2) DRILFORD

(3) A.W. LEACHMAN

(4) GIERALDEVELYN

(5) BRIGHTON

(6) SAND HURST

وهي من اشهر الكليات العسكرية في انكلترا في ذلك الوقت وما تزال تتمتع بشهرتها هذه حتى اليوم

(7) SUSSEX

امرا بان يركب الباخرة «بافونيا»[٨] والتي كان مقررا لها ان تغادر ميناء «ساو ثمبتون»[٩] في اليوم العاشر من شهر شباط سنة ١٩٠٠. وفي اول رسالة بعث بها الى امه قال لها «كانت الليلة التي اعقبت مغادرتنا «سوثمبتون» جافة جدا، فلم تحتضني مثل اكثرية الناس. لقد كنت احس بالراحة حين استلقي على ظهري، لكنني لا احس بانني في حال جيدة حين احاول ان انهض واجلس»[١٠]

ولقد خفت تلك الصعوبات حين اجتازت الباخرة، رأس «روش»[١١] خارج «لشبونة»[١٢] وبعد ان وصف في رسالته ماشهده خلال تلك الرحلة، ختمها بالعبارة التالية «لقد دخلنا الخلجان الآن... ولدكم المحب!». وفي يوم الثلاثاء الثامن من شهر اذار، القت الباخرة بافونيا» مراسيها في «مدينة الرأس»[١٣] وفي اليوم العشرين من الشهر ذاته انبأهم آمرهم بانهم سيغادرون غدا الى مدينة بلومفونتاين»[١٤] ثم يتركونها متوجهين الى مدينة «ايست لندن»[١٥] التي بلغوها في اليوم الاول من شهر نيسان، حيث تقرر اشراكهم في حرب «البور»[١٦]. وما ان جرح ليجمن في تلك المعركة حتى تم نقله الى انكلترا للمعالجة فامضى فيها اربعة اشهر. واذ تم شفاؤه، اعيد الى ميدان المعركة في جنوبي افريقيا مرة اخرى. ومن هناك كان يراسل جريدة «الديلي تلغراف»[١٧] فيكتب لها عن وصف المعارك الجارية.

وبعد ان انتهت حرب «البور» انتقلت كتيبته الى الهند فوصل الى مدينة «سيتابور»[١٨]. وبعد ان امضى اسبوعا كاملا في الرياضة والرقص، تحركت كتيبته الى تلال «راينخيت»[١٩] وهناك اكتشف ان هذا الموقع مصاقب لحدد بلاد التبت. واذ ذاك تفتح ذهنه على المغامرة بالدخول الى ذلك البلد المحظور دخوله، بعد ان سمع بوجود مجال فاخر لاعمال القنص فيه.

PA VONIA(٨)

SOUTHAMPTON(٩)

(١٠) يشير بذلك الى دوار البحر الذي يصيب المسافرين بحراً تلك الايام

CAPEROCHE (١١)

LISBON (١٢)

CAPETOWN (١٣)

BLOOMFONTIEN(١٤)

EASTLONDON(١٥)

(١٦) البور BOER هم الاقوام المتحدرة من الهولنديين الذين استعمروا افريقيا الجنوبية وقد وقعت الحرب بينهم وبين الانكليز خلال الفترة ١٨٩٩– ١٩٠٢ وانتهت بانتصار الانكليز. وما يزال البور يؤلفون قسما كبيرا من البيض الذين يحكمون افريقيا الجنوبية حتى الآن

(١٧) DAILYTELEGRAPH من كبريات الصحف اللندنية وهي مؤيدة لحزب المحافظين البريطاني

SITAPUR (١٨)

RANIKHET (١٩)

على ان لبجمن راح يعد نفسه لامتحان الترقية الذي نجح فيه، حيث رقي الى رتبة ملازم اول في اواسط سنة ١٩٠٣. ومع ذلك ظلت فكرة اقتحام التبت تراود خياله، فاخذ يضع الخطط لتنفيذها، ومن ثم بدأ رحلته في اليوم العاشر من شهر حزيران سنة ١٩٠٥ والتي استمرت حتى اليوم السادس من شهر تموز من السنة ذاتها. وبعد ان عاد من رحلته تلك، انتقلت كتيبته الى «كشمير» فاستفاد من اوقات فراغه في التجول في هذه الولاية المهمة.

وفي كشمير وضع لجمن خططه بان يسافر، اثناء تمتعه بالاجازة، الى انكلترا عن طريق البصرة وتركيا، ولكن مثل هذه السفرة كانت تستغرق شهرين ونصف الشهر بدلا من اسبوعين. غير ان فكره كان منشغلا بامور الشرق الاوسط.

واذ كان يعد نفسه لهذه المهمة، اخذ يقرأ كل ماكان يتيسر لديه من كتب التأريخ القديم والحديث عن البلاد التي تقع بين الهند والبحر المتوسط.

«الفصل الثاني»

جولة في الخليج العربي والعراق وسوريا وتركيا

استقل ليجمن، في اليوم الثلاثين من شهر كانون الثاني سنة ١٩٠٧ القطار في مدينة «امبالا»[1] فكتب في يومياته عن رحلته تلك بانها «رحلة تنكرية!» حيث وصل كراتشي في اليوم الاول من شهر شباط. وهناك توجه الى مكاتب احدى «شركة الملاحة التجارية الانكليزية» ليتسلم بطاقة سفره بحرا. ولقد امتقع وجهه حيث وجد ان «شركة توماس كوك»[2] للنقل قد اخطأت في موضوع حجز مقعد له، ذلك لان الباخرة التي حجز له فيها سوف تنقله الى ميناء «بوشهر» بدلا من البصرة.

لم يكن امامه الآن اي علاج للقضية الا ان يستقل الباخرة «بولمبا»[3]. وسرعان ما هدأت مشاعره المستوفزة، نتيجة الرقة التي كان يتحلى بها ربان تلك الباخرة «بامبر»[4] الذي خصص له غرفة من الدرجة الاولى رغم انه كان يحمل بطاقة الدرجة الثانية. ومن مكانه الرفيع في الطابق العلوي من السفينة، كان يتطلع الى ادنى، الى خليط من المسافرين الذين حشروا حشرا في مكان رخيص السعر، تنبعث منه الروائح الكريهة، يضم البلوش والعرب واليهود والمسيحيين، والزنوج الافريقيين وغيرهم.

في اليوم الثاني من شباط وصلت الباخرة الى ميناء «باسني»[5] ومن هذا الميناء الصغير يمتد خط البرق بين كراتشي والخليج العربي. هبت ريح عاصفة وراحت تدفع امامها زخات مطر كثيفة، وبقيت الريح تهب طيلة الليل. وكما يحصل ذلك في الخليج، فان ذلك البحر الواسع، كان يتحرك في وقت قصير، الى درجة ان ليجمن لم يفكر في انْ يتناول فطوره في صبيحة اليوم التالي.

وحين بلغت الباخرة في بحر متقلب، ميناء «غودار»[6] عند الصباح، غاص احد الملاحين في البحر، ليس لكي ينقذ حياة ما، ذلك الحادث الذي يؤلف العذر الوحيد لمثل هذا التصرف، وانما لكي يلتقط مجدافاً سقط من احد الصنادل

---

(١) AMBALA

(٢) THOMAS COOK وسطاء لنقل المسافرين في البحر اول الامر، وفي الجو مؤخرا. ولا تزال الشركة تحتفظ لها بمكتب في بغداد حتى الآن

(٣) BULIMBA

(٤) CAPTAIN BAMBER

(٥) PASNI

(٦) GOWDAR

راح ليجمن يحدق حواليه في الوجوه الاخرى ليرى مشاركتها في الدهشة التي اصابته لما حدث، ولكن لاستغرابه، فان احدا ممن كانوا حوله، لم يعر ذلك الحادث ادنى اهتمام. وكانت تلك هي تجربته الاولى لمشاهدة قوى السباحة التي يتميز بها سكان البحر من ابناء الخليج.
اضيفت معلوماته عن التأريخ، الى البهجة التي اثارتها تجربته الجديدة، فراح يتذكر مسيرة الاسكندر الكبير، الذي اجتاز جيشه الفاتح هذه الشواطئ ذاتها قبل اكثر من الفي سنة في الوقت الذي كان فيه قائده البحري «نيرخوس»[7] الذي استقر عند نهر «الاندس». قدمخر ذات البحار، لكي يموّن زعيمه، ولكي يحرس جناحه البحري.
بلغ ليجمن ميناء مسقط الشهير القديم، في اليوم الخامس، حيث استدعاه الوكيل السياسي البريطاني الرائد «غراي»[8]. اخذ يبدي اهتمامه الشديد بذلك الخليط من سكان الميناء، من البلوش، والعرب، والهنود، والفرس، ولقد دون في يومياته ملاحظة خاصة مؤداها، ان للفرنسيين والامريكيين قنصليات في المدينة، وان القنصلية الفرنسية قد حاولت مؤخرا ان تضمن لها محطة للتزود بالفحم في مكان مجاور، واضاف الى ذلك قوله «ان مسقط تحكم من لدن سلطان مستقل صديق لنا في الوقت الحاضر.

ولقد فزع حين عاد الى السفينة، ووجد على سطحها عشرة من المبشرين الهولنديين والامريكيين. وفي «هرمز» تذكر امجاد هذه المدينة وعظمتها لانها كانت تتاجر بـ «الاوكسيد الاحمر».
وحين وصلت الباخرة ميناء «بندر عباس» تذكر المتاعب التي حصلت هناك قبل سنتين بشأن اقامة محطة للبرق فيها ولقد ذكر في يومياته «لقد اراد البريطانيون ان تقام محطة البرق في بناية القنصلية البريطانية، التي تقع على مسافة ما خارج المدينة. غير ان الفرس بدأوا باقامة المحطة بالقرب من المدينة، واذ ذاك اقبلت قوة تابعة للقنصلية فهدمت ذلك البناء. وقد حلت هذه المشكلة، بعد ان تم تشييد مقر جديد للمقيمية البريطانية قرب المدينة.
القت الباخرة مراسيها في البحرين في مكان بعيد عن الشاطئ، حيث غادرها المبشرون الذين كانوا على سطحها، وبذلك تنفس ليجمن الصعداء. ولقد وصف وهو على سطح السفينة، مدينة البحرين فقال عنها بانها «تقبع لوحدها مختفية عن الانظار». ومع انه كان يمضي طيلة النهار هناك الا انه لم يهبط الى الشاطئ، وكان يصطاد المزيد من المعلومات من ممثل شركة بواخر «غراي، يونغ وشركائهما»[9] والذي كان يقيم على ظهر الباخرة.

---

(٧) نيرخوس NIARCHVS قائد الاسطول الذي انشأه الاسكندر الكبير بعد وصوله الى الهند يمخر به الخليج العربي. وقد سجل مشاهداته عن تلك الرحلة في كتاب تولى الدكتور وليم فنسنت ترجمته الى الانكليزية ونشره في لندن سنة ١٧٩٢

(٨) MAJOR W. G. GREY

(٩) GREY, YOUNG & Co.

وفي اليوم الثاني عشر من شهر شباط وصل لجمن الى ميناء «بوشهر» ولاول مرة، وليس للمرة الاخيرة، شاهد البحرية الفارسية برمتها، تتركز في ذلك الميناء. كانت الباخرة الهندية «لورنس»[١٠] موجودة هي الاخرى في الميناء، وقد وضعت تحت تصرف الرائد (آنذاك) السر برسي زكريا كوكس، المقيم البريطاني، والذي لم يلتق به لجمن، لكنه سوف يصبح في يوم من الايام، رئيسه، وان يكون له نفوذه الكبير في الشؤون العربية.

في ميناء بوشهر انتقل لجمن الى سفينة البريد «كولا»[١١] المتوجهة رأسا الى البصرة، والتي عانت مصاعب كبيرة في طريقها عبر الطين الناعم الذي كان يغمر سد الفاو، فدخلت «شط العرب» واخذت تغذ السير مسرعة بين الشواطئ الواطئة للنهر والتي تكتنفها بساتين النخيل.

مرت الباخرة، بعد الظهر، بمدينة المحمرة، التي اصبحت فيما بعد، عاصمة لدولة صغيرة مستقلة، يحكمها شيخ مثلما كان ابوه، من اعظم اصدقاء بريطانيا، حيث بلغت البصرة في الساعة الثامنة مساء.

واذ كان لجمن، كالعادة، يتحرى كل شيء، فقد الم باحدى الطرق الالمانية لمزاولة المتاجرة وشراء النفوذ في الوقت ذاته. «لقد كانوا يدفعون الى الطبيب التركي في الميناء، مائة روبية عن كل سفينة، ويقدمون الى السادة الاتراك الذين يرغبون في السفر الى مكة، او الى القاهرة، بطاقات سفر مجانية. كانت تلك الشركة الالمانية التي تقوم بذلك هي «شركة خط بواخر هامبرغ–امريكا.»

كان على لجمن ورفاقه في السفر، ومن بينهم قائد فرنسي، ان يعانوا الحجر الصحي لمدة خمسة ايام، في جزيرة تقع خارج مجرى النهر من المدينة. وفي هذا السجن الاجباري، كان الاتراك يتقاضون من كل فرد فيه سبعة شلنات يوميا، بالاضافة الى ثلاث روبيات كل يوم عن الطعام.

انتهت ايام الحجر في اليوم العشرين من شهر شباط، حين وصل حشد من مختلف الاطباء، والشرطة، واللصوص الاخرين «وبعد ان مارسوا اشد ما كانوا يستطيعون ممارسته، اطلق سراح اولئك المحجورين التعساء».

واذ كان لجمن يبحث عن مكان يستريح فيه في المدينة، تلطف «دودز»[١٢] من ممثلي «شركة ستيفن لنج»[١٣] فحباه بكرمه حيث نزل عنده، ولقي الحفاوة من لدنه ومن «زوجته الصغيرة الرائعة». امضى لجمن ثلاثة ايام في البصرة، وفي تلك الايام الثلاثة وضع اسس عمله في الجزيرة العربية، فكان يقوم بتحرياته المستفيضة التي تخص الهدف الذي يسعى اليه. وعلى الرغم من المطر المنهمر الذي يحول الشوارع والطرقات الى مستنقع من الاوحال، كان لجمن يقوم بزيارة

---

(١٠) LAWRANCE

(١١) KOLA

(١٢) DODS

(١٣) STEPHEN LYNCH Co.

الاربعين اوربيا في المدينة، من الانكليز والروس، والالمان، والفرنسيين، وغيرهم الذين كانوا يقيمون في ضاحية «المعقل»، ومن هناك كان يقوم بجولات الى العشار نفسه في زورق محلي. وكانت عينه المتحمسة للجمال، في اي شكل من اشكال التنكر، تجعل الجولة ذات مسرة له. واذ كان زورقه ينزلق على امتداد الممر المائي الطيني، كان يجد تلك الجولة «محبوبة حقا وان كانت قذرة. فبساتين النخيل، والدور القديمة المدهشة، تنتبذ فوق الماء مما يضفي على المشهد الرومانسي منظرا مزريا!»

ولقد كان ذهنه الوقاد يراقب على الدوام، كل تفصيل قد يبرهن على فائدة له في المستقبل. فحيثما كان يذهب يطرح على من يجتمع بهم، اسئلة غريبة، وبطريقة حذرة فكأنه كان يتحدث الى نفسه، بدلا من زميله الذي لا يستطيع ان يتأكد، بان ما افضى به من معلومات، قد بيعت كلية الى هذا الزائر المتشدق في حديثه!.

وحتى في هذه المرحلة المبكرة من جولاته، كانت يوميات لجمن تدافع بشدة عن امور مهمة، ولكن كان يجري نقلها باحترام شديد الى الافراد. وعلى هذه الشاكلة كانت زوجة «دودز». «تمثل روعة ما، ومرحا عجيبا!». غير انه وصف الرجل الذي وجده في السفينة النهرية، التي ستقله الى بغداد «بانه شخص يبعث السموم بصيغة خاصة، وهو مهندس سابق في كراتشي، وخنزير تعافه النفس!». وفي رحلته الاولى خلال نهر دجلة نقلته السفينة التي كان ربانها «كولي»[14] الذي قدر له فيما بعد، ان يموت، وان يحصل على وسام «صليب فكتوريا»[15]

اقبل جميع الاوربيين في البصرة لكي يودعوا لجمن عند مغادرته لانه حتى في مدة مكوثة القصيرة هذه، غدا محبوبا بشكل مفرط، حيث تجمع اصدقاؤه الجدد لتوديعه. كان حبهم اياه حبا مخلصا بكل معنى الكلمة، وبهذه الصفة كان ظرفه ومودته، هما اللذان انسياه، صداقتهم حتى وفاته بعد ذلك بسنوات عديدة. وهكذا وبحسن المودة التي ابداها كل انسان، بدأ لجمن عند المساء رحلته النهرية الى بغداد والتي كانت تبلغ مائتين وثمانين ميلا.

لقد اعطى وصفاً موجزا جدا لهذه الرحلة النهرية. غير اننا علمنا من الحوادث الاخيرة بانه كان اثناء النهار يلتقط في ذهنه صورا لكل ماكان يشاهده، ولقد كانت تلك من الوضوح الى درجة انها بقيت جلية على مراة ذهنه طيلة سنوات عديدة.

---

(١٤) COWLEY احد ضباط البحرية الانكليزية عمل ربانا لاحدى سفن شركة بيت لنج قبل الحرب العالمية الاولى، وقد الم بانهار العراق خلال اقامته الطويلة فيه، ولهذا اختير لقيادة الباخرة «جلنار» التركية التي صادرها الانكليز عند احتلال البصرة، لنقل المواد الغذائية التي ارسلت لنجدة القوات الانكليزية في الكوت، ولكن الاتراك نصبوا فخاً للباخرة «جلنار» فاصطادوها واستولوا على حمولتها وقتلوا كل من كان يعمل فيها من الملاحين وفي مقدمتهم الربان كولي انظر كتابنا «حصار الكوت» ج ٢ ص ١٣٨ ومابعدها ط ١٩٨٥.

(١٥) VICTORIA CROSS

استيقظ لجمن في صباح اليوم التالي ليجد ان السفينة قد اجتازت «الموقع الشهير لجنات عدن» (١٦) ومن هنا استمرت الرحلة عبر اميال من بساتين النخيل، والمستنقعات. كان البدو (١٧) من سكان كثير من القرى القائمة على ضفاف النهر، وكل الرجال والشباب يحملون البنادق من مختلف الاصناف، طالما كان لجمن يستطيع ان يرى مؤخراتها. وعن ذلك كان يقول «كان الرجال ... يتجولون وتبدو على وجوههم سيماء الصرامة، عراة من كل مايغطي عوراتهم. واذ كانت السفينة ترسو لنقل الحمولات على كل شاطئ، كانت تغضنات الشاطئ ترى على امتداد الضفة. وكذلك الاعواد، والمضحات في الجانب الآخر من النهر. كانت مدينة «العمارة» (التي وصلنا ها في اليوم الرابع والعشرين من الشهر) ذات منظر جميل جدا بقيام بساتين النخيل على جانبي النهر، وبوجود جسر من الزوارق فوقه. والعمارة هي موطن الصابئة، وهي طائفة غريبة من الناس الذين يسمون في بعض الاحيان بانهم من اتباع «يوحنا المعمدان» (١٨) ومن هذا الموقع وما بعده تقوم قرى الاعراب، التي يمتع ساكنوها انفسهم، بتسديد بنادقهم الاوربية نحو السفينة وكانت تظهر عن بعد مناظر جبال «بشت اي كوه»
مررنا، بعد ذلك بكوت الامارة (١٩) والتي لم نعد نشاهد بعد ان اجتزناها، الرجال الذين يحملون البنادق، وهذه المدينة اكثر تمدنا بالاحرى، ولكن الرجال فيها كانوا اضعف بنية. وكان القمح وعرق السوس يؤلفان المنتجات الرئيسة للريف هناك واذ سرنا قدما بان لنا طاق «المدائن» الذي يؤلف نصبها الشهير

• • •

كان اول اتصال للجمن ببغداد مدينة الخلفاء، قد بدأ بطريقة سيئة. فقد حدثت له متاعب مع احد اصحاب الفنادق، «وانماط اخرى مختلفة من الخنازير!!» ولذلك تشوق الى الهند مرة اخرى، لان مثل هذه الاعمال هناك لا يمكن ان يسمح بها هناك من دون تحد. ولكن هنا وفي عاصمة ولاية تركية، تأكد له بان عليه ان يكون مؤدبا كي يستطيع ان يهضم الامور المؤذية غير انه كان يسجل في ذاكرته تلك المعاملة التي لقيها، وكان هو ذلك الرجل الذي لن ينسى العطف والاساءة.

---

(١٦) مدينة القرنة

(١٧) يقصد بهم الاعراب غير المتحضرين

(١٨) ST JOHN THE BAPTIST هو ابن خالة المسيح كان يعيش على شواطئ نهر الاردن، وقد تنبأ بمجيء المسيح، وقد عرف بالمعمدان، لانه كان «يتعمد» اي يغتسل بالنهر عادة. وبقيت عادة التنظف بماء النهر قائمة لدى الصابئة حتى الآن

(١٩) عرفت «الكوت» وهي كلمة برتغالية الاصل تعني الحصن، باسم كوت الامارة نسبة الى امراء قبيلة ربيعة الذين استوطنوها من زمان بعيد، ومازالت بقاياهم فيها.

في دائرة الكرك التي ذهب اليها، بعد هبوطه من السفينة، جوبه بتجربة شهيرة للوسائل التي يلجأ اليها الاتراك، «اقبل الموظف فكان رجلا مهيبا تبدو عليه مخايل النبل. تقدمت نحوه، وانقدته «مجيديا» (حوالي ثلاثة شلنات) فادى التحية، واذ ذاك نزعت مزودي الذي كان يحتوي على بندقية ومسدس، وكلاهما من المواد التي تخضع لرسوم كمركية عالية. ولقد سمعت عن الرجل بانه كان يفعل الشيئ ذاته مع كل انسان». وذلك امر يوضح تماما عدم كفاية العوائد التي تتلقاها الخزينة التركية من هذا المصدر.

كانت المهمة الاولى لدى لجمن هي ان يحصل على خادم له، وقد حقق ذلك عن طريق المساعدة الرقيقة التي قدمها له، «المستر باري» [٢٠] من موظفي «شركة بيت لنج» وكانت اجرة ذلك الخادم اربع روبيات يوميا لقاء مصاحبة لجمن، في الرحلة الى «حلب» التي كانت هدفه الثاني ولرحلة العودة ايضا.

كان العمل الثاني الذي ينبغي له القيام به هو ان يتصل بالمقيم البريطاني في بغداد الرائد «رمزي» [٢١] وان يدرس تقارير المخابرات عن الطريق الى حلب. ولقد دهش اذ وجد بانه لم تكن هناك معلومات عن ذلك اكثر جدة من المعلومات التي جمعها «دوغلاس» [٢٢] في سنة ١٨٩٦ وما ان حصل على القليل من القيمة من هذه السجلات القديمة، حتى قام بزيارة الاسواق التي تأثر بها تأثرا بالغا. «لقد كانت مدهشة حقا الى درجة انني لم اشهد مثلها في الهند لقد كانت ملئ بكل السلع تقريباً. وتتجمع حشود الناس بكل بساطة في تلك المحلات. ولقد كان عرض الشارع حوالي ثمانية اقدام ومع ذلك فان الكبار من الاتراك كانوا يرون فيه راكبين خيولهم دون ادنى اكتراث!»

وفي اليوم التالي قام لجمن بزيارة الكاظمية التي ذهب اليها بالترام. ولقد اخذه رفيق سفر هندي له، الى سطح منزله فاستطاع من هناك ان يرى كل المنائر الذهبية لضريح الامام «موسى الكاظم».

وفي اليوم الثالث من شهر اذار بدأ لجمن رحلته من بغداد. كان يقوم فوق النهر جسر من الزوارق يربط المدينة بضاحيتها اليمنى. وفي اليوم الذي سبق رحلته، هبت ريح قوية، وعاصفة رملية فادتا الى تحطم الجسر من وسطه، واذ ذاك جرف تيار النهر بجزئي الجسر الى اي من الضفتين. وكان الاتراك جد كسالي كيما يقوموا باعادة ربط الجزئين معا. فكان على لجمن ان يعبر النهر في «قفة». وقد اثارت هذه اللامبالاة حنقه على الاتراك «فكنت كلما رأيت احداً منهم ازددت تقززا!».

---

(٢٠) PARRY

(٢١) MAJOR RAMSY

(٢٢) DOGLAS

وبعد تأخير ومشقة عاناهما في عبور النهر الضخم الى الدكتور «اليوت» [٢٣] الذي كان هو الآخر في طريقه الى حلب في حين كان خادمه ينتظره على الضفة اليمنى للنهر ايضا. كذلك كان هناك خادم آخر حصل على رحلة مجانية الى حلب لقاء مايقدمه من خدمة. وهكذا تألفت القافلة من ثلاثة افراد لديهم بغال، ومن بغلين آخرين وثلاثة براذين، وحمارين لحمل الامتعة وفي كل كل مرحلة من الطريق كان رجال الدرك الاتراك (الضابطية) [٢٤] ينضمون الى القافلة بمثابة حاشية لها، غير انهم كانوا، في الواقع، عالة على المسافرين. فبالنسبة الى الحماية لم يكن منهم اي نفع بتاتا، وباعتبارهم ممثلين للسلطة التركية، فانهم كانوا يؤلفون خطراً حقيقيا. ذلك لان بلادتهم المتناهية وتعنتهم كانا يثيران على الدوام مشهدا لا يمكن ان يظهر في الاحوال الاعتيادية.

امضت الجماعة في «الفلوجة»، الليلة في احد الخانات، وكانت هذه اول تجربة يشهدها لجمن في نزل المسافرين (كروان سراي). كان الخان يغص بالعرب الذين كانوا يتحدثون بلا انقطاع، اضافة الى كلاب هجينة، كانت تنبح وتتعارك طيلة الليل، وحيوانات اخرى كانت الروائح التي تنبعث منها، تتغلب على كل شيء. وعلى هذا كان النوم بالنسبة الى شخص لم يألف مثل تلك الاحوال بعد، يعتبر من الامور المستحيلة، ولذلك سجلت يوميات لجمن تلك الليلة التعسة.

«في صباح اليوم التالي بلغت القافلة نهر الفرات، فركبت «الشختور» [٢٥] وهو زورق مثلث الاضلاع مصنوع من قضبان من اعواد القصب طليت من الداخل والخارج معا بالقار الذي يؤتى به من «هيت» التي تقع على مسافة من النهر.

وبعد اخفاق اولي بسبب شدة التيار، وقوة الريح، تم عبور النهر بنجاح، والوصول الى «الرمادي» في مساء ذلك اليوم. وهنا ايضا، وللمرة الثانية، كان الخان المحلي هو الذي يوفر دار الاستراحة. غير ان غياب الكلاب، قد جعل الراحة في تلك الليلة امر ممكنا.

وفي صباح اليوم التالي، السادس من شهر اذار، تعرض لجمن الى عضة في ذراعه، من قبل برذونه الشرس، ومن ثم رفسه في بطنه، فكانت تلك بداية سيئة لمسيرة استمرت طيلة اليوم، غير ان تلك المسيرة، على الرغم من الضربة المزدوجة التي انتهت، قد تمت بنجاح، وفي مساء ذلك اليوم وصل القوم الى «هيت» التي قال عنها «انها موضع جميل يقوم على قمة تل صغير وفي

---

(٢٣) ELLIOT

(٢٤) ZAPTIEH

(٢٥) الشختور قارب محلي الصنع كان يكثر استعماله في نهر الفرات، اما النوع المماثل له والذي كان يصنع من الواح خشبية ويستعمل في نهر دجلة فقد كان يسمى «قايغ» وكلا الكلمتان «شختور» و«قايغ» تركيتان

موقع قوي» . لقد بلغ الآن طول الرحلة خمسة وخمسين ميلا، وتلك مسافة جيدة بالنظر الى حمير كانت تحمل أثقال السفر. وفي هيت هنا انضم ارمنيان الى الفريق المسافر. كان هذا التعسان قد سلبا على ايدي الاعراب اثناء الطريق، وجردا من كل قطعة من الملبس ومن كل ما كان في حوزتهما!. على مثل هذه الصورة كان الاتراك يوفرون الامن للمسافرين: وبهذا العدد المضاف واصل الجميع مسيرتهم تحت مطر كثيف، حتى وصلوا الى «جبّة» متعبين مبللين بماء المطر، فاضطروا الى ان يخيموا في العراء عند ضفة النهر.

اوصلتهم الوقفة التالية الى حديثة «تلك القرية الجميلة، التي تنتظم بيوتها على امتداد ضفتي النهر معا. ولانه لا يوجد اي اختلاف بين جزئي القرية، فقد انتشروا سوية في الجزيرة التي تقع بينهما. لم تجد الجماعة اية مشقة، حتى وان كانت طفيفة في العثور على مأوى لها ولحيواناتها. فقد اخرج الدجاج من احدى الغرف، واشترك الرجال والبراذين معا في دفئها، واستقبلوا بترحاب قلبي، من لدن كل انواع الحشرات الحية. واضافة الى عدم ارتياح لجمن من هذا الوضع، فان المطر والبرد قد اصاباه بنزلة برد شديدة! وفي خان «الفحيمي» (٢٦) التقط لجمن صورة «لاجمل فتاة». وفي «عانة» التي بلغها القوم في اليوم التالي، كانت عينه ثاقبة النظر قد ابصرت «فتيات جد جميلات من سن السادسة عشرة، والسابعة عشرة!». وفي محاولة الغوص الى اعماق طبيعة هذا الانسان الشهير، يكون من العسير تقرير اي الصفات تكون هي المتغلبة فيه، وتؤثر في افكاره وفي تصرفاته. فلقد كان متشددا الى حد القسوة في احكامه على رفاقه من الرجال، غير انه كان شديد المراقبة تماما لنقائصه هو نفسه. فالتدوين الموجز الذي كتبه في يومياته في اليوم التالي كان يوفر احد الامثلة الذي يقول «البرودة افضل لكن الطبع سيئ كالعادة!!»، ولذلك فلم يكن هناك من يستطيع ان يدرك تماما، العادة الخاصة به.

والى الجانب الشديد من طبيعته، والذي لا يستثني نفسه منه، نجد الرقة، والنبل، وتقييم الجمال، سواء جمال الطبيعة، ام جمال الانسان والحيوان، الذي يكشف عن الحساسية، والكياسة اللتين قد لا تتلاءمان مع عناده وصبره. ولم نستطع ان نحصل الا مؤخرا على جواب لهذا اللغز! تلقت الجماعة في بلدة «الناحية» (٢٧)، في اليوم الحادي عشر من شهر اذار تعزيزات اخرى. ذلك ان احد «الملالي» الافغان من مدينة «قندهار» كان في طريقه الى مكة لاداء الحج، قد شارك في قداسة ذلك التجمع»، بالاضافة الى احد القتلة من الاعراب الذي «وضع نفسه تحت حمايتنا»

---

(٢٦) خان الفحيمي ويعرف بأسم خان الفحيمة وهو يقع على بعد اربعين كيلو مترا عن بلدة حديثة. وموقعه يعتبر مرحلة على الطريق من بغداد الى الرقة وقد ذكره البلدانيون العرب، ومنهم ابن خرداذبة.

(٢٧) الناحية: موقع بين عانة والقائم ورد ذكره في كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة. وكان مركز الناحية يعتبر هو مركز القائم قبل ان تنشأ قرية «حصيبة» التي وجدت اصلا في صفة مركز للشرطة عند القائم قبل حوالي خمسين سنة.

وحوالي عشرين نفراً من الناس الآخرين من مختلف الاصناف الذين كانوا قد اضافوا «لمسة من تابل عالمي لهذا الخليط العجيب من المسافرين».

وبهذه الطريقة، ومثلما يجمع الحجر المتدحرج الطحلب كلما تدحرج، وصل هذا الرتل الى بلدة «القائم» (٢٨) موقع الحدود بين الامبراطوريات الرومانية وغيرها، والذي امحت عظمته فغطتها رمال النسيان، ماعدا انقاض اشبه بالطاق، تراكمت على احد التلال، وبقايا سور عبرالنهر، يتطلع بقوة كما يظل قائماً عبر القرون ويعود بتخيلات المرء عبر ضباب الماضي الى امجاده المنسية!.

وبمسيرة قصيرة خلال اليوم التالي بلغت الجماعة بلدة «البوكمال» التي تؤلف «اليوم» الحدود بين الانتداب الفرنسي ومملكة العراق (٢٩) ولقد تكون لدى المواطنين المحليين، في هذه الانحاء اعتقاد ملموس في قوى الاوربيين لمعالجة الامراض، واحترام عجيب للصامتين من ابطال بعثات التبشير الكنسية الذين كانوا يتجولون من دون خوف، ويضحون بحياتهم في سبيل معالجة الفقراء المهملين في الصحراء (٣٠) ونتيجة لذلك تدفق المرضى والمصابون باعداد بعد الظهر، وان كان معظمهم، لسوء حظهم قد تركوا في ذات الحالة التي كانوا عليها حين قدموا. ولكن هذا الدرس لم يضع بالنسبة الى لجمن الذي اصبح في رحلاته الكبرى فيما بعد، يحمل معه قدرا لا بأس به من الادوية والمواد الطبية، وبذلك استطاع ان ينقل الرحمة!! الى الاماكن التي كانت تسودها القسوة، والخشونة بصفة اعتيادية.

تم الوصول الى الصالحية (٣١) في اليوم الرابع عشر من الشهر، ثم اعقبتها مسيرة طويلة مضنية من

---

(٢٨) القائم: قبر على شكل برج شبيه بما هو موجود في تدمر والحضر ويرق تأريخه الى القرن الثاني للميلاد

(٢٩) يقصد بكلمة «اليوم» هنا التاريخ الذي صدر فيه الكتاب وهو سنة ١٩٣٦ حين كانت سوريا ولبنان ماتزالان الآن ترزحان تحت اعباء الانتداب الفرنسي.

(٣٠) لسنا نعتقد ان بعثات التبشير المسيحية، التي بدأت منذ القرن التاسع عشر تغزو العراق مثل غيره من الاقطار الشرقية الاخرى كانت تهدف الى تقديم الخدمات النافعة لابناء البلد الذي تتجول فيه. فالى جانب التبشير بالمسيحيةوذلك هو الستار المستعمل حتى الآن، هناك الاغراض الاستعمارية التي تتركز في سبر اغوار تلك الشعوب، والالمام بكل صغيرة وكبيرة من امور بلادها، تمهيدا للغزو الاستعماري الذي فتحت الحرب العالمية الاولى الابواب مشرعة امامه في الشرق العربي برمته، اذ لم يخل بلد من بلدان الشرق العربي في القارتين الاسيوية والافريقية من وجود مستعمر انكليزي او فرنسي فيه بشتى الاعذار والاستار

(٣١) الصالحية: اخطأ المؤلف فسماها «الصلاحية» وهي مدينة «دورا يوروبس» القديمة التي يعود تأسيسها الى العهد السلوقي في نهاية القرن الرابع قبل الميلاد والاسم مشتق من كلمة «دور» الاشورية الاصل و «يوربس» اسم البلدة التي ولد فيها «سلوقس» المتصر في مقدونيا.

شدة الحر. في اليوم التالي الى «الميادين [٣٢]» وقد اجتازت القافلة بعض الخرائب المهمة، واحدى القلاع الضخمة التي قيل عنها بانها هي مدينة رحبوت [٣٣] القديمة. وفي اليوم السادس عشر من الشهر وصلت القافلة الى «دير الزور». كانت المدينة تضم عددا كبيرا من الناس، وسوقا جيدة و «خانا» لطيفا. وكان احد الاطباء الاتراك هناك يمد كلا من لجمن والدكتور اليوت بالقهوة والجعة.

وفي «تبني» [٣٤] خيم القوم «في سهل لطيف مخضوضر عند جانب النهر وذلك بعد مشاجرة كلامية عنيفة مع بواب الخان المحلي، ومع رجال «الضابطية» الذين هددونا بهجوم وشيك علينا من قبل الاعراب. ومما شهدته بام عيني كان رجل «الضابطية» يبدو احقر واقذر جبان على وجه الارض وانه يكون اكثر خطرا من الحماية.»

غير ان القوم كانوا قد خاطروا بالهجوم نتيجة البهجة التي توفرها الارض اللطيفة التي تقرر اقامة المخيم فيها. فلقد كوفئ اختيارهم بين الجمال والامن، بقضائهم تلك الليلة الجميلة في امان حيث وصلوا الى ميادين [٣٥] في اليوم التالي من دون اي حادث مؤسف. تنبئنا يوميات لجمن، بان المسيرة، بعد اجتياز «صبخايا»، [٣٦] كانت تجري خلال سهول جد خصيبة، تعج بمجاميع من خيام البدو، وتنتشر فيها مئات الابل وكثير منها من الابل البيض. وفي «حمّام» [٣٧]، جوبهت القافلة بطبيب تركي اكثر سخاء من الطبيب السابق، مما ضاعف من المقدرة في البت بالتعلمات وقد اسبغ ذلك الطبب كرمه على القوم بالمزيد من. العرق» [٣٨] (وهو نوع قوي من الشراب)، وبوجبة غداء مدهشة، اعقبتها اعداد لاتحصى من السكاير والمزيد من العرق. مرة اخرى، الى

---

(٣٢) الميادين وتقع على الطريق بمسافة واحد واربعين كيلو مترا عن الصالحية.

(٣٣) يقصد بها قلعة «الرحبة» العربية التي تبعد اثني عشر كيلو مترا عن الميادين

(٣٤) تبني TIBNI هي بلدة «التامة» التي تبعد ١٢ كم عن القائم وتقوم عندها خرائب خنداتو او اجدان، التي ورد ذكرها في حملة الملك الاشوري تكولتي نينورتا الثاني (٨٨٩-٨٨٤ ق.م) وقد نهبها نيوبلاصر ولد نبوخذ نصر سنة ٦١٦ ق.م.

(٣٥) سماها مادان MADAN وهي «الميادين» على مقربة من قلعة الرحبة العربية التي عرفت باسم رحبة بن مالك.

(٣٦) صبخايا هي بلدة الخصيبة التي تقع على الطريق المحاذي للفرات بين بلدة التامة والبوكمال.

(٣٧) حمام (بتشديدالميم) قرية تبعد بمقدار حوالي ثلاثين كيلو مترا عن حلب

(٣٨) ARACK هو الشراب المشهور صنعه وتناوله في العراق لانه يستخرج من التمور وقد عرف هذا الشراب من عهد السومريين ومابعدهم

درجة «اننا ذهبنا الى نوم ونحن في اسوأ ملبس في مسكن يعشعش فيه البق!». وفي «مسكنة» [٣٩] حيث اقدم لجمن على معالجة المرضى والمصابين، غادرت القافلة نهر الفرات لتضرب في الارض عبر الريف، متجهة الى حلب.

كانت المرحلة الاولى من هذا القسم من الرحلة، قد اوصلت القوم الى «دير حفر» [٤٠] وكان لجمن قد استخدم في رحلته الطويلة والسريعة التي تحدثنا عنها الآن، برذونه الذي كان «عاجزا عن السير تماما». ومع ذلك فقد تم قطع الاميال الستة والثلاثين خلال عاصفة معولة في اليوم الرابع والعشرين من شهر اذار حيث انتهت الرحلة في فندق «العزيزية» بمدينة حلب ذاتها.

لجأ الدكتور «اليوت» الى سريره مصابا بنوبة برد شديدة، في الوقت الذي راح فيه لجمن يجدد مظهره وملابسه، وينعش جسمه بحمام جيد، وبعشاء فاخر، ويحتفل – على انفراد باجتيازه الصحراء لاول مرة بنجاح.

في اليوم التالي كان «لونغورث» [٤١] القنصل البريطاني، وهو «صديق عزيز قديم» قد دعاه لتناول الطعام، مع كل من المستر «جي» [٤٢] والمستر «لورين» [٤٣] السكرتيرين الاوليين في السفارتين الامريكية والبريطانية في اسطنبول، واللذين كانا في طريقهما الى بغداد.

وفي اليوم السابع والعشرين من اذار واصل لجمن رحلته بالقطار الى دمشق. كانت الرحلة «مثيرة للاشمئزاز وعلى الاخص في «الرياق» [٤٤] حين كان علي ان اغير القطار الذي اركبه، الى قطار آخر ذي مقاس ضيق، حيث حشرت مع تركيين بدينين في نصف عربة». وحين وصل المدينة حل في فندق فكتوريا» الذي وجده غاليا جدا وكريها جدا وكبيرا جدا مزدحما بالسواح الذين حجزوا لدى شركة توماس كوك.

ولقد خاب امله، بصفة غريبة في الاسواق التي لم يعتبرها جد شرقية غير انه استمتع «باعظم منظر مستطاع، بالسهل وبمدينة دمشق، اللذين كانا رائعين من على قمة تل «الصالحية» في شبه دائرة من التلال المكللة بالثلوج، التي كان يتوجها «جبل حرمون» الذي استحق اسمه العربي الذي اطلق عليه وهو «جبل الشيخ» [٤٥]

---

(٣٩) مسكنة: بليدة على الضفة اليمنى من نهر الفرات منها يبدأ الطريق رأسا الى مدينة حلب وعلى مقربة منها اثار المدينة القديمة التي عرفت في العهد الاشوري باسم «ثباكوس» وتعرف الآن باسم «الدبسي»

(٤٠) دير حفر على مقربة من ديو الزور.

(٤١) LONGWORTH

(٤٢) JAY

(٤٣) LORAINE

(٤٤) الرياق: هي مدينة الرياق داخل الاردن والتي تقوم على سكة حديد سوريا الحجاز سابقا، وعلى مقربة من الحدود السورية.

(٤٥) جبل «حرمون» هو المعروف باسم جبل الشيخ في لبنان

اقبل في تلك الليلة «نوع من رجل انكليزي يدعى «فارلي» (٤٦) . (غير واضح جدا) لكي يراني ويقول لي بانه سوف يأخذني الى نجد والكويت...» كان هذا اول تلميح توفر لدينا عن خطط لجمن المقبلة. وفي اليوم التالي غادر الى بيروت، الميناء السوري (٤٧) . ومن فوق جبال لبنان التي ترتفع اربعة الاف قدم، رأي المنظر العجيب لتلك الجبال ذاتها، التي كانت ترقد في سماء زرقاء اشبه باللازورد، والقرى ذات السقوف الحمراء القائمة على منحدراتها التي كانت تغطيها اشجار «التنوب» (٤٨) وعرائش الكروم الممتدة الى السهول في الاسفل. وعلى حاشية البحر كانت بيروت ذاتها اشبه بجزيرة تطفو فوق بحر من الزمرد!.

هنا حل لجمن في الفندق الالماني الذي كان مليئا بالالمان طبعا، كان بينهم رجل انكليزي واحد مخيف ومثير للضجر، انه نائب القنصل. ولقد تأثر لجمن كثيرا بتغير السكان هنا. «فلقد كان كل واحد منهم نظيفا بشكل محبب حسن الملبس «وقد شعرت بمذلتي وانا ارتدي بدلتي القديمة!».

ولقد سمع من نائب القنصل المضجر بان مائتي شخص كانوا قد قتلوا خلال الاشهر الثلاثة الماضية في مصادمات وقعت بين المسلمين والمسيحيين، وذلك ثمن آخر دفعه السكان نتيجة الحكم التركي السيئ.

في اليوم الثاني من شهر نيسان، استقل لجمن الباخرة، «الامير عباس» احدى بواخر الخطوط الخديوية في رحلة محببة من الشاطئ في طريقه الى اسطنبول، وكان اعجب منظر رآه هو منظر الجبال المكللة بالثلوج، والتي كانت تتلألأ زاهية قبالة السماء الخالية من السحب، ذات الزرقة البراقة طيلة الطريق من بيروت حتى طرابلس، ولقد قاسى اثناء الليل، كثيرا من الذين شاركوه المنام، والذين دخل معهم في عراك شديد.

ولقد استبشر كثيرا حيث وصل الى «مرسين» (٤٩) .

كانت مرسين» التي تشاهد جبال طوروس في مؤخرتها عن بعد، قد بدت مشرقة وجميلة ولكن النظر اليها عن قرب جعلها تبدو «مدينة صغيرة، وقذرة، وقد اضجرتني ضجرا شديدا على الرغم من ان الفندق فيها قد زودني بقائمة الاجور التي بلغ طولها قدمين على الاقل، لكنها لم تكن سيئة!»

---

(٤٦) FARLI

(٤٧) لم يتم تمزيق سوريا، وفصل لبنان عنها، الا بعد فرض الانتداب الفرنسي عليها، حيث عمد الفرنسيون، مثل غيرهم من المستعمرين، الى تفتيت وحدة البلاد التي كانوا يحتلونها، وتمزيق اوصالها، وتفريق سكانها بما كانوا يصطنعونه من الحدود. ومن المؤلم جدا ان هذه الحدود المصطنعة ظلت قائمة، بل ازدادت حدة حتى بعد ان استقلت تلك البلدان وافترض قيام حكومات وطنية مستقلة متحررة من النفوذ الاجنبي فيها

(٤٨) FIR وهو شجر اشبه بالارز او اللبلاب.

(٤٩) مرسين من الموانئ التركية المعروفة

بعد ظهر اليوم الرابع من الشهر واصل لجمن سفرته بالقطار الى «ادنة» حيث انضم اليه احد المسافرين من الباخرة يدعى «ستيورت» فواصل الاثنان رحلتهما سوية بالقطار الى «غلك بوغار» حين كانت هناك عربتان من طراز «مسطح القعر» تنتظرهما.

بدأ الاثنان رحلتهما في الساعة التاسعة والنصف صباحا. وكادا ان يتحطم من شدة الارتطام، بسبب الطريق السيئ بشكل مخيف والذي لم يتحسن الا بعد ان دخلا الدرب الذي يمر خلال احد التلال. وحين بدأ الطريق يعلو، اخذ المنظر يتحسن هو الآخر الى ان استوفى شكله وجماله الخلابين. كانت تطوقها من كل الجوانب جبال «طوروس» المتوجة بالثلوج. وكان طريقها يتلوى خلال غابات محببة تثب فيها الجداول الفوارة وتتلألأ الى ان وصلا «غلك خان». وهنا امضيا الليل بعد ان اجتازا احد المضايق العجيبة، فاكملا مسيرتها التي استغرقت خمسين كيلو مترا. على ان الغرفة التي اعدت لي في الخان كانت قذرة، الى درجة ان لجمن اضطر الى ان ينام في الخارج.
في صباح اليوم التالي واصلا مسيرتها عبر بوابات سسيليا.[٥٠] فصعدا الى قمة ممر يرتفع بمقدار اربعة الآف وستمائة وستين قدما، ثم هبطا من هناك خلال منظر لاحدى الضواحي حتى بلغا «اكبريو»، حيث تناولا طعام الغداء. ولقد امضينا يوما مدهشا في احد الخانات ببلدة «اولو قشلة» وناما في غرفة مغلقة مع مجموعة من المواطنين المحليين الذين وجدوهم يبحثون عن منام لهم ايضا
وفي الساعة التاسعة والنصف ايضا من صباح اليوم السابع من شهر نيسان، وصلا الى «بلغارلو»[٥١] الذي اصبح فيما بعد يؤلف نهاية خط سكة حديد بغداد. ومع ذلك واصلا مسيرتها في الطريق لمشاهدة بعض معالم الريف الى ان بلغا «ارغلي»[٥٢].
لقد قطعا الآن مسافة مجموعها مائة وثمانين ميلا بواسطة العربة، وقررا ان يركبا القطار مرة اخرى. وفي ذلك المساء وصلا الى «قونية»، وامضيا الليلة في فندق المحطة الالمانية الفخم، الذي

---

(٥٠) CICILIAN GATES هي بوابة كلكيا في جبال طوروس

(٥١) BULGARLU

(٥٢) EREGLI

كان بدار بصفة جيدة الى درجة ان لجمن كتب عنه في يومياته يقول «انه مدعاة لاحترام الالمان، وذلك الاخلاص الذي ابداه الاتراك في توفير مختلف وسائل الراحة».

وفي صباح اليوم التالي بكرا الاستمرار في رحلتهما بالقطار الى مدينة «اسكي شهر» واجتازا في طريقهما «افيون قرة حصار». وفي القسم التالي من الرحلة هطلت الامطار على سكة الحديد في مكانين يتطلبان السير اشبه بالابحار في الماء، غير ان القطار سار سيرا حسنا بعد ذلك حتى محطة «حيدر باشا» التي وصلا اليها في الساعة الثامنة من مساء اليوم التاسع من شهر نيسان. جرى هناك تفتيش سطحي لامتعتهما من لدن موظف الكمرك، الذي سمح لهما بعبور المعبر الذي انزلهما على الارض الاوربية في «غلطة بوجي» (٥٣) في مدى خمس عشرة دقيقة. وفي الليلة التالية ذهبا الى «دار الاوبرا» للاستماع الى الريغو لتو (٥٤) واذ ذاك احسا بانهما قد عادا حقا الى العالم المتمدن !

واذ امضى لجمن ثلاثة ايام في مشاهدة المناظر ركب قطار القارة السريع (٥٥) في اليوم الثالث عشر من شهر نيسان. ولقد وجد نفسه لشدة قرفه، ان عليه ان يشرك في غرفته بعربة القطار اثنين من الالمان، واحد الاتراك وكانوا كلهم يحولون بينه وبين الهواء النقي. مرت رحلته هذه بالقطار عبر «اوريان بول» (٥٦) وبلغراد، وبدا بست، وفينا، واوستند (٥٧) فضيق الدوفر، من دون اي حادث

وفي اليوم الثامن عشر من شهر نيسان الذي اشتد فيه البرد، وصل لجمن الى «تشرنغ» (٥٨) . ثم غادر خلال ساعة، الى «بتزرفيلد»، وبذلك يكون قد اتم رحلة امتدت تسعة وسبعين يوما، من سفر وطيد حصل فيه على معرفة طيبة عن مستقبل البعد الذي اعتزم ان يكتشفه فيما بعد

• • •

---

(٥٣) GALATA BUDJE

(٥٤) RIGOLETTO

(٥٥) المقصود به قطار الشرق السريع الذي كان يربط اوربا بالشرق حيث ينتهي في مدينة اسطنبول .

(٥٦) ADRIANPOLE مدينة ادرنة

(٥٧) OSTEND

(٥٨) CHARING CROSS

امضى لجمن في انكلترا فصلي الصيف والخريف، ثم غادر ثانية الى الهند، ليلتحق بكتيبته في «راول بندي» في بداية شهر تشرين الاول. وصل الى راول بندي في الاسبوع الاول من شهر تشرين الثاني سنة ١٩٠٧. وما كاد يستقر هناك حتى استدعي الى «سملا» لاداء واجب خاص. والحقيقة اننا لم نطلع على حقيقة وطبيعة ذلك الواجب، من اي من السجلات التي نحتفظ بها. ولكن يبدو بان ذلك الواجب كان ذا طبيعة سرية، وانه يرتبط ارتباطا وثيقا بالشرق الاوسط، ويتعلق بالبلدان التي كان لجمن يهتم اهتماما شديدا بها.

ولسوء الحظ فان نزرا يسيرا جدا من رسائله عن هذه الفترة، قد قدر له البقاء. ولكن يتضح من الرسائل التي نحتفظ بها بان لجمن كان شديد الانكباب على العمل الذي عهد اليه، وانه كان يجد استخدامه مهما جدا.

وصل لجمن الى سملا في شهر كانون الاول. في ذلك الوقت من السنة كان جميع الموظفين وزوجاتهم وبناتهم يعيشون، بصفة عملية، في السهول، ولذلك كانت المحطة الجبلية الكبيرة مقفرة كانت شدة البرد في اوجها انذاك، وقد توفر مجال حسن للتزحلق على الثلوج. غير ان لجمن بسبب ضجره الواسع، لم يكن قادرا على ان يستمتع بذلك التزحلق، بسبب الضعف الذي كان يحس به في احدى ركبتيه. ولهذا كان يستخدم اوقات فراغه في دراسة خاصة للغات. انه لا يستطيع ان يظل خاملا خلال لحظات تيقظه. فان لا يستطيع ان يستعمل اعضاءه فانه يستطيع ان يستعمل دماغه بذات الطاقة التي يصرفها في العابه او سفره.

• • •

كان التهديد بوقوع الحرب مع افغانستان، قد جعل الموظفين العسكريين والمدنيين لدى الحكومة، يسارعون في العودة الى «سملا» في وقت اكثر تبكيرا من الوقت المعتاد، واذ ذاك اخذ لجمن يحرك ذهنه بان احتلال عاصمة الافغان هو الاجراء المصيب الوحيد ليس الا. وعلى هذا كتب في اليوم الثلاثين من شهر نيسان يقول «ان المكان برمته يعج باشاعات الحرب. وهناك فكرة عامة مهمة تنطوي على القول بان المشهد كله يحظى بالدعم من لدن «الامير» واننا سوف نجد انفسنا في «كابل» قبل وقت طويل، اذا ماانفذت الحكومة الجبانة، ما هو مصيبب، الامر الذي افترض فيه بانه لن يقع.

وفي الوقت ذاته فانني انتسب الى واحد من اولئك الافراد الذين يظلون في الخلف ولديهم العمل كله، لانه ما ان يأتي المشهد، حتى يبدو عليه بانه سوف يؤثر في كل فرد بكل الطرق التي يمضي بها، سواء كان للمرء ام لم يكن، اي شيء يفعله مع قسم ماالم «مختص!. وعلى هذا يبدو انه من المخجل حقا، ان يبقى المرء قابعا في دائرته خلال مثل هذه الايام المستحبة ولذلك فليس في

مقدوري ان انهض قبل الساعة الخامسة والنصف او الساعة السادسة، والتي تكون متأخرة عن ممارسة بعض العاب التنس. ان سملا ملئ بالناس الآن، ولقد قدم «اللورد كتشنر»[٥٩] ونائب الملك اليها مسرعين، بقصد تقدير الموقف.

لقد تم تجنب الحرب بكل سعادة، وخلال اسابيع قليلة عادت الحياة في «سملا» الى مجراها الاعتيادي. كان لجمن ما يزال يواصل عمله بصرامة. لكن ذلك العمل لم يكن ليحول بينه وبين مزاولة الرقص معظم الليل حين تتهيأ الفرصة لذلك وبحلول شهر ايلول اخذ الفصل يتقدم مسرعا نحو الانتهاء، واخذت دورات البهجة، تتباطأ نوعا ما، وتلك حقيقة لا تلائم طبيعة لجمن. وحين انتهى الموسم في شهر تشرين الاول، انتهت فترة المهمة الخاصة التي كلف لجمن بها، ولذلك عاد ثانية الى كتيبته في «راول بندي». لم يكن العمل هناك مضنياً. ولهذا وجد نفسه منهمكاً في دراسة خاصة، لانه كان يريد ان يعد نفسه للقيام بعمل اعظم، كان يحس في اعماقه بانه قد طلب منه ان ينهض به. وعلى هذا راح يهيئ نفسه لان يصبح ملائما لكل المظاهر كما ينجز مثل ذلك العمل.

في شهر نيسان ذهب لجمن الى «كلكتا» لكي يهيئ خلال شهر واحد دراسة خاصة استعداداً للامتحان باللغة العربية. ولن ندهش اذا ما علمنا بان حياة المدينة لم تكن تلاؤمه، وانه سرعان مامرض بسبب ذلك، ومع هذا فقد نجح في ذلك الامتحان اي امتحان اللغة العربية نجاحا جيدا.

وبعد اسابيع قليلة عاد لجمن الى «راوال بندي» مسرورا ولقد وجد المدينة تعج بالاجواق الموسيقية التي يحبها، لكنه تضايق من تلك الاجواق لان معظمها كانت رديئة. لقد اقترب الوقت الذي كان على لجمن ان ينفذ فيه العمل الذي كان يمارسه خلال السنة الماضية. كان على وشك ان يبدأ رحلة استكشافية في اواسط الجزيرة العربية. لقد اراد ان يقتحم جزءا من ذلك البلد الذي لم يزره قبلا اي رجل ابيض، وقد اصبح الآن يشعر بانه نفسه قادر على ان يقوم بهذه المحاولة. هكذا حصل على الاجازة الضرورية لذلك، واكمل استعداداته للرحلة.

• • •

---

(٥٩) LORD KITCHNER اصبح فيما بعد وزيراً للحربية في بريطانية وكان قبلا يتولى قيادة الجيش الهندي، وعين مندوبا ساميا في مصر خلال ١٩١١–١٩١٤

في اليوم الحادي عشر من شهر تشرين الثاني سنة ١٩٠٩، كتب لجمن رسالة الى امه يقول فيها «انني مغادر اليوم ابتداءا برحلاتي. لقد حزمت امتعة داري، الامر الذي استغرق مني اكثرية الليل، ومن ثم آويت الى فراشي. ولقد فعل ذلك كل خدمي حيث تم ايقاظي قبل الوقت المحدد لانطلاق قطار البريد بربع ساعة، اي في الساعة الخامسة والنصف صباحا. غير انني اعتقد بانني سوف الحق بالباخرة عن طريق ركوب قطار بريد آخر». كانت تلك هي آخر رسالة تلقتها منه اسرته طيلة خمسة شهور!

«الفصل الثالث»

مغامرات الاستكشاف العربية الاولى

١٩٠٩ - ١٩١٠

«القسم الاول»

«ربما افترضت بانني اختفيت نهائيا! . كنت متغيبا لزمن طويل وقد نبهتك الى انني لن استطيع ان انبئك عن المكان الذي كنت ذاهبا اليه، لان (الشخص الذي لايصح ذكره) له ولع بقراءة رسائلي نظرا الى شهرتي السيئة معه! . كنت اقوم بمحاولة كبيرة، والى حد ما غير ناجحة، في الوصول الى الاجزاء المجهولة من اواسط الجزيرة العربية. ان الاتراك يعارضون، لسبب ما، مطامح من هذه النوعية، ولهذا فانني اجابه مشقة في الوصول الى هناك».

كتب لجمن هذه العبارات في بداية رسالة بعث بها الى امه من بغداد في اليوم الثالث والعشرين من نيسان سنة ١٩١٠. ومع ان الرحلة التي اشار اليها، في هذه المناسبة، لم تكن ناجحة الى المدى الذي لم يبلغ به الهدف الذي كان يتوخاه، كانت تلك المرحلة ذات اهمية بالغة ونالت الاعتراف الذي تستحقه

كان لجمن يعد العدة منذ زمن طويل لهذه الرحلة. وقد هيأ نفسه، اثناء سفره، لانجازها. فلقد قام بمسيرة اولية عبر الصحراء كيما يفوز بالتجربة، ودرس بعناية نوعا من الادبيات المحدودة عن الجزيرة العربية، وغربل بكل عناية، المواد التي دونها المكتشفون القدامى من العرب عن تجربتهم

وكان مثل هذا العمل الابتدائي المعتنى به يظهر بجلاء جدية نواياه، واعتنائه، وصبره، مما قام به ليلائم نفسه. ولذلك كان قادرا على ان يبدأ تلك المهمة الشاقة، ويمضي فيها قدما. ولم يسمح له ذهنه العملي، وطبيعته المنهجية، بان يقلل من الاخطار، والمصاعب الجسمانية، التي لابد ان تجابهه اذا قام برحلة من هذه الصفة، كما ان اجتهاده لن يسمح له بان يهمل اي حذر قد يعينه في مشروعه.

في الثالث عشر من شهر تشرين الثاني استقل لجمن الباخرة «كولا»[١] في كراتشي المتجهة الى الخليج العربي. وبعد ان غادر «مسقط» حيث التقى هناك بالملازم «تي. سي. فاول[٢]» من

---

(١) KOLA

(٢) T.C. FOWLE

كتيبة «باتان»[٣] الاربعين، وهو ضابط قدير جدا، اصبح مؤخرا خبيرا بالشؤون العربية. تمت تجربة جو شديد جدا. ذلك ان عاصفة مزمجرة قد جعلت سير السفينة ابعد عن ان يكون امرا مسرا، وقد طغت موجة كبيرة من البحر على السفينة فقتلت احد الركاب.

وفي اليوم السادس عشر من تشرين الثاني وصل لجمن الى «بوشهر»[٤] وبعد يومين هبط في المحمرة، حيث استمتع بكرم «الملازم أي. تي ولسون»[٥] (الذي اشتهر فيما بعد باسم السر ارنولد ولسون حاكم العراق)، والذي قدمه الى رجل هادىء، قوي البنية يبدو عليه مظهر الرجل الدارس، والذي كان يمر باي مجتمع من دون ان يلاحظه احد سوى المراقب الحاذق، والذي كان يحتفظ بشخصية مرموقة غير اعتيادية، تمتاز بالهدوء التام والتأكد الكامل لمثل هذه الشخصية المهيبة. انها شخصية «ئي. اي. صون» الذي جاب الآن منطقة كردستان متنكرا، وموظف المصرف سابقاً، والبطل الذي كرس نفسه مؤخرا للواجب.

وهكذا كانت الصدفة هي التي جمعت معا لاول مرة، ثلاثة من اعاظم الرجال المشهورين من جيلنا الذين عرفوا، ثلاثة من الرجال الذين خدموا انكلترا جيدا ومن دون تطفل، الى درجة ان ايا منهم لم يكن معروفا لدى ابناء وطنه، او ان عملهم كان، لوقت ما، منسيا.

كان ثالث هؤلاء يعيش في سعادة، وينتظر اليوم الذي يحل، حين تحتاج اليه انكلترا مرة ثانية. كتب لجمن في يومياته عن «صون) يقول «بانه رجل ذو اهمية اعظم)، وعن «ولسون» بانه اعظمهم اذا قيست العظمة بالعمل الذي سوف ينهض به. فهو يقول عنه «بانه كان فوق مستواه بكل وضوح، وانه قد ادى قدرا كبيرا من العمل»

قام لجمن بزيارة شيخ المحمرة [٦] صديق انكلترا الكبير، على مثل ماكان عليه اجداده من قبل، والذي اعجب لجمن ببنية رجاله المسلحين جيدا، غير انه وجد عاصمة الشيخ ليس لها سوى القليل من الاهمية.

---

(٣) PATHANS

(٤) BUSHIRE

(٥) تولى ارنولد ولسون منصب نائب الحاكم العام العسكري البريطاني في العراق. وقد اتهم من قبل اقرانه الانكليز بعدم حصافته في تمشية الامور في العراق، مما ادى الى اشتعال نار ثورة العشرين الشهيرة، حيث نقل من العراق بعد تلك الثورة. ولقد اشترك «ولسون» في الحرب العالمية الثانية بصفة طيار ولقي حتفه حين سقطت طائرته وتحطمت في احدى المغامرات

(٦) هو الشيخ خزعل بن جابر بن مرداو من قبيلة كاسب من المحيسن من عشائر كعب العربية ولد في سنة ١٨٩٧ وحين توفي ابوه تولى اخوه مزعل رئاسة الامارة ولكن خزعل مالبث ان اغتال اخاه وتولى الحكم مكانه فهادن الانكليز وسايرهم الى ابعد الحدود، فاستفاد منهم ماديا وراح يبذخ ويوزع الاموال جزافا على كل من كان يمدحه، او يقدم له الوصائف والمغنيات والراقصات. وحين تولى رضا خان الحكم في ايران بانقلاب قام به وقضى على حكم آل قاجار، وجد الانكليز ان مصلحتهم ستكون مع حكم رضا خان، لانهم بحكم خبرتهم الاستعمارية، لايثقون بالحكام العرب ولذلك شجعوا رضا خان على احتلال الاحواز والمحمرة والقاء القبض على الشيخ خزعل وايداعه السجن في طهران الى ان مات فيه سنة ١٩٢٥.

لقد حكم لجمن بحق، بان اللغة العربية لهذه الاجزاء كانت سيئة، كما انه لم يكن يفهمها، الامر الذي اثار دهشته. وفي الليلة الثالثة لمكوثه هناك، كان هو وفريق كبير قد استضيفوا من لدن احد التجار الفرنسيين، الذي اشتمل ضيوفه على «اربع نساء ذوات فضيلة مشكوك فيها نوعا ما»

كان لجمن قد عاد من تلك الضيافة في الساعة الثالثة صباحا، بعد ليلة صاخبة، وفي الليلة التالية وصل مدينة البصرة فاقام في منزل «ماكي»[7] ممثل شركة السادة ستريك وشريكه[8]. مكث في البصرة حتى اليوم السادس والعشرين من شهر تشرين الثاني، ثم واصل دراسته اللغة العربية تحت اشراف احد البغداديين، الذي وجد لهجته جديدة بالنسبة اليه، والتي كان من العسير عليه ان يفهمها.

وفي اليوم السادس والعشرين من تشرين الثاني غادر متوجها الى بغداد فوصلها في اليوم الثاني من شهر كانون الاول. كان المقيم البريطاني في بغداد «لورمر»[9] مؤلف كتاب «المعجم الجغرافي الفارسي»[10] وهو عمل قياسي عن الخليج العربي، قد اصر عليه بان يمكث في المقيمية، حيث جعله لورمر وزوجته الظريفة يشعر باعظم قدر من السعادة. وهنا التقى لجمن بـ «السر وليم ولكوكس»[11] المهندس الشهير الذي مايزال عمله الراسخ في مصر، يحمل الشهادة بمهارته العجيبة، كمهندس. ولقد كان ولكوكس الان مستخدما من لدن الحكومة التركية لانجاز منهاج اروائي كبير في العراق

جدد لجمن اتصالاته بالكثيرين من اصدقائه، واختار جملة من الاصدقاء الجدد، من العرب والبريطانيين والاتراك، لانه، كما هو معتاد بالنسبة اليه، لم تكن لديه موهبة الصداقة

---

(٧) MACKIL

(٨) MESSRS. STRICK & CO. وقد بقيت خطوط هذه الشركة تعمل بين اوروبا والبصرة حتى اواخر سني الاربعينات

(٩) LORIMER من اساطين الاستعمار البريطاني في الخليج. عمل مقيما لبريطانيا فيه سنوات عديدة، ومن ثم عين مقيما لها في بغداد سنة ١٩١٠. وضع اعظم كتاب عن الخليج العربي في ذلك الوقت في اربعة مجلدات ضخمة ترجمته حكومة قطر في ستة اجزاء

(١٠) THE PERSIAN GAZETEER كان العدد الذي طبع من ترجمة هذا الكتاب المهم قليلا فلم ينتشر خارج قطر. وقد لاحظنا من قراءتنا بعض اجزائه المترجمة التي طبعتها حكومة قطر ان الترجمة لم تكن دقيقة كما ينبغي. وكان من الواجب ان يعتنى بهذا الكتاب عناية فائقة وان يعمم في كل اقطار الوطن العربي في الدرجة الاولى.

(١١) SIR WILLIAM WILCOX المهندس المعماري الانكليزي الشهير اقدم في سنة ١٩١١ ويطلب من الحكومة العثمانية على انشاء سدة الهندية على الفرات بعد ان اخفقت السدة التي انشأها المهندس الالماني (شوندرفر) في سنة ١٨٨٩، في تحقيق الغاية التي توخيت من وراء انشائها. وقد شارك في انشاء هذه السدة حوالي ثلاثة الاف وخمسمائة عامل عراقي، عدا الاتراك والهنود والارمن وكان السير ولكوكس هو الذي انشأ «القناطر الخيرية» بمصر على النيل شمالي القاهرة والتي لا تعتبر شيئا مذكورا بالنسبة الى سدة الهندية

حسب. بل انه لم يكن يفقد اية فرصة في التعرف الى اي انسان. يعتقد ان من المفيد ان يتعرف اليه. وكانت قدرته وعدم كلله. قد اعاناه على ان يصيب ادنى قيمة من كل يوم يمر. ومع ذلك يتركان له القوة الكافية للاستمتاع في الاماسي. لان مرحه. ونباهته كانا يحققان نجاح اية وثبة!.

جاء اليه شقيق معلمه اللغة العربية في كلكتا. المدعو «عزو» والذي توفي سنة ١٩١٤. وبكي كثيرا لكي يدعو «عزو» هذا ان يوفر له «معلما للاشياء» ويزوده بخادم يدعى «حاج عجم» وهو «فارسي لايعرف اي شيء».

اختار هو وواحد من «النواب» الهنود، من عائلة «اوده»[١٢] طريقاً عبر الصحراء. وقد ازداد نطاق عمله العربي بالدرس مع «عزيز عزو» واحد الملالي الشيوخ الذي يدعى «سعيّد رمس»

بقيت خطط لجمن سرا دفينا. ولم يستطع احد ان يتصرف بجزء من ذلك الكمال الذي كان يتصرف به ذلك الشاب الباسم، ذو المنظر التافه. غير ان الاتراك كانوا شديدي الارتياب منه. واكثر ريبة من نواياه. فلقد تم استجوابه عن اسباب زيارته لبغداد. ولكن اجوبته كانت على الدوام هي ذاتها، وكان يلقيها بتلك الابتسامة العجيبة التي اعتادها. «ان المناخ يلائمني الى حد الكمال. ان بغداد والمنطقة تحتفظان بالمزيد مما اهتم به، وان لدي الكثير من الاصدقاء، وانني استمتع بمجتمعهم».

وعلى هذا الاساس واصل لجمن رحلات صيده، وجولاته غير المؤذية وهو راكب، وولائمه الصاخبة، وتصرفه البريء، الذي لايلفت النظر في الظاهر. غير ان الاتراك استمروا يراقبونه بدقة، ولكنهم لم يكتشفوا اي شيء مريب في تصرفاته. كان الاجراء التالي قد صمم على اساس ان يثير قلقهم حين يحين الوقت الذي يغادر فيه المدينة. كان يقوم علانية بجولة صغيرة للمشاهدة. غير ان على المرء ان لاينسى كيف كانت حركاته بريئة، حتى قبل اقتحامه بلاد «التبت».

في اليوم الرابع عشر من شهر كانون الاول، وفي الساعة الثالثة وخمس واربعين دقيقة بعد منتصف الليل. غادر لجمن علانية، اشبه باحد «النواب» من الهنود في عربة، الى مدينة

---

(١٢) النواب لقب منحه الانكليز الى المخلصين لهم من الهنود، ومن بين هؤلاء هم اعضاء عائلة «اودة OUDH» من كربات الاسر الشيعية في الهند. وقد سكن عدد من هؤلاء الهنود العراق قبل الحرب العالمية الاول وبقيت دارهم الواقعة في جانب الكرخ قرب جسر الشهداء الحالي، مقرا مهما من المقرات في بغداد لاقامة مشاهد التعزية بمصرع الامام الشهيد الحسين بن علي ابن ابي طالب كرم الله وجهه وقد انشيء مستشفى الولادة في الكرخ على ذات الارض التي كان يقوم عليها «بيت النواب».

كربلاء. كان مقدمه قد احسن الاعلان عنه. وقد استقبله «محمد حسن» [١٢] القنصل البريطاني هناك على بعد ثمانية اميال خارج المدينة.

كان الطريق الذي اجتازه يعج بالزوار، الذين اخذوا طريقهم الى مرقد الحسين. وكانت المدينة ذاتها تغص بالآخرين، وذلك للاحتفال بذكرى مقتل الحسين. والحقيقة ان لجمن كان قد التقى هناك باحد الموظفين البريطانيين الذي منحه اهمية ظل يرعاها بعناية. لقد كان يرغب ان يخلق لنفسه مثل تلك الشهرة التي يستطيع بها ان يلتقي بالرجال العظام مثلما يلتقي بمن هم دون ذلك، كما تكون معرفته تامة، وان لاتتم معاملته بصفة سطحية.

لقد كان يعتزم ان يلتقي بامير الجزيرة العربية ، كما يستطيع ان يحكم على امكانيات الجزيرة العربية، ويلم بمعلوماتها بشكل مصيب فلقد كانت الانباء تجتاز انحاء الجزيرة بالطريقة السريعة. والسحرية التي امتاز بها الشرق، ولذلك كان الرجال يذيعون تلك الانباء في الاماكن التي يتناولون فيها القهوة، وحين يمر احدهم بالآخر، ومن دون توقف، في مجاهل الصحراء.

لقد استفاد لجمن من الدروس التي تعلمها، من تجارب الرحالين السابقين، الذين كانوا غالباً مايجابهون معاملة وضيعة في جولاتهم، غير انه صمم على ان يكون هو نفسه اكثر نجاحا من الآخرين. ولذلك وجدناه في كربلاء يقيم، بشكل مترف، في بيت «مجيد خان» [١٤] احد الامراء الفرس. ولقد دعاه المتصرف «جلال بك» وعقيد كردي كان يرأس الحامية — وينبغي ان يتم تذكر هذين النوعين من اللطف بصفة خاصة.

كان قد خرج في رحلة صيد امتدت عشرة اميال على طريق النجف حيث شاهد الكثير من مضارب «بني حسن» [١٥] الذين كانوا يتنقلون حول السهول، واهم من ذلك انه علم بان قبيلتي شمر و «عنزة» كانا قبل شهرين سابقين، في موقع مجاور لمضارب بني حسن، متجمعتين في خمس عشرة الف خيمة! . ونظراً لتصرفه البريء، والصحيح، فقد اخفق الموظفون الاتراك في ان يلاحظوا بانه قد اتم استعداده في سبيل حركة جريئة قد انجزت رغم انوفهم جدا!.

في اليوم السابع عشر من شهر كانون الاول مر احد البدو بحارس تركي مقيم على الطريق المار الى «شثاثة» [١٦] من دون ان يثير اية ملاحظة، ولكنه كان يحمل في ذهنه تعليمات محددة

---

(١٢) محمد حسن من اسرة حميد خان الهندية الشيعية والتي استوطن عدد من افرادها العراق قبل الحرب العالمية الاولى بوقت طويل، ومازالوا فيه وكانت ارتباطات هذه الاسرة، مثل اسرة النواب، وثيقة ببريطانيا وسياستها في الشرق وفي العراق بصفة خاصة

(١٤) من نفس اسرة حميد خان الفارسية الهندية الاصل

(١٥) عشيرة بني حسن: تقطن المنطقة القائمة على ضفتي الفرات بين مدينة الكفل وجسر العباسيات

(١٦) شثاثة ويذكرها العامة باسم شفاثة ايضا

وواضحة، وفي «عباءته» [١٧] رسالة ومكافأة مناسبة من لدن لجمن. وفي اليوم الثامن عشر من الشهر ذاته واصل لجمن مسيرته بصفة سائح، لكنه ترك وراءه تراثا من الصداقة والثقة.

كان قد وصل النجف عند المساء بعد ان قطع اميالا من طريق مترب، مثقل بالرمال العميقة. لقد غدا ذلك الطريق فيما بعد يؤلف الحد الشرقي لمملكة لجمن. ولقد دعاه القائمقام، وزار الكوفة التي تقع على قناة الهندية حيث تم دفن «علي» الخليفة الرابع هناك [١٨]. وبعد ان فتش مدينة النجف باعتناء، تم استقباله من لدن مجتهد فارسي شهير هو سيد كاظم الطباطبائي [١٩]

ولقد خرج مرة اخرى في رحلة للصيد، فتجاوز الريف الذي تسكنه قبائل بني حسن هذه المرة باتجاه «ابي صخير» [٢٠] و «الجعارة» [٢١] وعاد ليلا الى الكوفة

كانت رحلات الصيد هذه، التي يندر ان ينتج عنها المزيد من الرياضة، قد تبدو متعة لاقيمة لها. غير انها بالنسبة الى رجل، لم يفقد اية علامة من الارض، كانت تستخدم لغرض آخر. وفضلا عن ذلك فان كل فرد في المنطقة المجاورة، كان يود ان يعرف بعض الشيء عن هذا الرجل الغريب، الذي كان ينفق القليل من الذخيرة، ولكنه كان مسرورا لان يتحدث اليه.

في الحادي والعشرين من كانون الاول ذهب لجمن الى «الكفل» [٢٢]، في اعالي قناة الهندية حيث استغرقت رحلته عشر ساعات. وهنا لقيه شخص محلي عظيم الشأن «احد الملالي غير الاعتياديين، ذو عين زجاجية ومعطف اسود مشقوق الذيل» غير ان هذا الملبس الشاذ، كان قد اهدي من لدن الموظف بمثابة تكريم لضيفه. وكذلك التقى به هناك ممثل قائمقام الحلة، ووكيل الثري اليهودي البغدادي «مناجم دانيال». [٢٣] وكان هذا الاخير معروفا جدا لدى كل الموظفين البريطانيين !يام الاحتلال.

---

(١٧) كتب المؤلف كلمة «عباء» باللفظ العربي ABA (١٨) لم يدفن الخليفة الرابع على بن ابي (رض) في الكوفة – كما ذكر المؤلف ذلك خطأ وانما في النجف، ولقد كانت الكوفة مقر امارته

(١٩) السيد كاظم الطباطبائي اليزدي من مجتهدي الشيعة الفرس الذين هادنوا الانكليز

(٢٠) كتبها خطأ ابو سخان

(٢١) كتبها خطأ «الجعايا» وتسمى الان باسم الحيرة المدينة الشهيرة في العراق قبل الاسلام. اما ابو صخير فهي بلدة صغيرة تقع على قناة البكرية من الفرات، جنوبي النجف بثمانية كيلومترات

(٢٢) اخطأ المؤلف فكتبها (كفي KIFI) واعتقد ان مرد ذلك خطأ مطبعي وفيها يقع قبر حزقيال احد انبياء اليهود الذي يعرف باسم «ذي الكفل».

(٢٣) اخطأ المؤلف في ذكر «مناحيم» فكتبه مانشيم MANSHIM وهو من اشهر اثرياء اليهود في العراق. انشأ لهم الكثير من المنشآت الخيرية من امثال المدارس والمستوصفات والمشاغل في بغداد وغيرها، ولا تزال سوقه التي عرفت باسمه قائمة حتى الآن في منطقة جامع مرجان او «المصبغة»

زار لجمن قبر «حزقيال»، و «البناية المخيفة»، برس نمرود[٢٤] الموقع التقليدي لبرج بابل، ومن ثم عاد ثانية الى الحلة، حيث مكث مع «عزرا بن مناحيم دانيال»، ومن هناك ذهب الى موقع بابل، وعاد الى الحلة مرة اخرى حيث زار «احد المستشفيات القذرة»، ومدرسة الالاينس الاسرائيلية[٢٥] التي انشد فيها نشيد «يحفظ الله الملك!» تكريما له في حفلة عشاء تلك الليلة حضرها كل اكابر القوم، بما في ذلك «الملا» الرئيس هناك، الذي قال عنه بانه «شخص غير مقبول بسبب شدة جفائه». ولقد واصل رحلته، التي انطوت على صيد الدراج، بذلك المظهر الفخم الى المسيب، ومنها عاد الى بغداد

في سنة ١٩١٠ لم يكن يعرف سوى النزر القليل عن الاماكن او الافراد الذين زارهم لجمن، وكذلك لم يعرف سوى القليل عن القطر ذاته. هل كانت صدفة حقا، ان نجد تلك الشخصيات البارزة التي التقى بها لجمن الآن، قد اصبحت من اصدقائنا المقربين الينا؟ اننا نسيء استخدام ذكرى لجمن اذ نعزو اليه نتائج لم يكن هو نفسه قد ادعى الثقة فيها غير ان لجمن كان اول انكليزي يتصل شخصيا بمثل اولئك الرجال

وحتى حلول شهر كانون الثاني لم يكن مكوث لجمن في بغداد، ينطوي على شيء اكثر من الدعوات والزيارات بما في ذلك زياراته لـ «داود بك الداغستاني بن محمد باشا والي الموصل»[٢٦] . ومع هذه الزيارة اعدت مغامرة جريئة اخرى، استغرق اعدادها عدة شهور، اضافة الى الشكوك التركية التي تضاعفت عنه

واصل الرجل الانكليزي «الفارغ» تحرياته العفوية بطريقة كانت تعلن عن عبثه حتى اليوم الثالث عشر من كانون الثاني، حين اختفى بصفة سحرية تماما. وقد يبدو غريبا ان يومياته لاتحوي اي ذكر لتصرفاته خلال الايام القلائل التي سبقت اختفاءه، ماعدا مدخل واحد له اهميته، والذي دون فيه بانه انفق يوما في دراسة الخرائط. ومع ذلك فان سبب وجود فراغ في سجلاته من اليسير توضيحه: ذلك لان الاحتفاظ بسجل كامل عن نشاطاته، سوف يكون امرا محفوفا بالخطر اذا مانسي اين يضع يومياته، او سطا عليها عملاء المخابرات التركية

---

(٢٤) برس نمرود هي اطلال مدينة «بورسيبا» القريبة من بابل

(٢٥) مدارس الاليانس الاسرائيلية: اسستها جمعية الاتحاد الاسرائيلي» الفرنسية عام ١٨٦٤ وعهدت برئاستها الى المستر «ماكس» بمشاركة اثنين من الحرفيين اليهود الاوربيين هما اسحاق لورين ساعاتي وهيرمان روز نفيلد خياط ثم جرى فيها تعليم الفرنسية والانكليزية والعبرية والعربية والتركية (يوسف غنيمة: «نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق» ط ١٩٢٤

(٢٦) هو محمد فاضل باشا الداغستاني، من الشخصيات البارزة لجماعة «الججن» او الجيجى» التي حرفت الى «شيشى» و «شيايشة» الذين هاجروا في سنة ١٨٦٠ من اقليم «داغستان» الاسلامي في روسيا، الى تركيا واستقروا فيها. وقد اشترك محمد فاضل في عدة حروب، منها الحرب العثمانية الروسية سنة ١٨٧٧. واشغل منصب ولاية بغداد وكالة عدة مرات ونال رتبة «فريق» في الجيش العثماني وقد تولى قيادة الجيش العشائري الذي الفه الاتراك لمحاربة الانكليز المحتلين في سنة ١٩١٦، واستشهد في معركة الكوت في تلك السنة، ودفن في مقبرة الامام الاعظم ببغداد

وما ان عاد الرسول الذي غادر كربلاء وهو يحمل رسالة لجمن في عباءته، بجواب لتلك الرسالة، حتى تبدلت صفة حياته واسلوبه على الفور. فقد اختفى عن الانظار مدة ثلاثة ايام كما يكمل تنكره، لانه كان يريد ان يزور احد الاقسام من قبيلة «عبدة شمر»[٢٧] احدى القبائل البدوية الكبرى في اواسط الجزيرة العربية.

وما ان اتم تنكره في صفة احد الاعراب لاول مرة، حتى مكث يوما واحدا في الكاظمية. واذ صحبه دليله «خضر بن عباس»، حتى غادر المدينة حين كانت راقدة، في اخر الليل، فعبر النهر من دون ان يلفت الانظار اليه، مع قلة من رفاقه، والتقط جوادا، ثم بعث ببدويين كما ينتظرانه، ويدلانه الى احد المضارب العربية.

وما ان عبر النهاية العليا والجافة لقناة «الصقلاوية» على مقربة من «خان المفتش»[٢٨] حتى اقتيد بسرعة الى ذلك المضرب العربي. وللمرة الثانية نجد يومياته خلوا من ذكر حديثه مع «الشيخ عبدالله».

غير اننا استطعنا ان نعرف من مصدر اخر، لحسن الحظ، الهدف من تلك الزيارات. لقد كان يتفاوض بهدوء مع ذلك الشيخ كما يقنعه بان يأذن له بمصاحبته الى «حايل» التي كان الشيخ يعتزم السفر اليها.

واذ اسدل عليه الليل ستاره حتى توجه الى مضرب الشيخ عبد الله رئيس «البوعقاب»[٢٩] احد فروع «عبدة شمر»، والذي كان يتألف من ثلثمائة خيمة في ضواحي «الشويب»[٣٠]

كان هذا اول اتصال يجريه لجمن مع واحدة من القبائل البدوية الكبرى لأواسط الجزيرة العربية.

استقبل الشيخ عبدالله، لجمن برقة عظيمة، وبحث لجمن معه مكانه في الوصول الى «نجد»، لانه كان قد علم عن طريق اتصالاته في كربلاء، بان «عبدة شمر» كانت على وشك ان ترحل جنوبا الى «حائل» تحت زعامة الشيخ «ماجد بن عجيل» الذي كانت له علاقة مصاهرة مع «سعود بن عبد العزيز بن الرشيد»[٣١] الامير الذي يحكم اتحاد شمر الكبير في «حايل» سبق للجمن ان مهد المجال للالتقاء مع «ماجد بن عجيل» الذي اعرب له عن رغبته في

---

(٢٧) اخطأ المؤلف فذكر الاسم «عبدر شمر» وهذا الفرع من شمر من بين الفروع التي نزحت من الجزيرة واستوطنت مناطق الصويرة وحواليها حتى الكوت، ثم امتدت الفروع الاخرى الى الشرقاط والموصل وسنجار

(٢٨) خان المفتش وهو نفسه خان النقطة لكنه عرف مؤخرا باسم «خان ضاري» رئيس عشيرة زوبع

(٢٩) ذكره المؤلف خطأ باسم عبد الله اعكنار AQNAR وهو تحريف لاسم آل «عقاب العجل» من فرع الاحية من فروع شمر في العراق. وكانت منازلها قرب الفلوجة

(٣٠) الشويب سهل ممتد بين ابي غريب والفلوجة.

(٣١) سعود بن عبد العزيز بن الرشيد. سوف نورد نبذة عن حياته في بداية الفصل الرابع

رؤيته. لقد كان ينتظر في بغداد الى ان حانت الفرصة الملائمة للاتصال بالقبيلة، وقد طلب اليه «ماجد بن عجيل» ان يظل هادئا هناك، الى ان يتراخى الاتراك الذين كانوا يراقبونه.

كانت شمر متحالفة مع الاتراك، وكان على «ماجد بن عجيل» ان يتصرف بمنتهى الحذر، اذا مااصبح استقباله «لجمن» معروفا. ولقد تقرر ان ماينصح به ان يتم وصول لجمن الى مضرب «ماجد» بطريقة غير مباشرة، بحيث لايكتشف اي اثر له. ولقد نفذت هذه الخدعة بمنتهى البراعة، ولم يرتب الاتراك بان لجمن سوف يغادر عن طريق الكاظمية، ولذلك فانهم من البداية قد اضاعوا اثره.

وفي اليوم التالي اخذ الى قسم «المعموية»[٣٢] من زبيد الذي يتزعمه الشيخ «مزهر»[٣٣] فوصل عند حلول الظلام الى مضارب «عبدة سنجارة» [٣٤] وهي قوة تابعة للشيخ ماجد، وفي اليوم التالي وصل الى مخيم الشيخ ماجد الذي كان يقع في «تل ابراهيم»[٣٥] وقد بحث مع الشيخ ماجد كل تفاصيل الاستعدادات التي اعدها لجمن لكي يصحبه حين تحركت القبيلة نحو الجنوب

كان من اللازم ان يزور لجمن بابل بصفة مناسبة. وعلى هذا فقد ركب، وهو لما يزل متنكرا، مع ماجد نفسه الى المسيب» وهي مدينة صغيرة على مقربة من «سدة الهندية»، بحثا دون جدوى، عن جماعة من قبيلة «عقيل» الذين يتاجرون بالابل. اظهرت هذه الزيارة لمدينة المسيب مخاطرة لجمن الباردة، وثقته بدقة تنكره.

كانت ناحية المدينة تضم عددا من الموظفين الاتراك. ولما كانت المسيب تقع على الطريق القادم من بغداد الى كربلاء، فقد كان يحتفظ بمراقبة خاصة له هناك. وفي اليوم الثامن عشر[٣٦] عاد لجمن الى بغداد فدخل المدينة ليلا دون ان يلاحظه احد من الناس. وفي صباح اليوم التالي، واذ كان يرتدي ذات الملابس، استمر في انشغالاته المعتادة كما يضايق الاتراك الذين لاحظو بالطبع تغيبه التام، لكنهم اخفقوا في توضيح كيفية تملصه من تيقظهم واحتراسهم، او ان يدركوا المكان الذي كان فيه.

كان من اللازم على لجمن ان يعود الى بغداد كما ينتظر الى ان يتهيأ «ماجد» للحركة. وما دام «ماجد هذا داخل المنطقة التي يزورها الاتراك فان من الخطر الشديد على لجمن ان يمكث معه. كان لابد له ان يشتري الابل التي يحتاجها، ولذلك امر مرافق «ماجد»، بكل تقبل، ان

---

(٣٢) المعوية «آل معاوية فخذ من افخاذ قبيلة زبيد التي استقرت على شواطىء دجلة في منطقة «الصويرة» وما يجاورها

(٣٣) ذكره المؤلف باسم شيخ هزار SHEIKH HAZAR والاصح انه شيخ مزهر وربما كان هو مزهر السمرمد ذاته

(٣٤) ذكرها المؤلف باسم عبدر زيغانت ABDAR ZIGANT والاصح «عبدة سنجارة» وهي فرع من شمر استوطنت منطقة سنجار

(٣٥) تل ابراهيم: هي اطلال مدينة «كوثى» البابلية الشهيرة وتقع قرب المسيب

(٣٦) المقصود به الثامن عشر من شهر كانون الثاني ١٩١٠

يقوم به، وفي الاخير تمت تسوية اموره الشخصية، لانه كان يتوقع ان يكون بعيدا خلال القسم الجيد من السنة

على ان عودته التي لامجال الى تجنبها، قد زادت في مصاعبه، لان تغيبه قد اثار فزع الاتراك بصفة ملموسة، وقد تضاعفت رقابتهم لحركاته. غير ان لجمن لم يعط ادنى اشارة تدل على انه كان يعرف رقابتهم له، ولم يدع تصرفه تبدر منه اية اشارة على مغادرته مرة اخرى. ومع ذلك فانه غادر، على حين غرة، في مدى يومين الى كربلاء، التي وصلها في رحلة استمرت طيلة الليل، وقد تجنب، للمرة الثانية، انتباه الجواسيس الاتراك اليه

كان اصدقاؤه قد سبقوه الى ذلك قبلا، وقد تسلحوا بكامل اسلحتهم، وراحوا ينتظرونه في منزل الشيخ «ماجد» في المدينة. ولقد رتب لجمن بان تنتظره ابله خارج المدينة، وان يتم اخفاؤها على مسافة قصيرة. غير انه لم يستطع، لبعض الوقت، ان يخرج اليها، لانه وجد ان كل حركة يتحركها، كانت تراقب من قبل الشرطة التركية.

وبعد مصاعب شديدة استطاع اصدقاؤه العرب ان يتصلوا به عن طريق المسيحي «عزيز عزو» [٣٧] حيث بدأ التفكير في وضع خطة للتخلص من رقابة الاتراك. كان «عزيز عزو» يملك بستانا للنخيل يمتد احد اطرافه الى قناة جافة عتيقة، وآخر ينفتح على الطريق الرئيس. وفي الوقت المحدد وقبل غروب الشمس من اليوم السادس والعشرين من شهر كانون الثاني من سنة ١٩١٠ استدعى لجمن علانية من لدن «عزيز عزو» وكانت الشرطة تراقب خطواته حتى الى الدار، بعد ان كانت تنتظره بنفاد صبر عند الباب التي تفتح على الطريق.

مر لجمن بسرعة خلال البستان مختفيا في ظل الاشجار عن طريق الباب التي تفتح على القناة، فراح يتحرك خلسة على امتداد القعر الجاف للقناة، حتى وصل الى بعض البساتين خارج المدينة حيث كان اصدقاؤه، الذين جاؤوا على انفراد ومن طرق مختلفة، ينتظرونه ومعهم عشرة من الخيل الجيدة.

كان الليل قد ارخى الآن سدوله تماما. واذ كان لجمن يحمل مزودًا عربيا فقد امتطى جواده وتحرك الفريق كله بمنتهى السرعة نحو الصحراء. توجهوا نحو «بحيرة ابو دبس» [٣٨] وهي امتداد طويل من مياه ضحلة عبروها، كيما يختفي اثرهم تماما، حتى وصلوا ببالغ السرعة، الى مخيم ماجد في الساعة الثانية، بعد منتصف الليل.

---

(٣٧) عائلة «عزو» من العوائل المسيحية في الموصل التي نزحت عنها الى بغداد. وكان احد افراد العائلة، وهو فؤاد عزو، يقيم في كلكتا، وهو الذي علم لجمن اللغة العربية

(٣٨) هو «هور ابو دبس» الذي يقع غرب كربلاء، ويصعد الى شفاثة. وفي اوقات الفيضان تصب فيه مياه بحيرة الحبانية، كما انه يتصل بجدول الحسينية الذي تقع عليه مدينة كربلاء

كان لدى ماجد مئتي خيمة، وقد انضم لجمن بسرعة الى احدى الخيام التي تقع في اقصى طرف من المخيم، وبقي هناك ينتظر الحوادث بهدوء

وفي الوقت ذاته كانت الشرطة التركية تنتظر خارج دار «عزيز عزو» بنفاذ صبر لمدة اربع ساعات، وهي تتطلع الى الباب المغلقة منتظرة ان تنفتح، والى عودة ظهور لجمن منها. غير ان الباب ظلت موصدة، ولايوجد أي اثر يشير الى لجمن، الى ان غامرهم الشك اخيراً، بأن هناك شيئاً من الخطأ قد حدث، وأذ ذاك دخلوا الدار، فوجدوها هي والبستان خالية، وعندئذ تأكد لديهم بأن لجمن قد نجا.

اعطيت اوامر الأنذار على عجل، وتوجهت ثلاث مجموعات من الجندرمة الراكبين، تتعقب الفار في اتجاهات مختلفة، فأتجهوا الى المضارب العربية التي عرفت بأنها موجودة في المناطق المجاورة. ولقد وصلت احدى تلك الجموع الى مضرب الشيخ ماجد فعلاً، حيث قيل لهم بأنه لم يشاهد الشخص الذي اعطي وصف لجمن له.

ومع ذلك فقد فتش الجندرمة المخيم بأحسن ما قدروا عليه، لكنهم لم يجدوا حتى ولا احداً كان يشبهه، وأذ ذاك اوقفوا التفتيش، وعادوا الى كربلاء لكي يذكروا لرؤساهم ما حدث. غير انه لم تتخذ اية مخاطر، كما ان لجمن لم يكن يعتزم ان يعطي الأتراك فرصة للقيام بزيارة ثانية. وفي فجر اليوم التالي قوضت الخيام المائتان، وتحركت القبيلة بأتجاه الجنوب الغربي، في اوقيانوس واسع في صحراء متموجة، وبذلك بدأت رحلة الأستكشاف الأولى الكبرى التي قام لجمن بها.

* * *

كانت لدى لجمن امال واسعة في الوصول الى «حايل» عاصمة «ابن الرشيد» التي لم يستطع احد زيارتها منذ ان قام «بارون نولده» [٣٩] بمثل تلك الزيارةفي سنة ١٨٩٣. والحقيقة، انه بالنظر الى السجلات المتوفرة هناك اقل من عشرة اوربيين ممن استطاعوا زيارة عاصمة «شمر»، ولكن الهدف الأقصى الذي كان يقصده لجمن هو الوصول الى «الرياض» العاصمة الوهابية التي تختفي في قلب الجزيرة العربية فلقد كانت الصعوبات التي تقف امامه اعظم مما كان قد تصوره. فقد حدث في هذا الوقت الخاص بالذات ان كانت الجزيرة في حالة اضطراب، وكانت تنقلات القبائل البدوية الواسعة في حالة تحرك في كل مكان، وكان تتابع الغارات والغارات المضادة لها، يحدث بسرعة مخيفة.

(٣٩) BARON NOLDE رحالة نمساوي ذكر «ونستون» مؤلف كتاب (حياةالمس غرترودبل) في سنة ١٩٧٨ ان نولده قد ارغم على الأنتحار في احدى رحلاته في الجزيرة العربية سنة ١٩٠٩.

وكما كان يحدث غالباً في حروب الصحراء، فأن النصر الذي يحرزه احد الفرقاء في يوم ما، يتحول الى اندحار في يوم ثان، وعلى هذه الشاكلة كان هناك جزر ومد من النزاع، وتيار من النجاح ينشأ اولاً في احد الأتجاهات، ومن ثم في اتجاه آخر.

كان الصراع الطويل بين ابن الرشيد وأبن سعود حاكم نجد، قد بدأ بحدة وقسوة متناهية. فقد كان مبارك بن صباح [٤٠] حليفاً لأبن الرشيد. ومع ذلك فأنه حمل السلاح بكل وضوح الى جانب ابن السعود. وكانت عشيرة «الرولة» [٤١] احد فروع «عنزة»، قد دحرت قوات ابن الرشيد عند «الجوف» [٤٢] وأخذت الآن تتهيأ للهجوم على عاصمة شمر ذاتها. وكان «فهد بك» [٤٣] رئيس «عنزة» اكبر قبيلة بدوية، يتحرك نحو الجنوب بأعظم قوة من «عنزة» تم تجميعها. في الوقت الذي كانت فيه فروع متغايرة من قبائل مختلفة قد التحمت التحاماً فعالاً في حرب اقل اهمية.

ولقد غامر لجمن في خوض غمار هذا الاضطراب الذي قد يحيط في اية لحظه برفاقه الخاصين به. ولذلك كانت المسيرة نحو الجنوب تجري بكل حذر، وكانت المراقبه العظمى المتناهية. تطبق ليل نهار. كان تقدمه هو ورفاقه بطيئاً ومتمهلاً، وكان تصرفهم هادئاً، خلياً من الأضطراب، وكانوا يقدرون نتيجة المغامرة بعدم مبالاة رزينة.

لقد كانت تلك الرزانة نتيجة طبيعية لقرون من الأضطراب، ولأجيال من المعاناة. والحقيقة ان حالة الأوضاع التي سادت الآن كانت تعتبر حتمية وثابتة. فالمكتشفون للجزيرة العربية من

---

(٤٠) مبارك بن صباح هو الولد الثالث من اولاد صباح. ولد سنة ١٨٤٤ في الكويت وتدرب على امور الأدارة والحرب وحين توفي ابوه، تقلد مبارك ولاية الكويت في السابع عشر من ايار سنة ١٨٩٦ وقد اشتهر بالحيلة والدهاء. في الوقت الذي كان فيه يتظاهر بولائه للأتراك، ويتلقى المساعدات وحتى الرواتب منهم، كان يتصل سراً بالأنكليز، ويعقد معهم معاهدة سرية تنص على وقوفه الى جانبهم. وحين كان يظهر الود لعبد العزيز ابن السعود ويحثه على تصفية سلطة حائل التي يمثلها «ابن الرشيد» كان يكاتب ابن الرشيد ويحذره من غدر ابن السعود به، ويعده بالمساعده. ويعتبر الشيخ مبارك هو المؤسس الحقيقي لأمارة الكويت، ومقرر سياستها بشأن الأتجاه نحو الغرب.

(٤١) الرولة. فرع من قبيلة عنزة تقطن في المنطقة الممتدة بين وادي الحر ووادي السرحان في غربي البادية الجنوبيه للعراق.

(٤٢) الجوف من المدن المهمة في نجد تقع في منطقة جبلية جنوب غربي صحراء النفود. وتقوم المدينة على منحدر الجبل في وسطها قلعة قديمة ذات ابراج.

(٤٣) المقصود به فهد بن هذال شيخ مشايخ قبيلة «عنزة» التي تنتمي اليها العائلة السعودية الحاكمة.

ذوي الشهرة، امثال «دوتي» (٤٤)، و«هوبر» (٤٥) و«الواموزل» (٤٦) وآخرون غيرهم، كل هؤلاء قد سجلوا بمنتهى الصدق، قسوة الحياة في الصحراء. ومع ذلك فلم يشر هؤلاء الى احتمال حدوث اي تغيير في تلك الحياة.

ولقد صورت القصص الحديثة وأشرطة السينما، بكل حيوية، ذلك الأضطراب الذي يسود الصحراء، ولهذا تقبل العالم، على نطاق واسع، تلك القسوة والأفعال التي كانت تقترفها القبائل الصحراوية، بأنها واقع محتوم، بل انها كانت تعتبر بأن مآسي حياة الصحراء، تضفي ضرباً من الأبداع للمناطق المتوحشة والمنعزلة، التي يصرّف فيها، السكان، الذين مسهم الفقر، حياتهم الشاقة!.

في تلك المنطقة التي كان لجمن ورفاقه يتجهون نحوها بكل بطء وحذر في طريقهم المتعرج، كان قد قدر لأبن السعود على الفور، ان يغير نظرة اقسام كبيرة من القبائل البدوية في الأجزاء الجنوبية من الجزيرة العربية، في حين كان لجمن، في الناحية الشمالية قد سلك الطريق الى احداث تغيير عظيم! (٤٧) في اليوم الثالث من شهر شباط، وصل القوم الى «وادي جرائم» (٤٨) الذي يقع على بعد مائه وسبعة اميال من المكان الذي بدأوا رحلتهم منه. وهنا حقق لجمن اكتشافه الجغرافي الكبير الأول، لوادي «الخر» (٤٩) وهو حوض جاف لنهر واسع يبلغ طوله اربعمائة ميل ينبع من على مقربة من «واحة الجوف» التي تسلك في الأصل طريقها الفخم بين ضفافه بمعدل اربعة الى خمسة اميال، على حدة حتى «شط العرب».

---

(٤٤) CHARLES DOUGHTY (١٨٤٣-١٩٢٦) من اشهر الرحالين الأنكليز في الجزيرة العربية. وقبل ان يبدأ رحلته امضى سنة في دمشق تعلم فيها اللغة العربية ثم شرع برحلته الى نجد وأواسط الجزيرة العربية فدرس اوضاعها الجغرافية والأجتماعية وحتى الجيولوجية في كتاب ضخم نشره في سنة ١٨٧٨ بعنوان. «رحلات في الجزيرة العربية» ١٨٨٨م، TRAVELS IN ARABIA DESERT 1888

(٤٥) CHARLESHUBER قام برحلته الأولى في الجزيرة العربية خلال السنوات ١٨٧٨-١٨٨٠، تحت رعاية الحكومة الفرنسية، وأكتشف كثيراً من الكتابات القديمة في الجزيرة العربية. وأبتاع هو والرحالة الألماني يوليوس يوتنغ JULIUSEUTING مسلة عرفت بأسم «حجر تياما» تصور عبادة الأقوام التي كانت تقطن الواحات. معروضة الآن في متحف «اللوفر» بباريس.

(٤٦) ILOI MUSIL رحالة ومستشرق جيكوسلوفاكي عمل استاذاً في جامعتي «براغ» و «فينا». نقب عن الآثار في الأردن وفلسطين، وقام خلال سنتي ١٩١٢، ١٩١٥ برحلتين الى العراق والفرات الأوسط. تقع رحلته في ستة مجلدات، ترجمتها الجمعية الجغرافية الأمريكية، ونشرتها في سنة ١٩٢٧ بعنوان «رحلة طبوغرافية الى الفرات الأوسط».

(٤٧) لايمكن لأحد ان يخدع بأمثال هذه الصفات التي يطلقها الغربيون على رحاليهم في البلاد العربية والآسيوية والأفريقية. لأن اولئك الرحالين لم يستهدفوا احداث اي تغيير في صالح سكان تلك الأقطار، بقدر التمهيد لغزوها ونهب خيراتها. وأستعباد اهلها، وذلك هو الهدف الرئيس الذي كان يراد تحقيقه منذ زمن بعيد، ومايزال يحدث حتى الآن ولكن بأساليب جديدة.

(٤٨) لم نعثر على التسمية الأصلية لهذا الوادي، الذي يقع في مدخل «وادي الخر» في الجزء الجنوبي الشرقي من البادية العراقية. ولعل المؤلف قد اخطأ في اسمه وربما كان يدعى وادي «جريهم».

(٤٩) وادي الخر من اكبر الأودية المعروفة في منطقة الجوف في بلاد نجد.

تكمن اهمية هذا المظهر الجغرافي الذي كان لجمن اول اوربي يكتشفه، في حقيقة ان القناة تؤلف خطاً طبيعياً ويسيراً من المواصلات عبر شمال الجزيرة العربية وواحداً من الأماكن التي يسهل العثور فيها على الماء سواء على سطح الارض او في باطنها. وحين وصل لجمن نفسه آنذاك الى الوادي، لم يكن يدرك اهمية اكتشافه هذا، ولم يضع سوى تعليقات موجزة عن هذا الأمر.

وفي اليوم الخامس من شباط بلغت الجماعة نقطة ابعد بثلاثه وأربعين ميلاً ايضاً نحو الجنوب، وأذ ذاك خيموا في الصحراء على مقربة تماماً من «سميت»(٥٠). هنا كان «الصليب»(٥١) احد فروع النور في الصحراء، والذين لايعرف اصلهم، ولهم بعض وسائلهم الغريبه الخاصة بهم في الألمام بكل مايحدث في الصحراء، قد انبأوهم بأن «ابن الرشيد»(٥٢) كان قد اغار على قبيلة «عنزة» مؤخراً، فقتل احد شيوخها وأستولى على بعض خيولها. خلقت هذه الأنباء شيئاً من الفزع بين اتباع «ماجد»، ذلك لأنهم قد يلتقون بقبيلة «عنزة» في المناطق المجاورة في اية لحظه، وبالصفة التي سوف يأخذ بها الثأر، للنكبة التي حلت بها. وعلى الرغم من هذه الحقيقة، ومع انهم كانوا اعداء تقليديين لقبيلة «عنزة»، الا انهم وجدوا انفسهم، بتلك الروحية النادرة التي تتسم بها الفروسية، بين افراد جماعة «ماجد» الصحراوية، ينقلون الآن بعض الخيل الى زعيم «عنزة» ، «فهد بك بن هذّال.

اخذوا يتحركون بحذر مزدوج، وراحوا يبعثون بكشافتهم، بصفة جيدة. الى امام، وعلى اجنحة خط مسيرتهم. لقد كانت لديهم اسباب حسنة لكي يطبقوا الأعتناء الخاص بالوضع، وذلك لأحتمال ان الأضطراب كان اكثر توقعاً، منذ ان اصبحوا الآن يجوبون في قلب المنطقة، التي تعود الى قبيلة «عنزة»، وفقاً لقوانين الصحراء.

كتب لجمن في مقالته التي نشرتها «الصحيفة الجغرافية»(٥٣) الصادرة في عدد اذار سنة

---

(٥٠) «سميت» يقع شرقي وادي الخر، وعلى الطريق الذاهب الى «شبيجة» و «واقصة».

(٥١) الصليب، ويعرفون بأسم «الصلبة» جماعات من النور التي تتنقل في انحاء الجزيرة العربية، والعراق وسوريا وفلسطين وغيرها. لايعرف اصلهم على وجه الدقة. غير ان البعض يعتبرونهم من بقايا الصليبيين الذين تخلفوا في الشرق العربي بعد القضاء على مستعمراتهم وهم يتعاطون اعمال التطبيب ويشتهرون بسرعة نقل الأخبار، ويدللون على اصلهم بزرقة العيون، والسماح بمعاشرة الأناث منهم، وحذق بعض المهن الغريبة.

(٥٢) هو «سعود بن عبد العزيز الرشيد» وكان مايزال انذاك طفلاً في العاشرة من عمر ، وله وصي تزوج ام الطفل يدعى «زامل بن سبهان» وراح يدير شؤون الأسرة الرشيدية.

(٥٣) GEOGRAPHICAL JOURNAL وكانت لسان الجمعية الجغرافية الأنكليزية وما تزال تصدر حتى الآن.

١٩١١ يقول «هل يصح لهم ان يغزوا «ديرة» قبيلة عنزة الكبيرة، كما نقول ان لهم حقوق الرعي والتزود بالماء فيها! . لقد كانت عنزة، العدو الوراثي لقبيلة شمر، ولكن عن طريق احدى المجاملات الحادة في الصحراء، تم التوصل الى اتفاق مع شيخ فرع «العمارات»[٥٤] من عنزة والذي يقضي بأنه سوف يسمح لشمر ، التي كنت اسافر معها، بأن تمر بأمان، ولقد كان في الواقع جملة من افراد عنزة في المخيم. وفي جوار «الحزول»[٥٥]، التقينا بفريق من الصليب نقلة الاخبار العظام في الصحراء، فعلمنا منهم بأن قبيلة عنزة برمتها، عدا فرع واحد منهم، كانت تتحرك جنوباً لمهاجمة «ابن الرشيد».

وقبل ثلاثة اشهر مضت كان فرع «الرولة» من «عنزة» الذي يعسكر في مناطق حول «الجوف»، قد هاجم تلك المدينة، وأستولى عليها، وقتل حاكم ابن الرشيد فيها. وكان «ابن سهيلان» شيخ الرولة قد عين ولده حاكماً على الجوف مكان الحاكم القتيل، وتقدم لفرض الغرامات على السكان[٥٦] كانت عنزة تأمل الآن، ان تعقب هذا النجاح بالأستيلاء على مدينة «حائل» ذاتها، عن طريق المساعدة التي يقدمها لها امير الرياض، «ابن سعود» الذي قيل عنه بأنه كان يتحرك صعداً من ناحية الجنوب.

كانت عنزة تأمل الآن، أن تعقب هذا النجاح بالأستيلاء على مدينة «حائل» ذاتها، عن طريق المساعدة التي يقدمها لها أمير الرياض «ابن سعود» الذي قيل عنه بأنه كان يتحرك صعداً من ناحية الجنوب.

وفي اليوم الثاني عشر من شهر شباط ، وبعد الفجر مباشرةً، شاهدنا عنزة تتحرك موازية لمسيرتنا، ولسوء الحظ فأن الرولة، التي لم تكن تعرف شيئاً عن الترتيب الذي مرت الأشارة اليه قبلاً، بين «شمر» وفرقة «العمارات»، كانت تسير على جناح اكثر قرباً منا. وسرعان ماأطبق خيالتهم علينا، وما ان حل الظلام حتى امسكوا بكل شيئ يعود الى شمر من الخيام ، والأبل، وغيرها، بعد مطاردة قتالية على امتداد عدة اميال.

---

(٥٤) اخطأ المؤلف في تسمية فذكرة بأسم «حازل» HAZIL وهو بئر يقع في نهاية وادي الخر.

(البادية: للمرحوم عبد الجبار الراوي الطبعة الثانية ١٩٤٩).

(٥٥) العمارات فرع من عشائر عنزة ينتسب الى بشير بن عنيزان مؤسس قبيلة عنزة. والعمارات فرعان هما «الجبل» والدهامشة.

(٥٦) كانت الرولة، وهي فرع من عنزة، تحاول دائماً ان تكون ذات سلطة وشأن في الجزيرة العربية، وكانت «الجوف» هي مقر سلطة قبائل الرولة. ولقد تحدى المتسلط على امارة حايل «سلطان بن حمود» الذي قتل حاكمها متعب بن الرشيد وأثنين من اخونه، وتبوأ عرشها، تحدى هذا المتسلط عشيرة الرولة التي كان يرأسها في ذلك الوقت، أي سنة ١٩٠٧، الشيخ نوري الشعلان. ويبدو ان هذه المعركة بين الرولة وحاكم حايل قد وقعت في سنة ١٩٠٨ بعد ان اغتيل حمود على يد شقيقيه «سعود وفيصل» حيث اصبح فيصل هو الحاكم على الجوف، وهو الذي قتله «ابن سبهان».

كان جماعتي الصغيرة المؤلفة من ثلاثة رجال قد وضعت الخطة بأن تبتعد عن مكان المعركة. وأستدارت في طريق غير مباشر لتتجنب «الرولة» ثم نجحت في الوصول الى قبيلة «العمارات» التي استقبلني شيخها «فهد بك» بمنتهى الرقة. لم يكن فهد بك. قد سمع بشيئ سوى الحادث المؤسف الذي اصاب «شمر» بعد انتهاء القتال، لكنه قام على الفور بأتخاذ الخطوات لأعادة الأبل والأموال التي غصبت، ونجح في اعادة قسم منها.

استطاع لجمن ان يتخلص من خيالة الرولة، الذين حدث هجومهم المدمر بمفاجأة غريبة. ببضع كلمات قالها لهم، انه لأمر يحظى بالملاحظة جداً، كيف استطاع لجمن بصفة ثابتة، ان يظل ساكتاً عن اي خطر كان يتعرض له، ولم يعط ادنى اشارة الى الكيفية التي كان يتجنب فيها مثل ذلك الخطر. غير ان تصرفه عن هذه المصادفة والمصادفات الأخرى، لايمكن ان يمر من دون تعليق، لأنه يعطي تبصراً في بروده وفي السرعة التي كان عقله يعمل بها، وقراراته التي كان يتم اتخاذها.

كان الهجوم، كما قلت، هجوماً تم تنفيذه بمفاجأة مدهشة حقاً. فالصيحات الوحشية التي كان يطلقها افراد «الرولة»، المهاجمون، والرعد المكتوم الذي كانت تثيره حوافر خيولهم، والنار الواسعة التي كان اولئك الفرسان المروعون يطلقونها من على صهوات جيادهم، كانت تزيد في شلل اتباع «ماجد» البائسين وفي عجزهم.

وكما هو معتاد لدى البدو العرب، فقد كانت النيران ضارية في شدتها، غير ان جملة رصاصات قد وجدت لها، بالصدفة، مأوى في اجسام الرجال، او الخيل، او الأبل كان الضجيج مرعباً. وكانت عينا لجمن النفاذتان دائماً قد أوجزت الحالة، فكانت لحظة من ثانية، كافية لديه لكي يقرر مجرى العمل الذي ينهض به. انه لايستطيع ان يعرض بأن يشارك، بصفة جدية، في المعمعة. فهو ان خسر حياته فسوف يكون ضحية بليدة، وأن جرح او القي القبض عليه. فأن في ذلك نهاية لكل مخططاته.

كان على رأس الرتل راكباً مع «ماجد» حين بدأ الهجوم، وكان رفيقاه «خضر» و«زاوه» على مسافة ما منه. ولقد شاهد تماماً ان خيالة «الرولة» سوف تتكأكأ على اصدقائه ولذلك فقد فصل نفسه عنهم، وراح يتحرك بسرعة على جانب الرتل بعيداً عن العدو، ثم نادى بصوت عالٍ كلا من «خضر» و «زاوه» اللذين انضما اليه. ومن دون تسرع تحركوا بعيداً عن مسرح القتال. وحينئذ استداروا سريعاً على مسافة كافية من العدو، الى ان بلغوا منخفضاً عميقاً اخفاهم عن الرؤية.

هنا تشاوروا فيما بينهم على عجل. فقرروا ان يبحثوا عن «عنزة»، التي لم تعد ترى الآن، وطلبوا حماية «فهد بك» وكانت نتيجة ذلك كما وصفها لجمن، انهم وصلوا آمنين الى مخيم «العمارات» حث استقبلهم بسخاء «صلال» شيخ فرع «الفدعان». ولكن بفقدان واحد من

الأبل العائدة الى لجمن. والذي كان يحمل مخزونه من الرز. والدقيق. ووعاء الطبخ. وأحدى البنادق والذخيرة.. ولقد اكتشف لجمن بأن «عنزة» كانت تعد العدة للهجوم على «ابن الرشيد».

في اليوم التالي كان لجمن هادئاً في البيت مع اصدقائه الجدد وقد وجد فيهم قدراً من المتعة. فقد كان هناك «شعلان» شيخ «الرولة» وهو «وحش جميل المنظر»!. وقد انباه بأنه في السنة الماضية كان سلي احد الرحالين النمساويين. هو العلامة «الواموزل» الذي يسميه العرب «موسى النمساوي»(٥٧) والذي لم تنشر مؤلفاته الشامخة عن شمالي الجزيرة العربية الا مؤخراً في ستة مجلدات من قبل الجمعية الجغرافية الأمريكية. والذي كان يعمل للأتراك والألمان. ماكان لجمن يعمله لوطنه!.

لم يكن «موزل عسكرياً بل كان عميل مخابرات اخصائي وقد شاع عمله العظيم خلال اكثر من عشرين سنة من الجد الذي لايعرف الكلل. اما لجمن فقد كان من الناحية الأخرى مجرد عسكري فقط، وكانت اعماله قد بدأت الآن حقاً. كان «فهد بك» وأسمه الكامل «فهد بن عبد المحسن بن هذال» يتلق الأهتمام العظيم من لدن الأتراك، الذين كانوا يحاولون بكل وسائل الأقناع والتملق، ان يستميلوه الى حليفهم «ابن الرشيد» بذات الطريقة التي حاولوا ان يجربوها مع الخصم الألد «لأبن الرشيد» ونعني به «ابن السعود». ولذلك كان فهد «فهد بك» متيقظاً تماماً بأن لايلزم نفسه التزاماً عميقاً بأتجاه الترك، وأنما كان حذراً بما فيه الكفاية بأن لايعاديهم صراحة. ونتيجة لذلك كان استقباله للجمن فاتراً بصفة صارخة!.

ولما كان «فهد بك قد لعب دوراً مهماً في الفصل الأخير من تاريخ لجمن. فلا ضير من اعطاء وصف موجز لهذا الرئيس الشهير. ويخبرنا لجمن عنه فيقول بأنه كان رجلاً مسناً، وأعمى تقريباً. ولو ان ذلك كان حاصلاً في هذا الوقت، لكانت عيناه قد تحسنتا او ربما اصيب فيما بعد بمرض الماء الأبيض في عينيه(٥٨)، الا ان نظره في السنوات الأخيرة لم يكن يضايقه. كان ثقيل الجسم ثقيل الخطو على قدميه، لكن مثل هذا الرجل الصلب كان خبيراً بركوب الخيل بصفة مدهشة(٥٩).

كان لجمن قد التقى لأول مرة بالشيخ «فهد» في خيمته الكبيرة التي لم يكن فيها القسم المعتاد المخصص للنساء. وأذ كان محاطاً بحشد من افراد شمر الذين نهبت ممتلكاتهم، بما فيهم «ماجد» نفسه، وهم يطالبون برد اموالهم لأن الهجوم لم يكن عادلاً، لأنهم دخلوا في الأراضي العائدة الى «عنزة» لكي يسلموا الى «فهد بك» خيوله. وعلى هذا فأنهم كانوا في هذه الحالة ضيوفاً لديه!. لم يكن «فهد بك» جيد المزاج.

---

(٥٧) Musa AL- Namsawi

(٥٨) هو المرض المعروف بأسم CATARACT ويتم علاجه بأجراء عملية جراحية لسحبه من العين.

(٥٩) تنتمي عائلة «هذال» الى فخذ «الجعيثم» من عشيرة «الحبلان» احدى عشائر فرع «الجبل» من عنزة.

كان ابن اخته «فهد بن دغيم» وهو رئيس آخر، اكثر مودة من خاله. وقد اعجب به لجمن اعجاباً عظيماً لأنه كان بدوياً حقاً، اذ كان يفضل الماده الخشنة والأصيلة. على المادة التي رققها الأتصال المستمر جداً بالمدينة.

ومن «ليفية»[٦٠] واصلت عنزة مسيرتها، وفي اليوم الثاني وهو الرابع عشر من شباط، هوجم مخيم «المعدان» وتم نهبه، غير ان عنزة فقدت رجلين قتلا في العملية، ومن ثم اعيدت المنهوبات التي اخذت، وعلى ذلك، وكما لاحظ لجمن ذلك، فلم تكن عملية الهجوم ذات كسب كبير.

ومما يدعو الى الأسف ان لجمن لم ينبئنا عن السبب في اعادة المنهوبات بحق والمناسبة، لأن القوانين التي تحكم حرب الصحراء قوانين غريبة وذات اهمية. ذلك ان القتال اليائس في سبيل الوجود في تلك الأرض القاسية خلال القرون الماضية، قد فرض حداً على تصرفات الرجال، ووضع قيوداً على المعاملة القاسية جداً. في ظروف مماثلة، قد يعامل الرجل معاملة ضيف مكرم وتضل ثروته لاتمس، او انه بعدالة تامة وبشكل واضح، قد يفقد حياته وأملاكه.

ولابد ان يكون من المناظر المؤثرة ان نرى هذا الطوفان من العرب المحاربين يتدفقون ببطء وبجلال سائرين قدماً. وما ان راح لجمن يحدق دهشاً في ذلك العدد الواسع من الأفراد، فلابد ان يكون قد ظهر له بأنه لاتوجد قوة في الصحراء تستطيع ان تتحول الى نهر شديد وقوي، ومع ذلك فأنها كانت في ايام قليلة، قد تناثرت اشبه بالأوراق التي تتساقط قبل هبوب العاصفة!.

غير ان علينا ان ندع هذا الأمر الى لجمن نفسه كي يتحدث الينا عن تلك المفارقة المدهشة. كانت قبيلة عنزة وهي اكبر قبيلة في الجزيرة العربية، ذات قوة استثنائية في هذا الوقت. فلقد كان الشيوخ، يذكرون لي تكراراً، بأنهم لايتذكرون مناسبة سابقة، سارت فيها عنزة الى الغزو،[٦١] بمثل هذه الأعداد. فالتطلع من فوق ربوة، يجعل الصحراء تبدو الى اقصى ما تراه العين، وكأنها كتلة متحركة من العرب، كل قسم منها يتحرك في خطه الخاص به. وكقاعدة فأن الفرسان يسيرون في المقدمة، ومن ورائهم يأتي راكبو «الذلول» [٦٢] .فحين يسير في الوسط ذلول منتقى يحمل «مركاب»[٦٣] قبيلة «الرولة».ويتألف هذا المركاب من اطار مغطى بريش النعام الأسود، تركب فيه فتيات من اسرة الشيخ في المعركة، وهن يستثرن همم المحاربين على التمسك

---

(٦٠) كتبها المؤلف خطأً بأسم لغطان LUGHATAN وهي عبارة عن بئر شهيرة تقع في الزاوية الجنوبية من بادية العراق.

(٦١) كتبها بالحروف الأنكليزية واللفظ العربي GHAZZU

(٦٢) كتب المؤلف كلمة ذلول باللفظ العربي THELUL

(٦٣) كتب كلمة مركاب باللفظ العربيMIRKAB وهو ما يعرف بالهودج الذي يخصص لحمل النساء اثناء المسيرات. اما المركاب فأنه يخصص لفتيات من اسرة الشيخ يشاركن في حملة الغزو كي يشجعن الرجال على القتال.

بصفات البسالة، ولقد كان «المركاب» في الأزمنة السالفة من المناظر المألوفة في الحروب البدوية. غير ان «الرولة» في الوقت الحاضر، هي القبيلة البدوية الوحيدة التي تمتلك واحداً من تلك المراكيب. بعد انقضاء ثلاثة ايام على القتال مع شمر. وصل لجمن طريق الحج المعروف بطريق او «درب زبيدة» [٦٤] الى «جميمة» [٦٥] وهذا الطريق الذي يمتد من «مشهد علي» عبر جبل شمر الى المدينة [٦٦] هو الطريق الذي كان يستخدم في كل الأوقات من قبل الحجاج القادمين من بلاد فارس ومن بغداد. «ولقد كان كل من بلنت. [٦٧] و «هوبر قد سارا في هذا الطريق من «حايل» الى «مشهد علي». وكان «درب زبيدة» قد اخذ اسمه من الزوجة المفضلة لدى الخليفة هارون الرشيد، التي انشأت احواض للماء عرفت بأسم «البرك» وأماكن استراحة على مسافات بأمتداد الطريق لراحة الحجاج.

ولقد كان اولئك الحجاج يعانون الامرين، في اوقات مختلفة على ايدي الغزاة. وعلى الاخص، الوهابيين، منهم، ولم تبق الان من تلك البرك سوى بركة واحدة في حالة جيدة وهي «بركة الجميمة»، التي بنيت في منخفض من الارض يتجمع فيه الماء من كل الجوانب. وهو مبني من الحجر المثبت بالملاط. وتبلغ مساحة البركة تسعين قدما مربعا، وقعرها عشرون قدما مربعا، مع وجود درجات تهبط الى الماء، وتستدير حولها لارواء الحيوانات. وحين بلغت «عنزة» هذه البركة، كان الظمأ قد اصابها طيلة عدة ايام. وكان يخشى ان لايكون الماء فيها كافياً. اذاما ماسمح لافراد المخيم كلهم ان يرتووا، ويملأوا اوعيتهم. ولذلك صدرت الاوامر. بان لا تروى الابل التي تحمل الامتعة، وانما يرتوي الرجال وراكبو الذلال ليس الا. وفي كثير من الحالات لايتم التقيد بمثل هذه الاوامر، ولذلك سيقت كثير من الابل العطاش التي تحمل المتاع. الى الماء.

---

(٦٤) «درب زبيدة» هو طريق الحج الذي قامت «زبيدة زوجة الخليفة العباسي العظيم هارون الرشيد، بأنشائه بين العراق والحجاز وأعدت على امتداده اماكن الأستراحة وحفرت العديد من الآبار التي يستقي منها الحجيج وقد اعيد افتتاح هذا الطريق مؤخراً بالتعاون بين الحكومتين العراقية والسعودية.

(٦٥) الجميمة: عدة آبار للمياه تقع عند الحدود العراقيه السعودية على طريق الحج القديم الذي يجتاز منطقة الباطن. حيث يتحول السير الى هذا الطريق ابتداءاً من الجميمة.

(٦٦) يطلق اسم جبل شمر على جبلين لقبيلة «طي» هما «اجا» و «سلمي» وما ورائهما من السهول والأودية. وهذه التسمية حديثة لأنها ارتبطت بقبيلة شمر التي كانت المنطقة موطنها الأصلي.

(٦٧) ولفريد سكون بلنت WILFREDSCOWNBLUNT (١٨٤٠-١٩٢٢) رحالة ومستشرق ارلندي الأصل. بدأ حياته في السلك الدبلوماسي ونال لقب لورد. وساهم في الدفاع عن قضايا البلدان المظلومة ولاسيما ارلندا. ومصر. والهند زار عدة اقطار اسيوية وأفريقية. وأصطحب معه في رحلاته زوجته «ان بلنت» التي نشرت مذكراتها عند رحلتها في الجزيرة العربية في مجلدين كبيرين. وقد ترك بلنت مذكرات خطيرة عن احاديثه ولقاآته مع جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده. ترجم بعض منها مؤخراً، وصدر في واحد من الكتب التي تنشرها دار الهلال بعنوان «كتاب الهلال» في سنة ١٩٨٥

ولقد جوبه المعتدون بمعاملة تحذيرية نموذجية. ذلك ان ابناء الشيخ وخدمه قد ركبوا مطاياهم. وراحوا يطلقون النار بين الجمهور. واستخدموا سيوفهم بمنتهى الحرية. حيث استطاع المعتدى عليهم الذين سلبت اموالهم ان يبعدوا ابلهم وهي سالمة حين كانوا يرومون ارواءها.

«وفي الجميمة وردت الأنباء بأن ابن الرشيد» كان على بعد مسيرة يومين بأتجاه «حايل» ولذلك نظمت «عنزة» مخيمها في صفة خطوط متراصة بدلاً من الطراز البدوي المتناثر المعتاد. وفي المنخفض الذي تقع فيه «بركة الجميمة» عددت بصفة فجة. ثلاثة الاف وخمسمائة خيمة. والتي كانت تؤلف جزءاً صغيراً من المجموع.

وكانت تصل الى هناك كل يوم جماعات غير متوقعة من العرب من قبائل وادي الفرات الذين جيئ بهم للأنضمام الى هذه الحركة. املاً في النهب. ذلك العمل الذي يجتذب الأعراب من دون ان تتم مقاومته. ولم يكن هؤلاء القبليون من البدو الحقيقيين. غير انهم افضل من البدو تسلحاً بصفة محددة. وكان معظمهم يحمل طرازاً جيداً من بنادق «مارتيني»[٦٨] وهم يلوحون بها من دون ان يقدموا على استعمالها. وهي ذات قيمة قتالية كبيرة. لأن الواقع هوانهم ان تخلوا عن مطاياهم لايستطيعون ان يهربوا بيسر، الأمر الذي يفعله البدوي عادة حالما يبدو بأن الأمور ستكون ضده.

كان هؤلاء الأعراب من قبيلة «المعدان»[٦٩] وهم يتميزون عن البدو في ان لهم اغنامهم وحميرهم الخاصة بهم، وأنهم يمارسون الزراعة اثناء الموسم في اقسام محددة على ضفاف الأنهار. كان وصول اطراف من المعدان يتم الأعلان عنه عادة بأطلاق نيران مكثفة. حيث يقوم كل فريق منهم بتقديم رقصاته في المخيم، ومن ثم يزحفون نحو خيمة الشيخ. وهم يطلقوا هتافاتهم القتالية. ويلوحون ببنادقهم في الهواء، بغض النظر تماماً اذا كانت الرصاصات قد سقطت ام لا.

«ولقد برهن الحال على تعطل «عنزة» عن المسير، اياماً قليلة، بعد وصولها الى «الجميمة»، حيث كانت النيران المكثفة تسمع عن بعد، وقد توقفت لوصول تعزيزات جديدة كانت متوقعة. ومع ذلك كان «ابن الرشيد» قد وصل مع قوته التي كان افرادها يركب كل واحد منهم «ذلولاً» وقد حمل خلفه «رديفا»[٧٠]. فقد قام «ابن الرشيد» بمسيرة شاقة اثارت دهشة المخيم كله. ولم يكن

---

(٦٨) MARTINI نوع من البنادق التي كان يصنعها مصنع مارتيني الأيطالي وكان استعمالها شائعاً في العراق والجزيرة العربية قبل الحرب العالمية الأولى وكانت تعرف لدى العراقيين بأسم «ماطلي».

(٦٩) ليس «المعدان» قبيلة. وأنما هم اصحاب الجاموس الذين جلبهم الحجاج بن يوسف الثقفي من الهند. اثناء ولايته على العراق. وقد ظل هؤلاء يقطنون ذات المنطقة التي سكنها اسلافهم من قبل. وهي القرنة. كما احترف البعض منهم حرفة الزراعه وكانوا يشتركون في بعض الغزوات بهدف النهب والسلب ليس الا. على ان كلمة «المعيدي» كانت موجوده قبل الأسلام.

(٧٠) «ردف» كلمة عربية فصحى. غير ان البدو يلفظونها بكسر الراء.

لدى «عنزة» من الوقت سوى ان تندفع نحو ابلها، ومن دون مزيد من القتال. انصبت الى القسم المقابل من المخيم. تعقبها حشود من النساء والأطفال سيراً على الأقدام. في الوقت الذي دخل فيه «ابن الرشيد» الى القسم الآخر من المخيم. شرع «ابن الرشيد» بأحتراق المخيم. لكنه لم يتعقب «عنزة» لأن الظلام كان قد ارخى سدوله في هذا الوقت.

وفي صباح اليوم التالي نهب مخيم «عنزة». و بعد وقت قصير لم تبق فيه سوى الحيوانات التي نفقت، كما تدلل على المكان الذي كانت تلك القوة الهائلة قد نصبت خيامها فيه. وكمثال على الاحساس الحسن الذي يظهره العرب المقاتلون، فأن ابن الرشيد لم يسمح لاحد من افراد قوته بان يمس خيام شيخي «عنزة».، وبعد المعركة بعث قائد قوات ابن الرشيد برسالة الى شيخ عنزة، يعلن فيها اسفه لانه لم تكن لديه اية فرصة لكي يقدم احتراماته له.

لم تكن الخسائر كما هي العادة في معارك الاعراب ثقيلة بالنسبة الى أي من الجانبين. لقد كان بين القتلى فتى من شمر ما ان سمع بان عمه كان قد قتل، حتى اطلق النار على نفسه فمات ولقد دهشت كثيراً بما وقع حين مرت بي جملة من نساء عنزة اثناء هربهن من المخيم، ان القين بحلاهن الفضية كي تكون في امان ، بدلا من ايداعها الى ابناء بلدهن.

وفي هذه الكارثة فان شمر التي حالفها الحظ للدخول الى مخيم عنزة. كانت هي التي حمتني انا وابلي، فرجعت مع الغزو الى مخيم ابن الرشيد الذي كان قائما في نقطة «زبالة» [٧١] على درب زبيدة ايضا.

قد يكون لجمن قد اندهش تماما من حادث القاء النسوة بحليهن اليه ذالك لان تفكيره الساذج، وحياؤه الطبيعي قد حالا بينه و بين التأكد من الاهمية الحقيقية لحادث، كان يجرى الحديث عنه فيما بعد، بالتعجب في كل انحاء الريف. ولم تضف يومياته الى تفاصيل الحكاية سوى كلمات قليلة حقا تحدث بها لجمن نفسه، حين كان يجلس، بعد بضع سنوات متأخرة، تحت ظلال اشجار النخيل في (شفاثة)، حيث اضافت شيئاما الى معرفتنا بما كان قد وقع فاذ اراح ذقنه على ركبتيه النحيلتين، وكانت عيناه تتطلعان حالمتين نحو الجنوب فوق السهول الخالية المتموجة للصحراء والتي تمتد بعيداً امامه، والذي قطع فوقها تلك الرحلة الجديرة بالذكر، فبعث المنظر حيا في ذاكرته، واستيقظت تلك اللحظات المحمومة، المحفوظة بالمخاطر، والتي بقي فيها رهينة بايدي القدر. ففي اللحظة التي انذر فيها بوقوع الهجوم، كان لجمن يجلس في خيمة فهد بك الكبيرة، وكان ساقي القهوة يدور باقداحه المليئ بذالك السائل الاسود، كان فهدبك نفسه يتكىء قبالة راحلة احد الابل، وكان سيفه المعقوف بين ركبتيه، وقد جلس ضيوفه حوله في شبه دائرة،. في الوقت الذي كان فيه احدهم يروي احدى قصص حرب الصحراء.

وعلى حين غرة كان ضجيج النيران المنطلقة من بعد ،يسمع حيث توقف القاص، في اللحظة التي كان فيها الجميع ينصتون. وحين كان الكل يظنون، كما انبأنا لجمن بذالك، بان تلك الاطلاقات كانت تنبىء عن وصول فريق من المعدان، وقد استأنف القاص رواية قصته، حتى

---

(٧١) الزبالة: موقع على طريق زبيدة للحج الذي يذهب الى حائل، يبعد عن بركة الجميمة زهاء خمسين كيلومترا، وعن «النجف» ثلثمائة وعشرين كيلومترا

قاطعه احد البدو الذي اندفع الى داخل الخيمة من دون ان يلقي التحية ، وراح يتحدث منفعلا . بصفة لم يفهمها اي واحد من الجالسين، ولو انه ظل يؤكد كلماته المنهمرة، عن طريق الاشارة عبر باب الخيمة، نحو الجنوب.

نهض الجميع في اضطراب، والتقطوا اسلحتهم، واندفعوا نحو الصحراء. في حين وقف لجمن عند مدخل الخيمة يحدق في الناحية التي اشار اليها الرسول الخائف. ارتفعت في الافق سحابة غبار واسعة. وبين هذا الضباب من الغبار المتطاير، والخيم أخذ السهل يتلألأ بجموع مخيفة من رجال عنزة الراكبين، وهم يحثون حيواناتهم بجنون الى امام ويغوصون بين الابل التي كانت ترعى بصرخات مخيفة.

واذا رفع لجمن ناظوره حتى رأى حشودا كثيفة من الرجال تندفع بسرعة، نحو غايتهم المعادية. التي تم الاعلان عنها، بضجيج نيران بنادقهم، وبازيز الرصاص. ولقد ساد المخيم كله الفزع والاضطراب. واسرع خادماه بالوقوف الى جانبه فاخذا يلحان عليه بان يهرب، لان حياته لم تعد تساوي شروى نقيره، غير انه رفض ذالك، وامرهما بأن يسوقا ابله وابلهما باقصى ما يكون من السرعة وايصالها الى المكان الذي كان الشيخ «ماجد» فيه. كانت ابله قد جاءت في المؤخرة واذ ذاك سارع هو وخادماه الى تحميلها بسرعة مخبولة، حيث دفع بها على عجل الى خيمة الشيخ ماجد. غير انه ما لبث بعد ان تركها هناك، ان عاد الى خيمة فهد بك، فوقف هادئا يراقب ذلك المشهد النادر وسط ذلك السيل الجارف من البشر، المتحرك باندفاع.

لقد بدا في اول الامر كما لو ان العدو قد اخترق وسط عنزة التي استبد بها الخوف والفزع. فقد كانت النساء والاطفال في اضطراب لا مجال لوصفه، اذ كانوا يتشبثون بكل ما هو قريب الى أيديهم من متاع ويلقون به على اول بعير يصل المخيم. وكانت صرخاتهم المجلجلة تضيع في غمرة صيحات العدو، والذي كان يقترب من المخيم مسرعا، وكان ازيز الرصاص يضاعف من شدة تلك الاصوات المنطلقة. وما ان اكمل كل واحد مهمته تلك، ذكراً كان ام انثى، حتى هرب الجميع من المخيم.

أما لجمن فانه بقي واقفا يراقب بهدوء، ويلاحظ كل ما كان يحدث. في اول الامر وجه انظاره الى شمر وهي تتقدم، ثم ادار بصره نحو عنزة، وهي تهرب، وراح يقيس المسافة التي تفصل بين المغيرين والهاربين، ويبدي عجبه، ترى من الذي سوف يكسب هذا السباق الجنوني؟ هل ان عنزة سوف تنجو؟ ام ان شمر سوف تسقط بين اعدائها الوراثيين؟

لقد حدثنا نفسه عن هذا الامر فقال لقد بدا بان انتصار شمر، كان مرجحا، ولكنني كنت قد اخطأت تقدير السرعة التي تستطيع عنزة ان تنطلق بها!. وحتى في هذه اللحظة المحفوفة بالخطر لم يتخل لجمن عن هوايته، فقد انتهز هذة الفرصة، ليلتقط مجموعة من الصور، التي نشر البعض

منها في هذا الكتاب [٧٢] لقد كان عقله يتحرك.... فقبل ايام اضطر الى ان يهرب من مشهد مماثل للمشهد الحالي. اما في هذه المرة فانه ظل في الخلف هادئا تحت وابل من الرصاص وهو ينتظر وصول هذا الحشد الهائل من البدو المهتاجين. انه يقدم الآن على مخاطر مروعة لاتتمثل في كثرة الرصاص المنهمر. وانما في اولئك الرجال المخبولين الذين اقبلوا بقصد المطاردة والتطلع الى اعمال النهب. غير انه كان يدرك بان ابن الرشيد، هو الذي كان يقود ذلك الهجوم، وانه يعتبر ذلك فرصة مواتية قد تعينه على ان يلتقي بابن الرشيد، وان يحصل من لدنه على اذن بالسفر الى حائل.
وحين سئل لجمن عما اذا لم يكن قد قدر مخاطر مغامرته تلك، اجاب متذرعا «حسناً ! لو انني بقيت مع عنزة لكانت كل مطامحي في الوصول الى حائل قد ذهبت سدى !..وفي غمرة هذا الفوران الكاسح المخيف، بقي لجمن هادئاً لوحده، من دون ان يتأثر بالهلع الذي شمل المكان، ولم يتخذ اية استعدادات للهرب. وحين مرت النسوة الهاربات به. وجدن في هدوئه خير وسيلة للحفاظ على مقتنياتهن الثمينة، ولذلك وضعن في يديه الممتنعتين حليهن الرخيصة، وذلك تقدير غريب منهن، رغم انه لم يمكث معهن سوى بضعة ايام. لم تتم تنحية عنزة عن المخيم الا بمشقة، حين اندفعت شمر نحوه كالا عصار يتقدمها فرسانها، ومن ورائهم راكبو الابل، حيث اكتسحوا المخيم، واقتلعوا خيامه، وراحوا يواصلون تعقب الفارين من عنزة، وحين كلت شمر من المطاردة، ونفد صبرها من تفاهة المغانم التي كانت تتوقعها، تراجعت لتجد نفسها امام عربدة مروعة من اعمال النهب كان يقوم بها الشيخ ماجد ورجاله.
وحين اندفع الرجال المهتاجون الى خيمة فهد بلك عقلت الدهشة السنتهم، اذ وجدوا لجمن وحده، جالسا فيها وهو يدون يومياته بكل هدوء، واذذاك وقفوا امامه لحظة ساكنين من دون حراك. كانت تلك اللحظة هي التي أنقذت لجمن من الخطر المحدق به، لانها وفرت له الوقت لكي يقف بهم صائحاً بكل قوة، بان يقفوا بعيدا عن باب الخيمة ليستطيع ان يفيد من النور ويرى ما يريد ان يدونه واذذاك اذعن اولئك الرجال تلقائياً لاوامره، وهم الذين اعتادوا ان يفتكوا باي شخص يعترض سبيلهم!
في هذه اللحظة كان احد الشبان من رجال ماجد ممن ساقتهم الصدفة الى دخول الخيمة آنذاك قد اوضح لاولئك الرجال هوية لجمن، واذذاك زال الخطر عنه نهائيا.
وحين عادت شمر من غارتها في اليوم التالي، رافقها لجمن في مسيرتها بينما لم يعد هنالك اي اثر لمخيم عنزة الذي كان يضم اكثر من الف خيمة !

---

(٧٢) هي الصور التي توضح اقتحام شمر لمخيم «عنزة» وما ماثلها

«الفصل الرابع»
مغامرات الرحلة الاستكشافية العربية الاولى

«القسم الثاني»

عاد الحشد الكبير المبتهج لافراد شمر، الذين يندران يعود واحد منهم غير رابح، على امتداد درب زبيدة الواسع الى بئر زبالة، التي تبعد اثني عشر ميلا عن المكان الذي اقام فيه ابن الرشيد مخيمه.

ولقد امضى لجمن تلك الليلة بكاملها وهو يضمد جراح المصابين من المحاربين. وكماكان يفعل في جنوبي افريقيا، فانه لم يكن يأبه براحته قدر اهتمامه بهذا العمل المنطوي على الرحمة، واكماله تضميد الجراح، وتامين ما كانت تحتاج اليه خيله وبراذينه من حاجيات. فعلى ضوء كليل ينبعث من مصباحين نفطيين، كان لجمن يعالج حسب معلوماته الجراحية - ما اصيب به الرجال من مختلف رصاص البنادق او ضربات السيوف وقد استطاع ان يخيطكتف رجل خلعته ضربة سيف حاد، وان يجبر ذراعين كسرتا وتحطمتا بجبارات بسيطة.

كان كل ما حوالية يذكي نيران المخيم الذي يضم الف خيمة من البدو الذين استضافهم. وكانت الحماسة ما تزال حية حتى تلك اللحظة، وعلى استعداد لان تنطلق لدى اقل اشارة. لقد كان الجميع متفقين على العمل الذي كان لجمن يقوم به، عدا ذالك الخط الطويل من الرجال الذين كانوا ينتظرون بفارغ الصبر معالجة جروحهم الى ان يستطيع الغريب ان يخفف من الالم. وفي اليوم التالي وهو الثامن عشر من شهر شباط، ذهب لجمن لتقديم احتراماته الى زعيم شمر كلها، وكان مخيمه يتالف في معظمه من خيام بيض، مما اعتاد رجال «حايل»استعماله ولقد استقبله حامل الراية الوراثي للزعيم، وهو عبدول بن مبارك بن فريك»(١) وكان رجلا بديعاً يرتدي عباءة موشاة بالذهب ولقد راح هذا الرجل يسقي لجمن اقداح القهوة الى ان يحين وقت مقابلة الامير له، حيث اخذ بعد قليل، الى خيمة الضيوف الواسعة. ولقد ترك لنا لجمن وصفا موجزا عن مغامرته الاخرى في «الجريدة الجغرافية»نقتبس منها الفقرات التالية، والتي يقول فيها «الامير الحالي لامارة حايل هو سعود بن الرشيد» (٢)، وهو صبي في الثانية عشر من عمره. انه

---

(١)استخدم لجمن هذا الاسم في احدى مغامراته التنكرية في العراق اثناء الاحتلال الانكليزي كما سيرى القارئ ذلك فيما بعد

(٢)هو سعود بن عبد العزيز بن متعب بن عبد العزيز الرشيد

ابن «عبد العزيز» الذي قتل في احدى المعارك سنة ١٩٠٦ (٣). ولقد خلفه في الامارة ولده الاكبر «متعب». الذي قضى في الوقت ذاته على بقية رجال الاسرة باستثناء الامير الحالي الذي تم نقله الى المدينة (٤) وكان هذا الحادث الاخير قد وقع في شتاء سنة ١٩٠٨ - ١٩٠٩ وما ان بلغت مخيم شمر حتى استدعيت من لدن الامير الذي يجلس في مضيف مؤلف من خيمة واسعة. ويجلس الى جانبه وصيه «زامل بن سبهان».(٥) كان سعود صبيا صغيرا جميلا ذا مظاهر جميلة وطلعة بهية فهو خيال ماهر. وركوب الخيل في الواقع هي المتعة المفضلة لديه. واذ كان ما يزال طفلا فقد اصبح يضجر كثيرا من الجلسات الطويلة التي تعقد في المجلس.(٦) حيث يجري بحث الشؤون القبلية بمنتهى الافاضة. وكان ... ي بعض الاحيان مزاج شديد العنف. يبدو بانه قدورثه مع مظاهره ومميزاته. من ابيه.

«اما الوصي «زامل بن سبهان» فانه رجل في الرابعة والثلاثين من عمره. لكنه على الرغم من شبابه. يبدو بانه كان اقوى رجل شهدته «امارة ابن الرشيد» لسنوات عديدة. فلقد كان مسئولا على نطاق واسع لذلك التغير العظيم جدا. الذي حدث في وضع هذه القوة في اواسط الجزيرة العربية وفي صفتها.

«في الوقت الحاضر يستعمل التبغ، بصفة عملية، في كل مكان ويدخن الاشخاص الممتازون حتى في ديوان(٧) له الامير ذاته، وفي احدى المناسبات كان زامل نفسه يدخن سكارة وانا حاضر في خيمته الخاصة به. كما انه لعب معي، في احدى المرات، اللعبة التركية للورق. وهم في ملبسهم ايضا لم يعودوا يقيمون وزنا للبساطة التي يكرسها الوهابيون، وانما يلبسون ملابس مطرزة

---

(٣) مؤسس بيت آل الرشيد هو عبدالله بن رشيد الذي رحل الى الرياض لخلاف بينه وبين بقية افراد العائله كان قد شارك في مهاجمة قتلة الامام تركي بن السعود فكوفئ من قبل فيصل بن الامام تركي، فجعله اميراً على حائل . وقد عظم شأن امارة حايل في ايام محمد بن الرشيد وحين توفي محمد هذافي كانون الاول سنة ١٨٩٧. الت الامارة الى عبد العزيز ابن أخيه متعب بن الرشيد. ولكن عبد العزيز هذا قتل في سنة ١٩٠٦ فخلفه في الامارة ولده متعب ولم يلبث متعب» هذا ان قتل غيلة على يد ابن عمه سلطان بن حمود من آل عبيد بن الرشيد» الذي قتل اخوي «متعب» ايضا وهما«مشعل» ومحمد». ولم ينج من القتل سوى الطفل(سعود) الذي هرب به خاله«زامل بن سبهان»الى المدينة المنورة. ولكن «سلطان بن حمود» لم ينعم بالامارة سوى سبعة اشهر اذ تأمر عليه اخواه «سعود». وفيصل»فقتلاه خنقا ودفناه في حفرة بالقصر. حيث تولى سعود امارة حايل وعين اخاه «فيصلاً» حاكما على «الجوف» (انظر فلبي: «تأريخ نجد» ترجمة عمر البدراوي. وكتاب«نجد الحديث وملحقاتها. تأليف امين الريحاني

(٤) المقصود بها«المدينة المنورة»

(٥) كانت فاطمه بنت سبهان «هي التي تدبر شؤن الاماره واسرة آل الرشيد حيث كان» سعود» ما يزال طفلاً تحت وصاية خاله «زامل بن سبهان» وكانت فاطمة فصيحة اللسان قوية الشكيمة... (الريحاني المصدر السابق) ص ٢٩١

(٦) كتب المؤلف كلمة مجلس باللفظ العربي MAGLIS

(٧) كتبت كلمة «ديوان» باللفظ العربية DIWAN

بالذهب بشكل مفرط، ومنسوجة من الحرير. طرأ تغيير على علاقات امارة «حايل» ايضاً مع الدول المحيطة بها ذلك ان عدم الاهتمام القديم بالدولة العثمانية قد افسح المجال امام احاسيس الاخلاص المعلنة، حيث بقي الاتصال ثابتا مع الباب العالي». فحيثما كان يرد ذكر الباب العالي. كان «زامل يسميه على الدوام باسم «دولتنا»(٨)

وكما هو الامر دائما، بالنسبة ال الجزيرة العربية، فان علاقات «ابن الرشيد» مع الفصائل البدوية(الكبرى) كانت عرضة للتغيير دوما، ولكن في الوقت الحاضر كانت«عتيبة)(٩) وهي نقطن المواقع الممتدة بين «حايل)و «مكة» قد اظهرت الود مثلما عليه الامر بالنسبة الى اقسام من «بني حرب»(١٠) التي تقطن الاماكن الممتدة بين حايل والمدينة، وكذلك عشيرة مطير»(١١) باتجاه الكويت.

وكان مبارك بن صباح، شيخ الكويت يتظاهر بصداقة لم تكن واسعة جدا، اذا ما اعتبرنا في الوقت الحاضر، بانه هو «وابن سعود» امير الرياض، والعدو الدائم لامارة «حايل» كانا رفيقين في السلاح. وكان «سعدون باشا» شيخ المنتفق(١٢)، وقبيلة بدوية اخرى هي قبيلة «الضفير»(١٣) وكلتاهما من ناحية الشرق للجزيرة العربية كانتا صديقتين لامارة حائل. وعلى الرغم من الموقف المسالم الذي كان يقفه امير حائل تجاه القبائل المحيطه فانه لم يكن يتردد عن معالجة الشيوخ المتمردين بطريقة موجزة. في صراعه الحالي مع قبيلة «عنزة» وكذلك مع شيخ قبيلة بني حرب» والذي كان ينبغي له ان يساند الاميركما كان «زامل» يرى ذلك، بقي ذلك الشيخ ينتظر الى ان وجد بان «شمر»قد اصبحت لها اليد العليا، واذ ذاك دخل مخيم «شمر» ليقدم تهانيه. وعند ذاك سارع«زامل» الى تقييده برباط الخيل، ووضعه في خيمة العبيد، وهدده بالقتل. اذ لم

---

(٨) كتبها باللفظ العربية doula TANA والباب العالي» تسمية لمقر السلطان العثماني

(٩) عتيبة وتعرف باسم « العتوب» ايضا من القبائل العربية الشهيرة في جزيرة العرب. كانت تتجمع في مناطق القصيم والوشم والسدير. وقد انتشرت هذه القبيلة الى الكويت و«الزبارة» في قطر. والاسرتان الحاكمتان في الكويت والبحرين حاليا هما من عتيبة

(١٠) بنو حرب كانت تتجول بين نجد والحجاز.

(١١) مطير من القبائل النجدية وتنتشر في الاحساء، والقطيف، والكويت والعراق

(١٢) سعدون بن منصور باشا امير المنتفق(المنتفق صاحب النفق) ولد في حدود سنة ١٨٥٣ ومات في حلب سجينا او منفيا سنة ١٩١١ بعد ان ثار على الدولة العثمانية، فحاصرته وهرب الى الكويت، حيث توسط له طالب النقيب عند السلطان عبد الحميد، فعفي عنه. وبعد عودته الى العراق سنة ١٩٠٤ اصطدم مع مبارك الصباح في معركة «الطوال» التي وقعت سنة ١٩١٠ وانتهت بهزيمة الكويتيين. وقيل ان طالب النقيب هو الذي وشى به حين كان سعدون باشا في البصرة حيث تم القاء القبض عليه والقائه في سجن حلب ووفاته فيه

(١٣) الضفير: مجموعة من عدة عشائر متحالفة متضافرة تقطن اطراف نجد والكويت والعراق. ومن فروعها المهمة عشائر السعيد والذرعان»

يتسلم منه فدية محددة. وكان هذا التهديد من المحقق ان يتم تنفيذه. اذا لم تدفع الفدية المتمثلة في مائتي« ذلول» وخمس وعشرين مهرة عربية. دفعة واحدة. ولقد كان هذا الرجل شيخا عظيما لواحدة من اشهر القبائل المعروفة في الجزيرة العربية

اما في ميدان الانضباط. والاجراءات العامة. فيسود نظام اكثر رفعة بصفة نسبية في مبكر الصباح يعلن احد المنادين عن تحرك المخيم. واذ ذاك يقوم حامل الراية بنشرها. وحين يمتطي هذا الاخير ذلوله، تتحرك القوة برمتها. تتقدمها رايات «حائل» القرمزية الثلاث. واحدة منها تخص الامير. وواحدة لكل حي من احياء المدينة

اما في المخيم فأن الخيام المصنوعة من القماش الابيض، وليست المصنوعة من شعر اسود مثل تلك التي يستعملها البدو. يجري نصبها في ذات التشكيلة. وعلى الدوام ترسل فرق الكشافة الى الخارج للبحث عن العدو، او الماء، او المراعي. ويظل احد الملمين بامور السلاح منكبا على اصلاح مختلف انواع الاسلحة، التي يتلق عنها اجرا من لدن الامير نفسه.

في المعركة لا يفكر البدوى الا قليلا في القتال لكنه يفكر كثيرا في اعمال النهب غير ان «شمر» بقيت مقيدة الى ان تم ضرب العدو. واذ ذاك حسب، سمح لها بان تنهب .وكان الاسرى تقطع رؤوسهم ويتم الحفاظ على حياة الشيوخ غالبا

ويكون الكرم اثناء الغزو في غاية الاسراف. فما ان يقبل احد الضيوف حتى يتم استقباله من قبل شخصية مرموقة ترتدي جلبابا موشى بالذهب، مثل «عبدول بن فريك» حامل الراية الوراثي لابن الرشيد. فمركزه قوي وان كان محفوفاً بالخطر، لانه ينبغي له ان يكون في مقدمة المعركة. وعبدول هذا رجل في الخامسه والثلاثين من عمره لكن جسمه قد اصيب بما لا يقل عن عشرة جروح بالرصاص وحينذاك يقاد الضيف الى خيمة خاصة. فيستمتع بتناول القهوة الى ان يستقبله الامير في الديوان العام. فاذا كان ذلك الضيف ذا مكانة فانه تخصص له خيمة خاصة. ويزود بكل ما يرغب فيه بل انه حتى يتناول طعامه من صحن الامير نفسه. وهناك ضيوف آخرون يتم اطعامهم في خيمة خاصة. ونادرا ما يكون عددهم اقل من ستين او سبعين شخصا. وتكون وسائل التسلية في المخيم قليلة. والتسلية الرئيسة فيه هي تمثيل الوقائع الحربية. وغالبا ما يكون الامير نفسه على رأس هذه التمثيلية، حيث يبدأ الطراد بين الخيام. فيحمل رمحاً بيده. ويتبعه بقية افراد حاميته من الفرسان. وفي الليل يكون الحديث في الدواوين ممتعا تماما. اذا كان يتناول بصفة رئيسة قصص المعارك، او تأريخ العائلة. في الوقت الذي ينشد فيه احد الشعراء عادة، حداء او «قصيدا» وهؤلاء الشعراء من الرجال الذين يطوفون بين القبائل. يؤلفون القصيد، في مدح الشيوخ، ويتلقون منهم الهبات لقاء ذلك. ولم يكن مثل هذا الامر سوى شكل من اشكال الابتزاز، لانهم اذا لم يكرموا من لدن الشيوخ، ينظمون القصائد التي يهجونهم بها في المخيمات الاخرى.

«يتشدد سكان حائل تشددا كبيرا في مراقبة اوقات الصلاة. فالمؤذنون يدعون الناس الى الصلاة في الساعات الاعتيادية، في اجزاء مختلفة من المخيم، حيث تقام الصلاة في مواقع متباينة. وتجري مراقبة المتغيبين عنها، ويتم ضربهم.

وعلى الرغم من انهم من المسلمين المتشددين، الا انهم ليسوا من الغلاة المتطرفين. لانهم في هذا المضمار، كما هو شأن عرب العراق ممن يسكنون ضفاف الانهار. في الاسابيع الخمسه التي امضيتها مع الامير لا اتذكر انني سمعت ذات مرة اية ملاحظة عدائية ضد المسيحيين. وما ان يحاول احدهم في المجلس، وفي اي وقت كان، ان يطرح علي اسئلة تخص الدين، حتى يسكته الشيوخ عن ذلك تماما، ولقد كان الوصي «زامل» نفسه يردد علي، ولمنفعتي، كما اعتاد ذلك غالبا، فقرات من الكتب المقدسة، ويسألني دائما في البداية عما اذا كان لدي ادنى اعتراض على ذلك.

ولم يكن الملالي، وعددهم كبير في الغزو، يترددون في المجئ الى خيمتي وتناول القهوة او الطعام معي. وحين غادرت الامير اقبل عدد كبير منهم لوداعي.

في هذا الوقت تحرك الغزو في مسيرات قصيرة نحو منطقة تعرف باسم« الحجيرة»(١٤). وفي اواسط شهر اذار غادر الغزو فخيم عند ابار شهيرة تعرف باسم آبار[١٥] لينة تمتد في واد بين النفود»[١٦] والحجيرة. يبلغ عدد الابار في هذه المنطقه بضع مئات، تنتشر على امتداد منطقة تتراوح بين خمسة او ستة اميال. وقد حفرت تلك الابار في ارض حجرية صلبة بيضاء، ومع ان اعماق الكثير منها تتراوح بين عشرين الى ثلاثين قدما، الاان قطر البئر الواحدة منها لا تزيد عن قدمين، وان من العسير ان تدرك، كيف كانت قد حفرت اصلا. وفي جوار هذه الابار خرائب لبيوت كثيرة مشيدة من الحجر. وتقع آبار لينة على الطريق المعروف باسم «درب السلمان»[١٧] وهو الطريق الشرقي من الطرق الثلاثة التي تبدأ من «حايل» الى «مشهد علي» وهناك التقينا بقافلة الحجيج عائدة من المدينة الى مشهد علي (النجف). ونظرا الى الحالة غير المستقرة للبلاد. فان

---

(١٤) الحجيرة، او الحجرة: منطقة حجرية تقع الى الجنوب من بادية العراق الجنوبية، فتمتد من غرب الناصرية الى اواسط نجد. وفيها يمر طريق الحج البري من العراق الى الحجاز، وهي تؤلف احد الاقسام الخمسة التي تتكون منها البادية. وتنزل شمر، والضفير، والدهامشة: هذه المنطقة في فصل الربيع

(١٥) لينة: عدة آبار تقع على الطريق المار من العراق الى نجد، وهو يبدأ من النجف، ثم «الرحبة» «الى عيدها والجميمة» وهي اخر موقع على الحدود بين العراق ونجد.

(١٦) النفود: صحراء واسعة تبدأ من جنوبي غربي الكويت وتمتد الى اواسط نجد وتتصل بها صحراء الدهنة والدهناء فتبلغ الحدود الفاصلة بين العراق والسعودية

(١٧) درب السلمان: يبدأ هذا الطريق من منطقة «نقرة السلمان» غربي الناصرية ثم يمر بمواقع «الجل» والمغرف. والساعة. حتى يصل الى ابار «عيدها» ويبلغ طوله زهاء مائتي كيلومتر

الحجاج لم يكن في مقدورهم استعمال هذا الطريق لمدة ست سنوات، وكانوا يفضلون عليه طريقاً اطول. هو طريق دمشق، او يركبون البحر ابتداء من بغداد[١٨]

ولما كان الحج مصدر كسب كبير لابن الرشيد، وكذلك لسكان مدينة حائل ذاتها، فقد كان يسعى الى ان يجعل هذا الطريق مشهورا، وذلك بان يسمح للحجاج ان يسافروا عبر بلاده باقل نفقة. وقد كانت عادة حكام حائل قبلا، ان يعمدوا، حين يقع الحجاج في قبضتهم .الى تاخيرهم، حتى يكونوا قد استنفدوا آخر قطعة نقود لديهم. ومع ذلك فان ابن الرشيد في هذه السنة لم يستوف من الحجاج سوى ليرتين ونصف الليرة(اي حوالي خمسة واربعين شلنا) من كل حاج وما عدا ذلك فان اجرة كل بعير من المدينة الى النجف كانت حوالي سبعة عشر ريالا(اي حوالي واحد وخمسين شلناً) وهكذا فان النفقات تقارن مع نفقات المرور بطريق البحر، او، البر بطريق سوريا

كنت اتوسل دوما الى. زامل بان يبعث بي الى مدينة حائل التي تبعد من هنا مسيرة حوالي ثلاثة ايام، لكنه كان يتملص من ذلك بحجة ان الطريق لم يكن مأمونا في الوقت الحاضر.ومن المحتمل انه لم تكن لديه نية في السماح لي بالذهاب،واخيرا بعث الي يطلبني في مبكر صباح احد الايام، وامرني بان اغادر حالا مع قافلة متجهة الى جوار «الزبير» قرب البصرة.

ولقد اوضح لي بان حياتي واموالي انما هي في يديه ،وان من حقه تماما ان ياخذ ايا منها، او كليهما. واذ اخذت الحكمة من التجارب التي جربها معظم المسافرين في هذه الانحاء، فقد دهشت لانه لم ياخذ اي شيئ مني. والحقيقه ان الشيوخ قد اعتادوا ان يبعثوا الي يوميا بطلب الحصول على اشياء مختلفة مما كنت املكه، لكنهم كانوا يعنون بحذر، في جميع الاوقات«باعادة ما كانوا يطلبونه.

وكانت تلق تلميحات بالطبع ،بان بعض الاشياء قد تكون مقبولة. وبعد توديعات معظمها كانت ودية، غادرت الغزو، وسافرت مع فريق من شمر متوجه الى«الخميسية» [١٩] بين الزبير وسوق الشيوخ، على نهر الفرات، للاكتيال.واذ غذذنا السير مسرعين فقد غادرنا«النفود» واجتزنا خلال «الحجيرة» ثم دخلنا «ديرة» [٢٠] قبيلة الضفير «البدوية،» مارين باراضي حصبائية

---

(١٨) كان استخدام وسائط النقل النهرية وخاصة السفن معروفا بين بغداد والبصرة، ومنها الى جدة. وقد بقيت هذه الوسائط تنقل الحجاج من العراق الى الحجاز الى ما قبل سنوات قليلة حين تم اصلاح طريق الحج البري بين العراق والسعودية، واستعيض به عن الطرق الاخرى البرية منها او البحرية

(١٩) الخميسية احدى مناطق البادية الجنوبية من العراق على الطريق الممتد بين سوق الشيوخ والزبير. وتمتد حتى خط الحديد بين بغداد والبصرة، والى الجنوب الغربي من ذلك.

(٢٠) اعتاد المؤلف ان يكتب كلمة «ديرة» باللفظ العربي دوما DIRAT

لا شكل لها، الى مخيم «سعدون باشا» «شيخ المنتفق» تلك القبيلة الكبيرة القوية التي تقطن الجزء الجنوبي من الجزيرة في العراق. لقد كان سعدون باشا آنذاك في معسكر حربي ينتظر هجوم مبارك بن صباح شيخ الكويت، و«ابن سعود» امير الرياض.

وكان هذان قد هاجما سعدون باشا قبل ان نصل نحنُ بأيام قلائل، وقد اصيب جراء ذلك بخسائر فادحة، وهي فادحة بالنسبة الى الحروب العربية على الاقل، ذلك لانني عددت حوالي مائة جثة من القتلى في ميدان المعركة ذاته، ولا بد ان الكثيرين منهم قدماتوا بعد القتال [٢١]

ولقد اذيع ان مبارك « وابن السعود» كان يتقدمان مرة اخرى، وان هناك انذارات متوالية حين تدور حكايات مباشرة من لدن المحاربين عن الاتجاه الذي سوف يسلكه الهجوم المنتظر. اثناء مكوثي مع سعدون باشا شاهدت حادثة لم أر احدا من الرحالين قد اشار اليها. ففي قتال سابق بين «الضفير» و«وعنزة» كان احد افراد الضفير قد تم اسره، ولقد كان من المقرر قتله حسب المجرى الاعتيادي للاحداث. ومهما يكن الامر، فان شيخ الضفير قد قام بأخر هجوم واستطاع ان ينقذ ذلك الاسير من الاسر

ولقد انتظر ذلك الاسير الى ان بلغت الضفير معسكر سعدون باشا، فتسلل، في احدى الليالي ببطء خلال الخيام ممتطيا مهرة ذلول، وهو يترنم ببيتين من «قصيدة تصف نجاته من الاسر، يقول فيها « لقد بيضت وجه«ابن سويط» [٢٢] (وابن سويط هو شيخ الضفير الذي انقذه) ويقول العرب ان هذا الضرب من الاعتراف بعمل بطولي، وان كان معروفا جيدا بالتقليد بينهم، الا انه من النادران يرى مثله!

وبعد ان حظيت بالتكريم الذي اسبغه علي سعدون باشا، واصلت سفري نحو الفرات الى جوار السماوة» فاخذت الطريق عبر السهل الممتد على جانب النهر الى بغداد، والذي يقطعه الاعراب. ولقد عانيت من هؤلاء قدرا كبيرا من المعاملة الفظة الجافة التي تشتهر بها هذه الطائفة من الاعراب.

كنت خلال رحلتي التقي على الدوام بنفر من اولئك الناس العجيبين «الصليب» الذين لا يعرف عنهم سوى النزراليسير. انها لحقيقة مدهشة، ان نجد العرب يبدون المزيد من الاهتمام باصول هؤلاء الصليب» وبمزاياهم ،ولكنهم يجهلون كل ذلك مثلهم في هذا مثل الاوربيين. لقد سمعت العرب يسألون الصليب عن دينهم، كما لوكانوا من المسيحيين، لكنهم لا يتلقون منهم الا ذلك الانكار الذي ينم عن السخط الشديد !

---

(٢١) كان مبارك بن صباح قد اعد جيشا لمحاربة سعدون باشا شيخ المنتفق في سنة ١٩١٠ وقد استنجد مبارك بعبد العزيز بن سعود فانجده مكرها. وكان جيش الكويت مؤلفامن الحضر واربعة الاف من البدو، يقوده «جابر» (بن مبارك) فاغار هذا الجيش على معسكر سعدون باشا ولكن الهزيمة حلت به وقد عرفت هذه المعركة باسم «هدية» لان ما خسره شيخ الكويت من رجال واموال كان بمثابة «هدية» الى سعدون باشا. وقد وقعت هذه المعركة في العاشر من حزيران ١٩١٠

(٢٢) هو«حمود بن سويط» شيخ فرع سويط من الضفير وهم رؤساء هذه القبيلة ويزعمون انهم من السادة

والمعتاد ان يتم الالتقاء بهؤلاء الصليب في جماعات صغيرة تتألف من ستة رجال. مع نسائهم واطفالهم.وهم يتجنبون محلات الارواء الشهيرة جهدالمستطاع، ولذلك اشتهروا بين العرب بمدى المامهم بالريف، ولا يستعملون للركوب سوى الحمير، ولكن البعض منهم يمتلك بعض الابل. ويرتدون لباسا طويلا اشبه بلون الدخان، مصنوعا من جلود الغزلان، ويضعون على رؤسهم قلنسوات. وحين يخرجون للصيد، وهم خبراء فوق العادة بذلك.يغطون رؤسهم بتلك القلنسوات، حيث ذكر عنهم بانهم يستطيعون بذلك الاقتراب من قطيع من الغزلان، ضمن ياردات قليلة دون اخافتها.

يتحدث العرب عن الرخاء النسبي الذي يتمتع به هؤلاء الصليب، بالنظر الى النظام. ويقولون عنهم بان لديهم على الدوام، الشيء الجديد الذي يأكلونه، ومن اللبن الذي يشربونه. ويبدو عليهم بانهم ٠٠يجوبون منطقة شاسعة من الارض، وان الاعراب الوحيدين الذين التقيت معهم، ولا يعرفون الصليب في ديرتهم هم عرب قحطان» [٢٣] من جنوبي غربي الجزيرة العربية

في البحث الذي كتبه لجمن في «الجريدة الجغرافية» اعطى وصفا رائعا لابن الرشيد ولاتباعه غير انه سوف يلاحظ مرة اخرى ، كيف كان حديثه ذاك حديثا موضوعيا. فحتى يومياته ،وعلى الرغم من تحفظها وتكتمها، كانت تضم اضواء قليلة بالغة الاهمية عن تجاربه تلك. فلقدكان على الدوام شديد الحذر جدا بالنسبة الى ما كان يدونه ،حتى في ذلك السجل الخاص. ذلك لان احتمال ان تسرق يومياته او يطلع عليها اشخاص غير مؤذون لهم بذلك، حاظر في ذهنه على الدوام ابدا

وفضلا عن ذلك فان الحاجة المستديمة الى السرية، وان يكون هو الحارس نفسه، كانت متأصلة فيه، ولذلك فانه اصبح اكثر صمتا بالنسبة الى تصرفاته كلما كان الوقت يمضي.ففي هذا المثل الحاضر ليست لدينا اية مصادر اخرى نعتمد عليها لملء الثغرات بين هاتين المدونتين، ولذلك اضطررنا الى ان ندع الخيال يملأ اضواء وظلال صورة حياته اليومية بين الجماهير الجافة التي تسكن الصحراء. على ان اليوميات ينبغي ان لا تهمل، ولذلك جرت محاولة لذكر القصة في صفة مركزة

بعد ان تم تقديم لجمن الى ابن ،رشيد، طلب اليه ان يتناول طعام الغداء معه، فجلس على الارض مع الاخرين حول جفنة هائلة من الرز ،واللحم، والخضار٠ واذ كان يتناول طعامه بفخامة، فانه لم يكتف الا نصف اكتفاء من الطعام الذي كان يؤلف وجبته الاولى لذلك اليوم وفي اليوم الثاني تحرر من مرافقيه من افراد عشيرة «عقيل»،لانه وجدهم غير نافعين له اطلاقا،

(٢٣) «قحطان»من القبائل الشهيرة المعروفة في جزيرة العرب، ويتركز سكنها في الانحاء الجنوبية، والجنوبية الغربية من بلاد نجد

ولذلك ترك وحيدا في مخيم شمر مدة خمسة اسابيع حتى اليوم الخامس والعشرين من شهر اذار. وفي اثناء الايام القليلة لمكوثه. سقطت الامطار بوفرة. وبالطريقه المدهشة التي الفتها الصحراء. برزت الاعشاب والحشائش. لتفيض على الحياة بالخضرة كي تسمن الابل والحيوانات الاخرى. وتتكور بطونها.

تحركت شمر على مهل نحو الجنوب، مستفيدة الى اقصى حد من هذا الوضع المترف كثيرا. كي تستفيد اوسع فائدة من اراضي الرعي

الطريفة. كانت شمر في مسيرتها تلك تؤلف منظرا فخما. فقد كانت في بعض الاحيان تدور باستدارة الوديان الضيقة التي غدت الآن تتلألأ بالزهور وبالخضرة التي كانت تلف الحشد السائر، في صفة رتل متراص يبدو عليه، وكأنه يكادان لا ينتهي، في الوقت الذي كان فيه آخرون يتدفقون على السهل.

ومايلبث الرتل ان يبلغ مداه من الاتساع، وقد غطي بكتائب لا يمكن تعدادها. كانت الرايات الخاصة بكل رتل ترفع عالية في مقدمته وكان «عبدول» يسير في مقدمة الجميع، انه ذلك الشخص الذي امتلأ جسمه بندوب الحرب. كان لجمن قد ربط نفسه بهذا الشخص الذي وجد فيه ضربا حسنا من الرجال. ولكن «عبدول» هذا كان عالة على الآخرين، وقد غادر في اليوم العشرين من شهر شباط الى حائل وترك لجمن في غائلة الفقر، لكنه كان اكثر غنى بقبلة السلام التي طبعها عبدول على خده حين غادره!! تم ارسال حملة الرسائل على عجل، الى بغداد والكويت، والزبير لكي يعلنوا النصر العظيم الذي حققته «شمر» على «عنزة» ولقد اقبلت السفارات من مختلف القبائل الى شمر لتقديم التهاني بذلك الانتصار. وفي الوقت ذاته تحدث حملة الرسائل عن القاء القبض على «لجمن» حيث سر الاتراك وفرحوا كثيراً بذلك النبأ وكانوا يتوقعون حدوث امور اكثر مرارة بالنسبة الى لجمن.

هنالك شك في ان يكون الاتراك قد بعثوا باوامر الى حليفهم «ابن الرشيد» بان يحول دون وصول لجمن الى حائل. ولقد كان لجمن يجهل ذلك طبعا ولهذا اهتاج واشتد سخطه جراء هذه الضربة التي وجهت الى مخططاته. ولقد تعاظم سخطه بصفة اوسع، حين تذكر تلك المخاطر التي تعرض لها لكي يحقق هدفه.

لقد كان لجمن يحس في بعض الاحيان بتوعك صحته، وكانت معدته تثور ضد الطعام الذي كان يزود به، ولقد اعتبر طعام الامير دسما الى درجة انه استعمل بيضتي نعامة في صنع «عجة البيض» التي كانت اسعافا له مرغوبا فيه [٢٤].

(٢٤) عجة البيض هي التي تعرف لدى الغربيين باسم اوميليت OMELETTE

اما الوصي «زامل» فقد كان عنيدا اشبه بعناد البغل، بالنظر الى السماح للجمن بالذهاب الى حائل، ذلك الطلب الذي كان لجمن يكرره كل يوم. غير ان زامل كان مع ذلك سخي الفكر بالنسبة الى اقتناع ضيفه بامور اخرى، ولذلك كان يقترح على لجمن بان يتزوج فتاة من «شمر» تكون زوجة له، لان زامل نفسه قد فعل هذا الامر ليجعل الايام التي تمر بطيئة اقل ضجرا. كان كل يوم يقبل، يأتي في الغالب باشاعة جديدة «لقد وصل ابن السعود الى الكويت ليساعد «مبارك» ضد سعدون باشا شيخ المنتفق، «ان شريف مكة كان يتحرك بثمانمائة من الرجال للاستيلاء على «القصيم» وانتزاعها من «ابن السعود» [٢٥] وهكذا كانت تتوارد الاشاعات، واحدة في اثر اخرى، حتى غدا من المستحيل الحكم على الصدق من الكذب، ولذلك غدا لجمن ساخطا من هذا الفيض من الحكايات، والاشاعات التي نجد لها احتجاجا ساخطا في يومياته، حيث يقول «لا يوجد مكان او شعب في العالم يخترع القصص الخيالية مثل العرب، اذ ان المرء لا يكاد يصدق حتى كلمة واحدة من اي شيئ يسمع به!

كانت الاخبار المثيرة قد نقلت من قبل عدد كبير من الزوار الى المخيم، من كل انحاء الجزيرة العربية. وكان من بين هؤلاء «ابن فهد بك» الذي جاء لعقد الصلح، وقد دفع هذا الامر لجمن الى ان يكتب في يومياته هذا التعليق الساخر «لو اعتبرنا ان فريقه، ومن المحتمل نفسه هو قد هرب بطريقة مخزية قبل اسبوع، لكنت اعتقد بانه كان يتباهى بذلك!»

كانت الشهرة التي اصابها لجمن باعتباره طبيبا في تلك الليلة التي راح فيها يداوي جراح المصابين، قد جعلته يستدعى لمعالجة مختلف الامراض. ويبدو بانه كان يحتفظ بمقدار كبير جدا من الادوية معه، اذ كان ينهمك تماما في الاستجابة لطلبات المرضى. ومن المدهش ان ادويته كانت تتواصل لاطول ماتستطيع، لانه قد ظهر بان العرب كانوا يظنون ان تلك الكمية من الادوية توفر افضل امل للعلاج. لقد تشكى احد شيوخ قبيلة «عتيبة» من الامساك فما كان منه الا ان استهلك في العلاج كل قنينة «زيت الخروع» تقريبا غير انه ما ان وجد بانه قد لايحتاج الى ذلك الدواء لعدة سنوات فقد سارع خجلا من فعلته تلك ليعيد ماتبقى من الدواء

---

(٢٥) كان شريف مكة في ذلك الوقت هو حسين بن علي الذي عين اميرا على مكة سنة ١٩٠٨ وهو الذي قام بالثورة ضد الاتراك في سنة ١٩١٦ بمساعدة من الانكليز. وقد اعلن ملوكيته على الحجاز في اعقاب الحرب، ولكن الانكليز الذين كانت لهم روابط متينة مع عبدالعزيز بن السعود قبل الحرب العالمية الاول بسنوات، وجدوا ان عبدالعزيز هذا اضمن لهم واكثر استعدادا لتنفيذ مشاريعهم في العالم العربي، ولذلك اثاروه ضد الملك حسين فانتزع الحجاز منه، وضم اليه «عسير» وبسط نفوذه على الجزيرة العربية كلها، ثم تجاوز هذا النفوذ ذلك المدى الى كل امارات ومشيخات الخليج العربي، وحضر موت وعدن. اما نهاية الملك حسين فكانت نفيه الى جزيرة قبرص ووفاته في عمان ودفنه في القدس في اليوم الرابع من شهر حزيران ١٩٣١
اما «القصيم» فهي من اهم اقاليم نجد واكثر اتصالا بالعالم الخارجي لانها تقع على طريق القوافل بين مكة والعراق. وتضم القصيم زهاء خمسين قرية من اهمها «بريدة» و «عنيزة» وتعتبر بريدة بمثابة عاصمة لها.

بقي لجمن على علاقة ودية مع الوصي «زامل» الذي كانت له معه احاديث مهمة عن كل المواضيع. وكان كل يوم يمضي يضيف جديداً الى خزينه من المعرفة. كانت لقاءاته مع كل طبقة من العرب، من الامير الى البدوي الوضيع، قد هيأت له النفاذ الى طبيعة العربي التي لن يحول شيء عما توفره هذه التجربة التامة، غير ان الايام الماضية قد جازته بالمرض نتيجة الكسل المفروض عليه، الذي كان يستنكر ان يعانيه بحيث بدا سخطه وتبرمه جليين في يومياته حين يصف خادمه «خضر» بانه «خنزير كريه وكذاب» ويبدو ان متاعبه قد بلغت ذروتها، حين اجبر بان يظل في خيمته طيلة النهار، تحيط به رائحة كريهة مخيفة غدت لا تطاق ساعة بعد اخرى. ولقد ظهر فيما بعد ان بعيرا ميتا تركت جثته على بعد اقدام منه، وقد تكاسل البدو الذين القوا بتلك الجثة، الى ابعادها عنه.

لقد راح يشتكي على عجل الى الوصي، الذي بدلا من اصلاح الامور، اخذ يلقي بتلميحات لا يخطأ احد في فهمها. فقد كان الوصي يشير الى ان احوال لجمن سوف تغدو على الفور مقبولة بصفة اكثر، نظرا الى حقيقة انه سوف يصبح قادرا على ان يواصل رحلته في مستقبل قريب. واذ كان لجمن في الواقع اسيراً لاكثر من شهر، وان ذلك قد حصل بتحريض من الاتراك، الذين ابرزت صحافتهم مؤخرا آمالهم الحقيقية، اي انه ينبغي له ان يسجن في «حائل» فان تلك الأنباء وان كانت مخيبة للآمال من ناحية، الا انها كانت مقبولة من ناحية اخرى، وانها كانت تعني بان ابن الرشيد قد وافق في الاخير على ان يدع اسيره يمضي.

لقد تحقق هذا الحادث السعيد بفعل شخصية لجمن ذاتها، فلم يظهر ايا من الضعف او الخوف، ولكن على النقيض من ذلك كانت جرأته وتحمله قد جعلاه يحظى بالاحترام والمحبة ليس من الزعماء حسب، بل ومن الجفاة القساة، وحتى من الملالي (٢٦)

هنالك حادثان دللا على طبيعته الوادعة، وجرأته الصارمة الاول حين اعلن صراحة بانه مسيحي، على مناقضة قوية لعدد آخر من الرحالين في الجزيرة العربية، الذين كانوا يتطلعون الى تحسين اوضاعهم بانكارهم ديانتهم التي يؤمنون بها. فعلى العكس من ذلك فان لجمن، وان كان اسيرا بين بعض من اكثر الاعضاء المتطرفين من المسلحين، كما اوضح ذلك الا انه لم يعلن ديانته بكل عزيمة حسب وانما كان يناقش الوصي في بعض النقاط اللاهوتية، وكذلك مع مدرس ديني، شيخ ضرير، كان يلح عليه بان يعتنق الدين الاسلامي.

لقد كتب لجمن، بنوع من النزوات بانه لم يجد نفسه ملما بالموضوع لكنه يحتفظ بحقه في النقاش. انه لمن المدهش ان نظن بان الملالي انفسهم، المشهورين بتطرفهم، لم يكرموه على شجاعته في الاعتزاز بدينه حسب بل احبوه من صميم قلوبهم ولم يعتقدوا بانه مما يخل بمنزلتهم ان يظهروا مودتهم له حين شاركوا في توديعه.

---

(٢٦) كتب المؤلف كلمة «ملالي» باللفظ العربي MULLAHS

ومثل بقية كل الاشياء المقربة الى فؤاده فانه لم يتحدث عن الدين .
اما المناسبة الثانية فانها حين يكون تقديم هدية ما الى الوصي سوف تحقق له رغبته الشديدة في الذهاب الى «حايل» فلقد طرد لجمن من ذهنه الاقتراح بتقديم هدية الى الوصي بعنف، ورفض ان يحصل على هدفه بطريقة بغيضة تماما الى نفسه، وان كان ذلك الرفض يعني فشل مخططاته واصابته بخيبة امل شديدة.

° ° °

في اليوم الخامس والعشرين من شهر اذار فتح الوصي زامل يده ليقول له «اتريد ان تسافر في بلادنا؟ لقد جاء قبل الآن كل من «بلنت» و «تولده» و «هوبر» بهدايا طيبة، ومعهم طائفة كبيرة من الخدم والحشم، مع اذن من الاتراك. انك لم تأت معك بشيئ من هذا! ان حياتك تحت رحمتنا وفقاً لقانون نجد. ان ديننا يختلف عن غيره، ونحن نحب حكومتنا (تركيا) وفي مستطاعك ان تغادر متى ماتحب!» في هذه المرة كانت لغة زامل نقية نقاء البلور وفي ذات اليوم غادر لجمن مخيم شمر مع قافلة تجارية مؤلفة من حوالي خمسين بعيرا، متوجهة الى الخميسية، ميناء الصحراء. رأى زامل بان لجمن قد تزود بالطعام للرحلة، حتى انه بعث اليه في اخر لحظة برسالة ينبؤه فيها بان هدية ملائمة او نقودا، قد تحقق المعجزة! غير ان لجمن كتب في يومياته يقول «غير انني قد دهشت لذلك وقلت بانني لا اريد سوى الذهاب الى الكويت. ومن ثم ودعت بسرور «زامل» والشيوخ [٢٧] والامير الصغير وسررت بالحديث مع عبدول «حامل الراية» «بيرقدار» [٢٨] والاخرين الذين اقبلو لتوديعي
اعلنت عاصفة رعد كثيفة لحظة مغادرته، وفي تلك الليلة كان على بعد خمسة ايام من ذلك المخيم الذي احتضن آماله، وخيبتها. كان قادة القافلة المتلهفون الى تجنب المخاطر المتوقعة في هذه المنطقة التي تسودها الفوضى وانعدام القانون يجدون السير بسرعة عجيبة. في مدى اربعة ايام قطعت القافلة مائة واربعة واربعين ميلا لتصل آبار «الغريبية» [٢٩] في اقرب مكان من مسرح القتال الاخير بين سعدون باشا وابن السعود [٣٠]

(٢٧) كتبها باللفظ العربي SHUYUKH

(٢٨) البيرقدار كلمة تركية تعني حامل الراية وقد كتبها المؤلف باللفظ العربي الشائع لدى الاعراب والبدو وهو بير غدار BAIRUGDAR

(٢٩) الغريبية او الغريبيات عدة آبار تقع في المنطقة المحايدة سابقا بين العراق والسعودية والكويت شمالي منطقة «الرخيمية» وتعرف باسم «الجريبية» ايضا.

(٣٠) وقعت هذه المعركة بين سعدون باشا شيخ المنتفق وابن السعود الذي ساعد مبارك صباح شيخ الكويت في العاشر من حزيران سنة ١٩١٠ والتي عرفت باسم معركة «هدية» كما اشرنا اليها في هامش سابق.

كان القتال قد وقع قبل اثنتي عشر يوما. غير ان الارض مازالت مفروشة بجثث القتلى العراة. ومعظمها ملطخة بالدماء. وقد جف البعض منها. واتت الذئاب والعقبان على الكثير منها وكالعادة عومل لجمن معاملة كريمة، فقد تناول طعام العشاء مع «خدم بن فايد» رئيس القافلة الذي وجده ماجدا بهيجا وذا اسلوب لم يرمثله ابدا. كما انه التقى مع شخصية اخرى نافعة هو «محمد بن دويش» شيخ قبيلة «مطير» (٣١) الذي نال في الاخير شهرة بانه واحدا من زعماء الحركة الوهابية الاحيائية، والذي اكد للجمن بانه يستطيع لقاء مكافأة مناسبة، ان يوصله الى اي مكان يرغب الوصول اليه.

وفي اليوم الحادي والثلاثين من شهر اذار غادر كل من «خدم» و «لجمن» القافلة، بناء على تعليات تلقياها من «زاما» للبحث عن معسكر «سعدون باشا»، والذي عثرا عليه بعد ان قطعا مسافة عشرين ميلا، فاستقرا فيه بعد مسيرة ذلك اليوم. كان الرجل العظيم نائما حين وصلا، ولذلك كان على لجمن ان ينتظر لاجراء حديث معه. ولقد تأثر لجمن ورفيقه ببساطة سعدون باشا ومسكنه الذي يعكس طبيعيته البسيطة. فهناك خيمة استقبال واسعة وخيمة اصغر منها له نفسه ومطبخ كل هذا كانت فيه الكفاية لحاجات سعدون باشا غير ان سخاءه كان مفرطا ومثابرته كانت عظيمة. فقد كان طيلة الوقت منشغلا بتلقي الرسائل وقراءتها من كل الانحاء، وحين يقدم الطعام يترأس الجالسين الى المائدة ويظل الى ان ينتهي الجميع من تناول الطعام سواء كانوا من الضيوف او من الخدم ولذلك يكرمهم جميعا دون تمييز.

يصف لجمن سعدون باشا بانه رجل عظيم ابتهاجا وانه كان يحس معه اكثر انبساطا من اي شخص جربه قبلا. والحقيقة ان سعدون باشا كان يبدو عليه بانه لا يشبه الاعرابي. فقد كان يتحدث من دون تصنع، باللغة العربية الفصحى عن انتصاره الاخير وعلى الرغم من حقيقة العدد المضاد له في المعركة، فان «مبارك بن صباح» قد تشكى لدى السلطات البريطانية بمرارة وان تلك السلطات قد ابلغت الاتراك بان «مبارك» قد هوجم من دون اثارة حين كان يقوم برحلة للصيد!

وفي اليوم التالي وهو اليوم الاول من شهر نيسان، صحب لجمن، سعدون باشا في مسيرة قصيرة استغرقت ميلين ركب سعدون باشا بمفرده على رأس رتل، ورايته ترفرف وراءه وكانت عدته الحربية تؤلف مشهدا يلهم اتباعه. غير ان لجمن لاحظ بان اتباعه حين اقبلوا لكي ينصبوا خيامهم كانوا اكثر اعتباطا واقل نشاطاً وسرعة مما كانت تفعله شمر التابعة لابن الرشيد. ومن

(٣١) اخطأ المؤلف في تسمية شيخ المطير فقال عنه انه محمد الدويش والذي نعتقده. والثابت تأريخيا ان رئيس المطير هو سلطان الدويش، وقد اعقبه في المشيخة ولده فيصل الدويش صاحب المغامرات الواسعة في العراق والكويت وهو المقصود بهذا فعلا وقد استسلم فيصل الدويش لابن السعود بمساعدة الانكليز الذي طاردوا الدويش بطائراتهم في العراق والكويت.

ناحية ثانية كانت وجبات الطعام اكثر بساطة من تلك التي كان يقدمها حاكم حائل اما المجلس فانه وان كان اكثر ازدحاما الا انه لا يتوفر فيه سوى القليل من الحديث.

في ذلك المساء وصلت الانباء تفيد بان «ابن السعود» قد تحرك من «الجهرة» (٣٢) وتهيأ للهجوم وفي صباح اليوم التالي تهيأت النجدات المؤلفة من عدد من المعدات. ورغم شهرة هولاء في القتال الا انهم لم يكونوا يتحلون بالصبر الذي اشتهر عن البدو على الرغم من تسلحهم الجيد كذلك قدم عدد كبير من تجار الابل من افراد قبيلة «عقيل» لاداء الاتاوة عن مواشيهم الى سعدون باشا. وكان احد هؤلاء التجار قد سافر الى انكلترا وفرنسا وامريكا. واذ رغب ان يبدي صداقته للجمن حين سأله عما اذا كان رحالة حيث ادهشه لجمن حين قال له «انك كذاب!»

وفي اليوم الثالث من نيسان خيموا في ظل انقاض حصن «الشقراء» (٣٣) حين غدوا في ارتباك واسع نتيجة الانذار بالحرب حتى اذا ماثبت كذب ذلك راحوا يخففون اضطرابهم بمزاولة رقصات الحرب على ضوء النيران المتألقة المنبعثة من المخيم الكبير والتي اضافت مظهراً بربريا الى المشهد. ومع ذلك فقد جلس سعدون باشا، واعطى اوامره وهو جذل بتوقع حدوث قتال كان لخادمي لجمن «زاوة» و «خضر» المزيد من هذه الامور المثيرة ذلك لان التجارب الاخيرة قد مزقت اعصابهما ولذلك اسرع الاثنان في التهيؤ للهرب الى الخميسية» ولقد راح لجمن يعالج بقسوة مخاوف قافلتهما حيث بدالهما بان احتمال الخطر كان اهون من احتمال الغضب الذي اظهره سيدهما نحوهما.

* * *

بوشر في اليوم الخامس من شهر نيسان بتعداد افراد العشائر، الذين بلغ تعدادهم مابين الفين وثلاثة الاف محارب، وقد تم استعراضهم امام سعدون باشا موفرين بذلك مشهدا فخما لرئيسهم، الذي كانت عيناه تتلألآن وهو يرى الكتائب تمر هادرة امامه. كانت لكل عشيرة رايتها الخاصة بها المنشورة، ومن ورائها يسير رجال قساة ملتحون نشروا عباءاتهم امام الريح، وراحو يلوحون ببنادقهم او سيوفهم، في الوقت الذي كانوا فيه يطلقون صيحات الحرب! واذ كان لديهم المزيد من الذخيرة فقد كانوا يطلقون النيران بوفرة من بنادقهم الايطالية من طراز

---

(٣٢) الجهرة من اهم القرى الزراعية قبلا في الكويت. تبعد ثمانية عشر ميلا عن المدينة، وكانت محطة للقوافل التي تقصد البصرة ونجد، وموقعها مرتفع يطل على البحر. وكانت قبل الاسلام مأهولة بالسكان، وعندها كانت تقع بلدة «الصبية» التي قيل بان الصابئة قد شيدوها بعد ان خربت بابل على ايدي الفرس.

(٣٣) حصن الشقراء او «الشكرة» هو نفسه قصر الشقراء الذي يقع الى الشمال الغربي من جبل صفوان على الطريق الممتد من الخميسية جنوبي «سوق الشيوخ» الى «البصية» في بادية العراق الجنوبية.

مارتيني ولذلك اضاف الهدير العميق لاطلاقاتهم تلك، شيئا من الواقعية الى تلك التمثيلية. غير ان افراد قبيلة «الضفير» الذي اقبلوا في اليوم التالي كانوا مايزالون يمثلون مشهدا اكثر جمالا وجدارة، لانهم بخليطهم المؤلف من الفرسان وراكبي الابل، كانوا يجرون خببا او قفزا. وفي ذات المساء كان هناك احد الاولاد على استعداد لان يصحب لجمن الى السماوة التي تقع على الطريق الذاهب الى بغداد. وكان مطمحه في الوصول الى الجو المدني مرة اخرى. قد جعله يفكر فيما عسى ان يفعله تجاه خادمه «خضر» ذلك النذل الذي ما ان خيل اليه انه غدا آمنا. حتى راح يضيف اهانة الى جبنه

في اليوم السابع من شهر نيسان قام لجمن بتوديع سعدون باشا يملأ فؤاده الاسف لمفارقته حيث قال في يومياته عنه «هذا الشيخ اللطيف حتى هذا التأريخ وذلك الانسان المجامل، والمحارب الغني العظيم، والعدو الشديد للاتراك، الذين هزمهم في القتال في عدة مناسبات!»

واذ تلقى لجمن تمنيات سعدون باشا له، وتزود بتعليماته له في سبيل ضمان سلامته وراحته، انطلق راكبا مع مجاميع من الرعاة الذين يسكنون ضفاف الانهار في المنطقة الممتدة بين «شواوي» و «ابي غار»[٣٤] مقر سعدون باشا نفسه، وسكنى زوجاته، والذي يقيم فيه نفسه خلال اشهر الصيف. ففي هذا المكان تناول لجمن وجبة طعام سخية، ومن ثم واصل رحلته الى خيام القبيلة التي ينتمي اليها دليله وهي عشيرة «زياد» وهم مجموعة من رعاة الاغنام يختلفون كل الاختلاف عن البلاد. ولكنهم احسن من البدو حالا وتسليحا. كما ان افراد هذه العشيرة من الاسخياء ايضا ونسائهم يمشين غير محجبات، وربما بامان لانهن لم يكن جميلات!

اصبح لجمن الآن يقترب من بغداد، وكان عليه ان يتحرك بمنتهى الحذر، لان الاتراك كانوا قد عرفوا بمغادرته مخيم ابن الرشيد، وكانوا يحاولون اقتناصه، ومعاقبته لقيامه بسفرة غير مسموح بها. ولذلك كان من الامور الحيوية بالنسبة الى لجمن ان لا يلقوا القبض عليه وهو مسافر. وان عليه ان يدخل بغداد، دون ان يعلموا به.

لقد اختار خط تقربه من بغداد بكل مهارة وحذق فراح يسلك طرقاً متعرجة بين مختلف مضارب العشائر التي تقطن ضفاف الانهار. ذلك لان اثاره قد تصبح غير معروفة الى ان اصبح قريبا من «السماوة» على نهر الفرات في اليوم الثاني عشر من شهر نيسان

كانت كل الجسور والمعابر محروسة من قبل الاتراك وذلك لاغراض كمركية في الدرجة الاولى، وتلك حقيقة تجعل من اللازم عليه ان يعبرها في مكان ما. ولقد انفق يوما كاملا يضع فيها

---

(٣٤) اخطأ المؤلف في تهجئة «ابي غار» فكتبها «ابو عقار» ABUAGAR وهو واد في منطقة اور. وعلى الطريق الذي يخرج من اور الى نجد على مسافة حوالي خمسين كيلو مترا. وهو نفس وادي «ذي قار» لان في الماء الذي ينساب في وادي «ابي غار» مقذوفات من النفط فعرف باسم «ذي قار» وهو المكان الذي وقعت فيه المعركة الخالدة بين العرب والفرس قبل الاسلام

الوسائل لعبور النهر. وفي اليوم الرابع عشر من نيسان كانت ابله قد اندفعت، دون رغبة منها، الى فرع «الشاه»[٣٥] بعد مشقة كبيرة فسبحت عابرة النهر الى جانب «شختور» كان لجمن نفسه قد استقله وعبر به ذلك الشط.

اصبح لجمن الآن في ريف تتقاطعه الكثير من قنوات الري بين النهرين. وفي احدى المرات القليلة من تجربته. قوبل بسخاء غير مرغوب فيه من لدن «صحن بن شعلان» «شيخ الخزاعل»[٣٦] والذي كان مغايرا لسعدون باشا فلم ير هناك سبباً يدعوه الى ان يحب هذا الشخص الذي اصبح تحت حمايته.

ولذلك وجد لجمن ان من الحكمة ان لايبوح بامر زيارته وسار في طريقه حتى بلغ الحمزة[٣٧] التي تقع الآن على فرع «حايل» الجاف من النهر حيث مكث مع احد السادة والذي وصفه في يومياته بانه «كذاب اعتيادي، بدين الجسم كثير المزاح، والذي دعى حوالي ثمانية عشر رجلا الى وليمة لم تكن فيها سوى دجاجة واحدة!!»

اخذ لجمن يتحرك الآن بحذر مضاعف، وقد وفر له تنكره، حماية فاخرة غير انه كان شديد الحذر من الاقدام على اية مخاطرة، وكلما كان يقترب من بغداد اكثر فاكثر، كان يتعاظم خطر اكتشافه ومن ناحية اخرى كان الْمام لجمن في سبراغوار الريف بعناية، قبل مغادرته بغداد. وخلال جولته في انحاء كربلاء والنجف قد اعطى اكله ليس لانه قد اقام في تلك المناسبة علاقات لها اعظم قيمة حسب، مع اشخاص كانوا يكرهون الاتراك كراهية اصيلة والذين غدوا الآن يرغبون رغبة شديدة في تقديم المعونة اليه.

على ان معرفته بالريف نفسه، والتي اصابها خلال رحلات الصيد التي كان يقوم بها، قد برهنت على انها لم تكن ذات قيمة. والحقيقة ان من المهم جدا ان نشير الى مدى عنايته الدقيقة التي مهد بها الاوضاع قبل مغادرته الى الجزيرة العربية، فقد استغل تلك العناية لكي يخدع بها الموظفين الذين صدرت اليهم التحذيرات بانه لابد وان يحاول الوصول الى بغداد سرا اصبح لجمن الآن في جزء من البلاد كان يبدو فيه كل فرد وكأنه في حرب مع اي فرد آخر. لقد تجنب المرور بمدينة «الديوانية» مركز ذلك الاضطراب، كما تجنب كل جماعات الناس الذين راهم حتى وصل الى

---

(٣٥) كتبه «الشان ALSHAN» والصواب هو «الشاه» وهو فرع من فروع شط الحلة.

(٣٦) الخزاعل: تتألف من عدة افخاذ تقطن المنطقة الممتدة بين السماوة والكوفة وكانت لها علاقاتها الطيبة بالانكليز اثناء الحرب العالمية الاولى. وتنقسم الخزاعل الى قسمين رئيسين هما آل سلمان وآل شلال

(٣٧) الحمزة بلدة متوسطة الحجم تبعد عن الديوانية زهاء اثنين وثلاثين كيلو مترا دفن فيها التاجر البحراني «احمد الغريفي» الذي قتله قطاع الطرق بعد ان سلبوا ما كان يحمله من اموال. وقد اقيم له قبر هناك عرف باسم قبر الحمزة واصبح من المزارات المقدسة في العراق يقصده الزوار من كل الجهات (انظر: عبدالرزاق الحسني: العراق قديما وحديثا ص ١٥٥ ط ٢)

قرية «القاسم» الصغيرة [٣٨]. وما ان بلغ الخان القائم فيها حتى وجده يعج بالجند ومع ذلك فقد امضى ليلته في بيت واحد ممن كانت له اتصالات به. تحت انظار الاتراك تماما

وعلى حين غرة «وعن طريق حماقة خادمه «خضر» وبلادته، كاد امر لجمن ان يكتشف تقريبا حين وجه سؤال محرج الى خضر من لدن احد «السادة» من كربلاء. ومن المحتمل ان يكون ذلك السيد قد رأى لجمن خلال زياراته لمدينة كربلاء غير انه اخفق في تمييزه. وان كان لجمن قد مكث مدة ليلة في مخيم «المعاوية» حين حل هناك بعد ان تجنب مدينة الحلة.

وعن طريق حماقة خادمه اضطر لجمن لأن يعترف بانه مسيحي الامر الذي اثار موجة احتجاج شديدةمن الضيوف الشيعة في الموقع، اولئك الذين كانوا يجهلون تلك الحقيقة. والذين شربوا القهوة من ذات القدح الذي شرب لجمن منه. ولقد استبدت به واحدة من حالات الانفعال الشديد التي تركت فيه تأثيرا مدمرا. ولذلك نهض قائما على قدميه. ووبخ الذين اعترضوا عليه بقسوة لانعدام المجاملة لديهم حيث قال عنهم ان «مجابهتهم كانت من نوع لم يجابه به قبلا قط. وانها تضعهم في اوطأ مستوى!»

«لم يستطع ان يمكث طويلا مع تلك الجماعة التي تضم امثال هؤلاء المنحطين» ولذلك بادر بمغادرة المضيف، لكي يستفيد مما اطلقه لسانه من شتائم ويهرب. غير ان السادة سألوه ان يسامحهم، وتوسلوا اليه بان يمكث. واستجابة لالحاحهم فقد قبل بان يمكث معهم لكنه اصر على ان يتناول طعامه على انفراد!

امضى لجمن الليلة التالية على مقربة من الطريق الممتد بين الحلة وبغداد مع جماعة من «الدليم» في «مجلس اشبه بوجار الكلاب!». ولقد دخل الى هذا المجلس. اثناء الليل. اثنان من رجال الجندرمة الاتراك. غير انهما اخفقا في اكتشاف تنكره. لقد اصبح الآن على ابواب بغداد في الغالب ولذلك قام بدائرة واسعة في مسيرة تجنب بها مدينة «المحمودية» فاجتاز الطريق المرتفع شمالي «خان المفتش» ثم انحدر متخفياً، اثناء النهار، بين بعض الاعراب خارج جسر الخر. حتى اذا ماالقى الليل سدوله راح اذ ذاك يختلط مع الازدحام. حيث دخل بغداد في الساعة السابعة مساء

اسرع في طريقه الى المقيمية البريطانية بعد فترة قصيرة، ولذلك حاول حارس المقيمة الذي استبد به الفزع، ان يمنع ذلك البدوي ذي الاسمال البالية من الدخول. ولقد تلقفه موظفو المقيمية اول الامر بالشتائم والسباب، وحاولوا اخراجه من الدار. ولكن بعد وقت قصير كان ذلك البدوي الذي يرتدي الملابس القذرة يتناول طعام العشاء مع فخامة المقيم!!

---

(٣٨) انشأ لجمن منذ مجيئه الى العراق اول مرة. علاقات جيدة ومتينة مع عشيرة «بني حسن» في الديوانية وقد افادته تلك العلاقات حين القى الاتراك القبض عليه واحتجزوه ولكن «بني حسن» انقذوه من ذلك الاحتجاز وقد ذكر هذه الرواية صاحب «تأريخ الديوانية» وداي العطية كما تطرقت اليها مجلة «الاسرار» اللبنانية التي صدرت في سنة ١٩٣٨.

بعد يومين من ذلك كتب لجمن من بغداد في اليوم الثالث والعشرين من نيسان ينبئ قومه. بالوصف الموجز التالي لمغامراته ويقول «لقد حفظت نيتي سراً ميتاً في فؤادي. ووضعت الخطة للخروج من بغداد الى كربلاء. وهي مدينة تبعد ستين ميلا. وتقع عند حافة الصحراء لقد رتبت مع بعض اصدقائي من العرب ان احصل على ابل تنتظرني خارج المدينة. ولكن حين حاولت ان اذهب الى تلك الابل. وجدت بان الشرطة كانت تتعقبني

ولقد تفاديت الالتقاء برجال الشرطة بان دخلت احد بساتين النخيل من احد الابواب. وفي الوقت الذي كان فيه افراد الشرطة ينتظرون عند احد الابواب كنت قد خرجت من باب خلفية ومضيت سافرت باتجاه الجنوب الغربي مع قبيلة بدوية طيلة ثلاثة اسابيع. حين تمت مهاجمتنا وتم اسر الكل على يد قبيلة اخرى. غير ان القبيلة الجديدة منحتني الحماية. لكن هذه القبيلة. بعد اربعة ايام، وفي قتال واسع، نهبت وغلبت من لدن القبيلة الاخرى.

لقد فقدت معظم حوائجي في هذا الوقت. لكنني خططت لان اخرج مع ثلاثة من الابل وان اصل الى امير حائل الذي سوف تجدون موقعه فيما بعد على الخارطة.

لقد عاملني الامير معاملة جد حسنة، غير انه رفض ان يدعني اسافر. حيث امضيت شهرا كاملا معه نتجول، وفي النهاية تهيأت لأن اجعله يسمح لي بالذهاب. غير انه لم يبعث بي الا للبلاد المأهولة.

هبطت الى مقربة من الكويت على رأس الخليج العربي. وقد اتخذت سبيلي عبر العشائر التي تقطن ضفاف نهر الفرات، ومن ثم حططت رحالي، انا وابلي سالمين، في بغداد قبل يومين. لقد كان لدي وقت حسن جدا في هذه الرحلة، وان كانت بالاحرى قد كبحت جماحي لان هؤلاء الناس يشتهرون بانهم من اشد المسلمين تطرفا في العالم. لقد كانوا يعاملونني جميعا معاملة حسنة اطلاقاً، ومع ذلك فقد اعلنت عن نفسي بانني مسيحي.

اصطحبت معي تموينا واسعاً من الادوية، واستخدمتها كثيرا، الامر الذي ساعدني نوعا ما. انني لم اقتل احدا منهم بادويتي. لقد شاهدت قدراً من القتال، وكان علي ان اعالج الكثير من الجراح. اما الاتراك فانهم بطريقتهم المفرحة قد تضايقوا لدى علمهم بانني قد ذهبت ولذلك نشروا في صحافتهم القذرة مقالات تتحدث عن كل انواع الامور المرعبة التي حدثت لي. ومايزالون يستخدمون هذه الامور، التي اثارت الفزع كثيرا لدى اصدقائي في بغداد.

انها بلاد محبوبة جدا، اذا ما احب احد الصحراء! وان العربي شخص بهيج نقي من كل الشوائب بصفة عملية. لقد كان الجو يعتبر من افضل الاجواء للسفر، وان كانت الحرارة قد اشتدت فيه نوعا ما في الاخير ولاسيما بالنسبة الى رأسي لانني كنت ارتدي ملابس اشبه بواحد من العرب.

في الليلة التي وصلت فيها الى بغداد، ذهبت الى المقيمية لكن الحرس رفضوا هم والموظفون ان يسمحوا لي بالدخول اليها، وان كانوا قبلا يعرفونني معرفة جيدة. ولذلك ينبغي علي ان اكون من العرب المسموح لهم بالمرور. انني الآن ابدو اسود الوجه جدا تقريبا، لانه كان من العسير علي ان اغتسل طيلة ثلاثة اشهر، وذلك لان الماء ثمين جدا ولا يسمح باضاعته

كل رسائلي كنت قد بعثت بها الى الكويت لسبب ما، ولذلك فانني لست اعلم بما حدث ماخلا الرسالتين اللتين وصلتا الي هنا في اخر بريد، والتي علمت منهما بان ابي كان مريضا. غير انني لم اعرف الامر الذي الم به. انني آمل ان يكون قد تعافى اوفى طريقه الى الشفاء.

انني مشدود الآن الى احد الكراسي، نتيجة استعمالي حذاءاً. بعد ان كنت اسير حافي القدمين لمثل تلك المدة الطويلة. لقد قالوا لي بان الحذاء قد انكأ الجروح والكدمات القديمة. وسمم قدمي واصابني بالحمى ولذلك كان علي ان اتخلص من هذا الحذاء صراحة.

لست اقيم الآن في المقيمية، بعد ان فصلت نفسي عن الحكومة البريطانية في نظر الاتراك. اعتقد انني يجب ان اعود الى الحياة المدنية لكي اكتشف بانني كنت في رتبة نقيب، غير ان الامر لا يبدو عليه بانه سوف يكون على هذه الصفة! انني افكر حقا بان علي ان اتخلى عن حرفة السلاح لبعض الوقت وان اصبح من اصحاب الخدمة الدبلوماسية في هذه البلاد.

انني اعتقد ان في مستطاعي ان احصل على وظيفة قنصلية بكل يسر في «ارمينيا» واذ ذاك سوف تتوفر لدي هناك فرصة اكثر لغرض التقدم. علي ان انتظر هنا وصول رسائلي لمدة قد تقرب من اسبوعين واذ ذاك يغدو مستطاعا لأن اذهب شمالا، وحولها الى سوريا. وان اتصل بالارض المقدسة [٣٩]

انني اتذكر جيدا كيف ان ابي سوف يلومني شديدا لانني لم ازر بابل. وبيت المقدس حين مكثت في هذه الانحاء. لقد قمت بزيارة بابل، وينبغي لي الآن ان اقوم بزيارة بيت المقدس وان ازيل هذه اللطخة عن شهرتي. اذا اردتم ان تبعثوا برسائلكم الي بعنوان المقيمية البريطانية في بغداد عن طريق اسطنبول فلسوف ارتب امر ارسالها الى هذا العنوان انها قد تصل الى هنا في غضون شهر واحد عن هذه الطريق اعتقد ان البريد يغادر لندن في يوم محدد من الاسبوع. الامر الذي تستطيعون ان تعرفوه.

لا تحاولوا ان تبعثوا باي شي ذي قيمة بهذه الطريقة! ان المكان الذي اقيم فيه الآن جميل جدا. لان النخيل شديدة الخضرة، وان النهر فائض، وهناك مقدار من الزهور. ارفق طبعاً صورتي الجميلة وانا في بدلة عربية، كانت قد التقطت لي حين وصلت عائدا. الستم تظنون بانني اكثر شبها في هذه الصورة باهل الكتاب؟.

---

(٣٩) يقصد بها فلسطين. ومع ذلك فان الانكليز من اصل متشدد يعتبرون «بابل» ارضاً مقدسة لانها كانت مقر السبي و يعمدون دائما على زيارتها مثل زيارة القدس وغيرها من الاماكن المسيحية الاخرى.

يسوؤني ان يكون «الاحرار» قد عادوا الى الحكم مرة اخرى يبدو ان الامور في انكلترا تسير في طريق سيء!

انني اقيم الآن في دار جميلة على شاطئ النهر، مع فريق منتخب من العزاب. ولدينا تيار لا ينقطع من كل جنسية ونادراما نجلس الى العشاء من دون اقل من اربعة افراد يمثلون بلدانا مختلفة لقد غدوت الآن اكثر طلاقة في التكلم باللغة العربية، ولم اكن اعرف منها شيئا قبل ثلاثة اشهر!

«الفصل الخامس»

رحلة خاطفة الى شمالي العراق وبحيرة وان وسوريا

بعد المصاعب الشاقةالتي عاناها لجمن، خلال الاشهر الثلاثة الماضية. كان لابد له من ان يجد عذرا للاخلاد الى الراحة والاكتفاء بامجاده، وان يعود الى الهند باقصر طريق مباشر. ومع ذلك فقد صمم على ان يعود الى ذلك البلد بطريق دائري بشكل مثير للدهشة، والذي يشتمل على قطع مسافة الف وثلثمائة ميل راكباً.

لقد اوضح في رسالته الى امه بانه ينوي ان يذهب الى الموصل، والى اطراف سوريا. وحتى هذا النبأ لم يكشف عن هدفه الحقيقي، والذي كان يريد به ان يضرب في الارض باتجاه الشمال الشرقي بعد ان يبلغ الموصل، كما يقوم بجولة واسعة خلال قلب كردستان.

في الوقت الذي قام فيه لجمن بهذه الرحلة الشهيرة، لم يكن القطر الذي اخترقه، معروفا الا بقدر ضئيل. فما زالت هذه البلاد حتى الآن[1] غير مأهولة، ومحظور دخولها، وسكانها في اضطراب وتفاقم عداء وشدة، في الوفاق مع الناس المحيطين بهم. لقدكانت تؤلف مركز العاصفة في الشرق الاوسط.

انها بلاد تجتاحها المنافسات الجارية بين مختلف القوميات، من الاكراد، والاتراك، والارمن، والفرس.

وكان يجري تأجير اراضيها طيلة قرون من قبل الاقطاعيين، وقد تحولت الى مأساة بسبب اعمال الثأر التي لاتنقطع. واكثر من ذلك فان هذه البلاد بجملتها لم تكن معروفة، الا قليلا، بالنسبة الى الاوربيين. صحيح ان مدنها الرئيسة، تتألق اعلامها البيض، والمؤلفة بصفة رئيسة من رايات الممثلين القنصليين، واعضاء مختلف الجمعيات التبشيرية. غير ان معرفة هؤلاء بالبلاد، كانت محلية بصفة اكثر من الالمام والاهتمام الذي كان يتركز في الدرجة الاولى في واجبات تلك المؤسسات.

انها بلاد تثير الاهتمام، والتي كان يصعب فيها الحصول على معلومات يعتمد عليها، وكانت الهيئات البريطانية تثمن، بدرجة عالية، اية معلومات يمكن الركون اليها مما تستطيع الحصول عليه. ونتيجة لذلك فان رحلة لجمن تلك سوف تكون لها قيمتها بالنسبة الى بلاده، والى تقريره الذي سوف يضيف بعض الشيء، الى تلك التقارير التي جمعها ببالغ الصبر والانتظام، اولئك الرجال المسؤولون عن سلامة احدى الامبراطوريات.

---

(١) بالنسبة الى تاريخ صدور هذا الكتاب في سنة ١٩٣٦ والمقصود بكلمة «البلاد» كردستان او القسم الشمالي من العراق

ولقد سكت لجمن عن الاشارة الى هذا المظهر من رحلته، الى درجة ان يومياته كانت نموذجا للاحتراز والحذر. واذ كان متكتما بطبيعته فان الاحوال قد اجبرته على ان يكون اكثر تحفظا.

ومع ذلك فانه لم يغلف نفسه برداء السر الذي يثير الانتباه اليه. لقد كانت كل الرحلات التي قام لجمن بها، تنطوي على اغراض، ولم تكن محض جولات خالية من الاهداف.

وما ان احس بانه «مرهف نوعا ما!» من امسياته الاجتماعية حتى بدأ في اليوم العاشر من شهر ايار سنة ١٩١٠ بتلك المسيرة الهائلة يصحبه برذونان، وسائس خيل، واثنان من رجال الجندرمة الاتراك. كان لابد له ان يبتسم لوجود العسكريين التركيين معه. فقبل ثلاثة اشهر ليس الا، استخدم الاتراك رجال الجندرمة في محاولة ليحولوا دون مباشرته برحلته الصحراوية، فاستطاع ان يخدعهم ويمضي. اما الان فانهم يصحبونه بتيقظ في طريقه الى الموصل، ثقة منهم بان مثل هذه المجاملة سوف تمنع هذا الشاب المراوغ جدا من الاختفاء مرة اخرى بذات الطريقة المحيرة التي اختفى بها اول مرة.

كان غذاؤه الرئيس يتألف من الخبز والمشمش. انه لامر غريب، كيف استطاع على حين غرة ان يعيش على مثل هذا الغذاء الضعيف غير المشتهى، وهو الذي كان يحب الطعام الجيد، ويتذمر اذا لم يكن اعداده يفي بذوقه الذي يصعب ارضاؤه.

في اليوم الاول من شهر حزيران احتاز لجمن خلال الريف الشهير والمخيف الذي يقطنه «الهماوند»[2] من «جبل حمرين» ونام في بيت مدير ناحية «قره‌تبه» التي تقع على مسافة ثمانين ميلا الى الشمال الشرقي من بغداد. ويذكر لنا لجمن ان لدى هذا الموظف فتى جميل جدا في الرابعة عشرة من عمره انه جميل حقا!

وفي العراق قبل عشر سنوات برهن الهماوند على انهم كانوا مخلصين وثابتين على ولائهم للبريطانيين على الرغم من المحاولات التي اجريت لتحطيم ذلك الولاء

كانت قرية «قره‌تبه» ذاتها صغيرة، غير انها ارغمت على ان تكون مأوى لحامية تركية كبيرة اقامها الاتراك هناك لابقاء هذه العناصر المتمردة مسالمة، و لمرافقة نقلة البريد خلال الغابات والاجمات التي يبتهج هؤلاء الناس الساخطون باعدادها في ذلك الريف الموحش الذي يؤلف موطنهم.

---

(٢) الهماوند: يعتبر الهماوند من عشائر الجاف. ويقال ان اصل الاسم هو «احمدوند» وهم على شدتهم وقسوتهم، وممارسة اعمال السلب سابقا متمسكون بتأدية الفرائض الاسلامية من صوم وصلاة ويقع موطنهم حوالي جمجمال وبازيان وقد اشتهروا بالشجاعة والبسالة رغم قلتهم بالنظر الى العشائر الاخرى، ولغتهم هي لغة عشائر الجاف، وهم ينقسمون الى عدة فروع، منهم «رشه‌ون» و «رمه‌ون» و «سينه‌لير» و«بكزادة» وغيرهم (ملخصة عن عباس العزاوي: عشائر العراق ج ٢ص ٧٧، ٧٨)

فلا عجب اذا ماوجدنا لجمن فيما بعد، ينبئنا بان وصول البريد يؤلف الموضوع الرئيسي للحديث مع كل انسان كان يلتقي معه فكان وصول البريد سالما في احدى المرات يعود الى الاتراك الذين ينقلونه، اما عدم وصوله فانه يعود، في عشر مرات، الى رجال العشائر الذين لايفتأون ان يوجهوا ملاحظات قارصة الى لجمن لبقائه اعزب طيلة هذه المدة!.

ولقد كان لجمن الذي يحب الرجال الذين هم رجال، يعجب بهؤلاء الذين يتسلقون الجبال من دون احذية، فيقول عنهم «انهم مجموعة لطيفة من المتوحشين، هؤلاء الاكراد، اعظم روعة!». وفي اليوم الثاني بلغ «كفري» حيث وجد الخان فيها قذرا بصفة لامجال الى وصفها. اما في «طاووق» فقد شاهد «اجمل فتاة اعتقد انني قد شاهدتها!»

وفي اليوم الخامس من حزيران وصل الى مدينة كركوك المهمة، التي تبعد مائة وثمانين ميلا عن بغداد. كان متصرف المدينة «شابا تركيا سجن لمدة سبع سنوات بسبب آرائه السياسية التي كان يعبر عنها بحرية مطلقة، اثناء الحكم القديم، اما الان فانه وان كان مايزال يافعا في سنه، الا انه كوفيء على وطنيته بان عين متصرفاً». ولقد استقبل الرجل، لجمن بطريقة مفرحة تماما، وراح يتحدث اليه صراحة عن تجاربه الماضية

وفي اليوم السادس من حزيران عبر لجمن «الزاب الصغير في بلدة «التون كوبري»[٣] ومن ثم وصل «اربيل» في اليوم السابع منه. ومع ان الخان فيها كان جديدًا، الا انه كان يموج بجيش من البراغيث التي اقضت مضجعه اثناء الليل، في حين افسد هدوء النهار باستقصاءات السكان المتعمدة عن حركاته السياسية، والخلقية، ولذلك كان مسرورا لان يتخلص من هذا المصدر المزدوج للمضايقة في اليوم التالي.

لقد وجد مسرة غير متوقعة عند مغادرته، لانه ما ان عبر «الزاب الكبير» حتى وجد في انتظاره على الضفة الاخرى للنهر، احد المحاربين القدامى ممن شهد حصار «بلونا»[٤] والذي كان بدنه يحمل ثلاثة جراح، شاهدة على تلك الحقيقة.

لقد اصبح اسم لجمن معروفا حتى في هذه المناطق الموحشة. وكما يحصل في الشرق، فان انباء قدومه كانت تسبقه، وان ذلك المحارب التركي المسن ليس في مستطاعه ان يضيع فرصة الالتقاء بهذا العسكري البريطاني الشاب الذي كانت مغامرته قد حركت اوتار الصداقة في قلب ذلك الرجل المسن

(٣) التون كوبري اي قنطرة الذهب القائمة على الزاب الصغير في منتصف الطريق بين كركوك واربيل وكانت تعرف لدى اصحاب الاكلاك من تكريت والدور باسم القنطرة وكان الزاب الصغير نفسه يسمى بنهر الذهب كما ذكر المؤرخ عباس العزاوي في رحلة المنشيء البغدادي ص ٧٥ طبعة ١٩٤٨ وقد بناها السلطان العثماني مراد الرابع

(٤) حصار بلونا PLEVNA حدث هذا الحصار اثناء حرب البلقان وكانت «بلونا» اشهر حصن حاصرته القوات الاوربية والانكليزية وقد ابى قائد الحصن التركي وبقية ضباطه وجنوده ان يسلموا فابيدوا عن بكرة ابيهم وغدت مضرب الامثال في التضحية وعدم الاستسلام. وكان القائد العثماني للحصن هو عثمان باشا.

في اليوم التالي بلغ لجمن مدينة الموصل وبذلك تكون المرحلة الاولى من رحلته قد كملت. في ذلك الوقت كانت الموصل مدينة تضم اربعين الفا من السكان كان تسعة اعشارهم من المسلمين، الكرد والعرب. وكالعادة فقد استقبل لجمن من قبل المتصرف، وكان في هذه الحالة هو «محمد باشا الداغستاني» الشهير[٥] الذي سبق له ان رآه كثيرا

اظهر لجمن حبا عميقا لهذا الرجل، الذي وصفه بانه «رجل نبيل من كل الجهات، ومن الصيادين الماهرين باستعمال البندقية!». كان محمد باشا الداغستاني آنذاك في حدود الستين من عمره، ولم يكن قد عرف الخوف اطلاقا، وكان ذا قوة هائلة ايام شبابه.

ولقد اعتاد ان يحتفظ بالاسود في سطح منزله، ويسمع للزوار بالتفرج عليها،[٦] ويقص عليهم كيف انه حدث في احدى المناسبات ان سحبت الاسود طفلا صغيرا عبر قضبان القفص الذي توجد فيه. وما ان انبئ محمد باشا على عجل بما حدث، حتى وجد احد الاسود يتجول داخل القفص والطفل مازال سالما بين فكيه.

دخل محمد باشا القفص من دون تردد، وانبطح على ظهر الاسد ثم امسك بعنقه بيديه القويتين، الى ان اطلق الاسد الطفل. حتى اذا مااصبح الطفل سالما دفع محمد باشا به، اي الطفل الى باب القفص، فمرق منه بكل هدوء في امان.

مكث لجمن في الموصل ثمانية ايام. ولم تضع ايامه سدى، فقد اتصل بكل شخص مهم في المدينة، واصاب معرفة طيبة بالمدينة ذاتها. ولقد خزنت هذه المعرفة بعناية في ذهنه، وقد برهنت فيما بعد على قيمتها العظمى له وللبريطانيين خلال ثماني سنوات.

وفي اليوم السابع عشر من حزيران اتخذ لجمن طريقه مرة اخرى، فاعاد عبور نهر الزاب الكبير على رمث يتحرك بالجربان. وفي نقطة اعلى من النقطة التي عبر بها النهر في المرة الاولى، فامضى ليلة ثانية في «دربند»[٧] الكردية. هنا كاد لجمن ان يواجه بعض المتاعب، وقد اصبح السكان اكثر اثارة، «بل كانوا بالاحرى غير مريحين، لان الحمق من رجال الضبطية قد اخذونا الى المسجد!»

غير ان الهدوء الذي اتسم به لجمن قد خفف من مشاعرهم المتوترة، واذ ذاك تحولوا الى

---

(٥) الاسم الصحيح هو محمد فاضل باشا الداغستاني الذي مرت الاشارة اليه في فصل سابق من هذا الكتاب

(٦) الصواب ان محمد فاضل انشأ في داره مايشبه حديقة حيوانات وكانت الاسود من بين ماوجد فيها وكانت داره قائمة في بغداد قبالة وزارة الدفاع وقد ادخلت في المكتبة الوطنية ١٩٧٧

(٧) دربند المقصود به دربندي بازيان وكان اسمه القديم (بابيتا) وقد اجتازه الملك الاشوري اشور ناصر بال الثاني في احدى غزواته ويقع المضيق في جبل ارتفاعه ثلاثة الاف قدم. وفي منطقة بازيان كانت (داري كلى). بالكاف المعجمة مقر الشيخ محمود الحفيد.

اصدقاء جيدين، حيث تغلب على تطرفهم بتحمله الشديد، وبمسلكه الهادىء. ولم تكن هذه هي المصادفة الاولى التي برهن فيها على تقديره الذكي للموقف الذي ينبغي له اتخاذه.

وما ان غادر لجمن «دربند» حتى ضل طريقه في غمرة متاهة من التلال والجداول. لكنه استطاع في النهاية ان يمسك بطريق اربيل- راوندوز عند قرية «بلال زقيق»[8]، حيث تدفع الحشرات السكان، كل صيف، الى ان يهجروا بيوتهم، وليسكنوا في اكواخ من القش. وذلك هو الامر الذي انبأنا عنه بانه يسود كل القرى في ذلك الجزء من البلاد. غير ان الناس كانوا اثرياء، ولديهم قطعان كثيرة من الاغنام والابقار، وقد باركهم الله بنساء جميلات جدا!

وفي اليوم التالي اضاع لجمن طريقه مرة اخرى، الامر الذي سبب المه وانزعاجه. «وبعد تجوال في طرق مخيفة علي قمم الجبال» اعاد اكتشاف الطريق واجتاز «خلال مضيق بغيض يتخلله احد الانهار». ولم يكن في وضع يسمح له بان يبدي اعجابه بمضيق راوندوز الفخم، الذي يعد واحدا من اهم المظاهر المثيرة والمخيفة لجبال كردستان.

وعند منتصف يوم صيف وصل لجمن الى راوندوز ذاتها، وهي مدينة صغيرة على ارتفاع الف وسبعمائة قدم فوق مستوى البحر، وتنقسم الى قسمين وصفها لجمن بانها نموذج للجنة وللنار. فعلى ارض مرتفعة تنتشر الحدائق الجميلة المتخمة بانواع كثيرة من اشجار الفاكهة، والتي تؤلف ملجأ تهب منه النسائم الباردة الممتزجة برائحة الازهار والشجيرات. وفي الادنى تقوم مجاميع من حوانيت تافهة تربط بينها ازقة مظلمة سيئة الرائحة، مفروشة بروث الحيوانات، ويحتشد فيها الذباب. !

من راوندوز عبر لجمن خلال اراض متنازع عليها تمتد على امتداد الحدود التركية الفارسية، وقد تم تحديدها موقتا من لدن لجنة حدود دولية كانت تضم احد البريطانيين هو العقيد الذي صار (اخيرا) «السر ارنولد ولسن» الذي كان لجمن قد التقي به مؤخرا في المحمرة

كانت المنطقة التي سافر فيها لجمن خلال الاسبوع التالي، تعرض مفارقة شديدة للجبال الكردية الجرداء غير المأهولة. فهو الان يرى سهولا واسعة تنتشر فيها القرى والقلاع، وكل انواع الشجر. فالوديان الفخمة خصبة وقد غدت تبتسم بخليط من السيول المنحدرة من الجبال، التي تعشعش في ظل اشجار الحور السامقة، واشجار اللوز الباردة الى ان بلغ «بسوا» و «العلم التركي» المرفرف والذي اصبح الان تماما داخل الحدود الايرانية

كانت هذه الحدود وقت زيارة لجمن لها قد استولى عليها الاتراك مؤخرا، وكذلك كانت على

---

(٨) هكذا كتبها المؤلف BALAALZAQIQ ولم تستطع الوقوف على الاسم الصحيح لها وان كان بعض الجغرافيين المحدثين يزعم ان الاسم هو باب الزقازيق لكننا لانعتقد بصحة هذه التسمية لان الاكراد لم يألفوها.

هذه الحال منطقة «ناغدراه والقرى التابعة لها والبالغ تعدادها مائة وخمس عشرة قرية التي تقع في سهل «سالديز» بكامله تماما.

كان حاكم الموقع الاخير في خدمة الفرس مؤخرا، غير انه تنكر الان في صفة باشا تركي له سلطة تعززها مفرزة تتألف من مئتي رجل من الكتيبة الموجودة في «بسوا». وفي اليوم السادس والعشرين من الشهر وصل لجمن الى «شيون» وهو موقع واسع، ورخي، نصفه مخفي تحت اشجاره من الحور والفاكهة، وفيه سوق لم يجد لجمن فيها ايامن المصنوعات الانكليزية. لقد اصبح الان في ولاية «وان»[9]. وقد استمتع كالعادة بوجبة عشاء فاخرة قدمها القائمقام والتي اظهر فيها مضيفه واحد اصدقائه تسامحهم ازاء الشعائر الاسلامية بان افرغا في جوفيهما كميات كبيرة من «البراندي». وقد اعقبت وجبة الطعام والشراب، بحفلة موسيقية، ومشهد للرقص مثله احد الشباب «الذي ارتدى ملابس فتاة فأخطأ هذا التمثيل نوعاما!».

اوصلت لجمن مسيرة استمرت سبع ساعات في اليوم الثامن والعشرين من الشهر الى سهل «أورميا»[10] الجميل المخضر. ويعطينا لجمن الوصف الموجز التالي لمدينة اورميا كما كانت عليه وقت زيارته فيقول «تقوم مدينة اورميا المسورة بسكانها البالغ عددهم زهاء عشرين الف نسمة على ارتفاع اربعة الاف واربعمائة قدم فوق مستوى البحر، وهي مدينة فارسية اصلا ولكنها تخضع بشدة للنفوذ الروسي، وحكومة القيصر ممثلة في المدينة بقنصل له حرس يتألف من اربعين رجلا. وكذلك فان تحت تصرف القنصل الروسي ايضا دائرة برق خاصة، في حين ان تركيا ممثلة هناك بـ «شهبندر» او وكيل دبلوماسي، له حرس مماثل»[11] «والمكان مليء ببعثات التبشير الاجنبية، بما في ذلك بعثة ابرشية «كنتربري» مرسلة الى النساطرة، وبعثة الكنيسة الامريكية، التي تمتلك لها كلية على بعد ميلين خارج المدينة. وهناك حي خاص بالمسيحيين. والاسواق التي تغمرها اشعة الشمس فخمة ونظيفة جدا وفيها حوانيت وخانات فاخرة. ويمر الطريق بين المدينة الى بحيرة «اورميا» عبر اميال من البساتين الجميلة الى ان ان يبلغ البحيرة عند «جرماخانة». اما البحيرة ذاتها فانها جميلة جدا، وماؤها شديد الملوحة!»

امضى لجمن اسبوعا كاملا في المدينة كي يرتاح من مسيرته التي بلغت مائتين وتسعة وسبعين ميلا من الموصل الى هناك. ولقد مر الوقت بمزيد من المسرة، ان لم يكن بطيئا. ولقد اتصل هناك

---

(٩) ولاية (وان) تقع شرقي تركيا تحدها التخوم الايرانية من الشرق، ونهر الفرات من الغرب وتقع مدينة (وان) في سلسلة من التلال على الشاطىء الشرقي لبحيرة وان ذاتها

(١٠) اورميا: بحيرة تقع في شمالي ايران وطولها من الشمال الى الجنوب ثمانين ميلا وعرضها ثلث تلك المسافة ويذكر ان زرادشت كان مسقط رأسه على شواطىء بحيرة اورميا

(١١) شهبندر: تعني رئيس التجار باللغتين الفارسية والتركية

بكل فرد له اهميته من بين كل القوميات، حيث كان الجميع يعاملونه بكرم، ولم يهمل حتى الافراد الوضيعين من المجتمع، والذين كان يحصل منهم على مجموعة من المعلومات النافعة والمهمة. ولقد اكسبه ظرفه صداقات استمرت حتى وفاته، وكان يعامل بمنتهى المجاملة من لدن كل من اتصل به.

ولقد جنت انكلترا، بعد سنوات قليلة، فائدة العمل الذي قام به لجمن وغيره من الرجال العظام الاخرين. فقد كان كل من هؤلاء الرحالين يعتبرون نماذج لامتهم برمتها. وكانت مسؤولية امثال هؤلاء الرجال عظيمة».

كان مكوث لجمن في اورميا قد حصل في وقت لم تقع فيه احداث. فلم يكن قد خرج في سبيل مغامرات، وانما كان يريد ان يمر بهدوء في سبيله، يراقب، ويخزن في ذهنه المعرفة التي كان يحصل عليها. غير ان ذلك قد منحه الراحة التي كان في امس الحاجة اليها، بعد جولاته المتواصلة. ان امامه رحلة طويلة ينبغي له ان يقوم بها، وليس لديه سوى وقت محدد لكي يتمها، ولذلك فانه لم يتأخر طويلا

وفي السادس من شهر تموز غادر لجمن ولاية «وان» التي كانت على مسافة مائة وثمانية وسبعين ميلا باتجاه الشمال الشرقي. وفي اليوم السابع من تموز اجتاز ماتعرف اليوم بحدود تركيا، الى قرية «ماربيشو» المحبوبة لديه التي شيدت، بسبب دفئها في جوانب احد المضايق شق بصفة شديدة الانحدار عبر تلال هائلة.

كان معظم السكان من المسيحيين، ولقد كان يحصل لاؤلئك السكان المسيحيين دوما، في تلك الامسية التي وصل لجمن فيها، ان اقيمت وليمة كبرى لعدد من الاكراد كانوا قد وصلوا «القرية بصفة طفيلية بكل جلاء»

واذ انزعج من البراغيث اثناء الليل، ومن الزحار الذي اصيب به اثناء الليل والنهار معا، والعقبة التي جابهته نتيجة براذينه العرجاء، فانه راح يضغط بقوة على نفسه وحيواناته، فاجتاز «دزا»[١٢] في سهل «غوار» الذي تقوم فيه جبال «جيهو»[١٣] الجميلة التي تحده من ناحية الغرب. وعن طريق «بشقالا»[١٤] و «خوشاب»[١٥] بقلعتها القديمة التي «تنتصب فوق صخرة هائلة وسط القرية»، حيث جوبه هناك لاول مرة بفظاظة ومشقة الى ان صعد، فجأة في اليوم العاشر

---

(١٢) دزا منطقة تعرف باسم «دراغة قوي» مركزها يوكسمكوفا وهو قضاء تابع الى لواء حكاري

(١٣) سلسلة جبال جيلو التي كانت موطن الاثوريين قبل نزوحهم الى العراق

(١٤) بشقالا مركز قضاء بين وان وحكاري

(١٥) خوشاب ناحية بين بشقالاو وان لها قلعة وسور شهير

من تموز، قمة تل يبرز امامه منظر بحيرة «وان» الواسعة، التي كانت قمة شلالها المعروف باسم «سباه داغ» مكللة بالثلوج

من بحيرة «وان» وجد لجمن له فرصة لكي يبعث برسالة الى اهله في الوطن، وقد كانت رسالته تحمل عنوان «بعثة تبشير انكليزية: بحيرة «وان» في السادس عشر من تموز ١٩١٠ وقد قال فيها «لقد امضيت اسبوعا مفرحا في «اورميا» في اعالي الاراضي الفارسية، ولقد اسفت تماما لمغادرتها. لقد اعتاد الامريكيون الموجودون هناك ان ياخذونني في جولات كل يوم، وبذلك شاهدت قدرا حسنا من البلاد وسكانها.

لقد وصلت الى هذا المكان عبر الجبال خلال سبعة ايام. كان الطريق مخيفا جدا لكن مناظره كانت فخمة. لقد مكثت في قرى كان سكانها من المسيحيين النساطرة وهم يتحدثون بالسريانية القديمة. انهم جيدون نوعا ما واسخياء جدا، غير انهم مضطهدين اشد الاضطهاد من قبل الاكراد الذين كانوا يفدون الى القرى ويسكنون فيها عدة ايام، ومن ثم يحملون معهم السلع، والماشية، والفتيات.

اقبل قسم من هؤلاء الاكراد الى احدى القرى التي كنت اقيم فيها في احدى الليالي. لقد كانوا يؤلفون قسما جيدا، بصفة استثنائية، من الفطريين، لكنهم كانوا جد لطيفين معي. لقد لمست الثلوج عدة مرات وهي تقبل خلال القرى، وشعرت بالبرد الشديد تماما، وان لم يكن ارتفاع الاماكن اكثر من تسعة آلاف قدم. لقد وصلت الى هذا الموقع قبل يومين، وعلى الفور تحققت من صحة المثل العربي القائل «ان «وان» في هذا العالم، والفردوس في العالم الثاني!»[١٦]

تقع المدينة على احدى نهايات واحدة من البحيرات التي تمتد ثمانين ميلا، وهي مسورة، وفي وسطها صخرة ترتفع الى اربعمائة قدم من المدينة، ويقوم حصن مدهش على قمة تلك الصخرة. وعلى بعد ميلين خارج المدينة، يقوم مايعرف باسم «مدينة الحدائق» حيث يعيش افضل الناس وسط الاشجار والبساتين الجميلة، وتمتد هذه بضعة اميال ويقع عبر البحيرة بركان قديم يدعى «سفران داغ» قمته مكللة بالثلج وعلى كل حافاته تقوم جبال سود، مصاقبة له تماما.

لقد وجدت الضابط القنصل، ولم يكن يعيش في «وان» وانما مع اثنين اخرين من الانكليز هنا. لقد كان خارج موقع «ارتميد» على بعد حوالي ثمانية اميال من «وان»، في مخيم عند حافة البحيرة. لقد خرجت الى «ارتميد» حيث ا امكث فيها الآن. يقوم المخيم في غابة على بعد عشرة اقدام من البحيرة، وما خلا الاستحمام، فان المرء لايعمل شيئا ماسوى ان يجلس ويتكاسل في حين تتساقط ثمار التوت والمشمش في فم الانسان!

ولقد كان من سوء الحظ ان احتفلت بوصولي، بواحدة من اسوأ وفادات الحمى التي لم

---

(١٦) لانعتقد ان هذا المثل عربي الاصل، وانما قد يكون تركيا اوارمنيا

اشهد مثلها من قبل. فلقد كان ينبغي علي ان اقاسي البرد، بل بالاحرى البرد بعد الحرارة، غير ان ذلك قد اثار فزع ثلاثة من الناس الذين لم يشهدوا حمى من النوع الهندي. انني في صحة جيدة الآن، غير انني لااستطيع ان استحم حسبما احب ذلك. هناك بعض الامريكان في هذا المكان ايضا. انهم من اعتق السكان. لقد كانوا هنا اثناء وقوع مذبحتين، كانت احداثهما التي وقعت قبل ثلاث سنوات، قد ادت الى مقتل الالوف من الارمن

انني احس بالاحرى نحو الاتراك والارمن بانهم اناس كريمون. سوف امكث هنا مدة اسبوع او حواليه، ومن ثم سوف احاول ان ارحل واكف عن البقاء هنا. انني اريد بالاحرى ان اتوجه الى «نمرود» الذي يقع عبر البحيرة، وهو بركان آخر له اتم فوهة معروفة في العالم. ومن ثم سوف امضي الى «بتليس» كما اتوقع (*)

ما ان غادر لجمن مدينة «وان» حتى سار بمحاذاة شواطىء البحيرة، طيلة اربعة ايام الى ان بلغ الطريق المار الى «بتليس» حيث تشترك ثلاثة اودية في تكوين المنبع الحقيقي لنهر دجلة العظيم على ارتفاع خمسة الاف قدم. وفي طريقه قام بزيارة دير «اخوانك» (١٧) الذي يقوم على جزيرة «انتمار» والذي كان يستعمل مقرا للارمن الكاثوليك، الى ان قام الاتراك بالغاء منصب الارشمندريت

كذلك زار لجمن «اعظم كنيسة ارمنية قائمة» و «هناك تضايقت من شدة الالحاح على تقديم الهبات، واسفت لانني وهبت هؤلاء الناس من الهبات شيئا كبيرا جدا! لقد كانوا يزعمون ان هذه الهبات لاصلاح الكنيسة، ولكنني اعتقد انها تذهب في سبيل بطونهم!».

ومن ثم اجتاز خلال «نافكان» «وهي قرية صغيرة موحشة تضم الكثير من الناس اللامعين من ذوي السلوك السيء!» الامر الذي ايد انطباعاته الشخصية عن الارمن، والتي وردت في رسالته السابقة.

في اليوم الثلاثين من شهر تموز كتب لجمن من بتليس» يقول «كانت الرحلة الى هذا الموقع والتي استغرقت حوالي خمسة ايام يسيرة جدا.

ذلك ان الطريق يسير كله على امتداد حدود البحيرة بصفة عملية، ولقد توقفت في دير للارمن ليلة واحدة، ومن ثم ابحرت مدة ساعتين الى جزيرة تقوم فيها كنيسة ارمنية من القرن العاشر وهي اقدم كنيسة موجودة في الوقت الحاضر.

وفي يوم اخر قمت بجولة وتسلقت فوهة بركان «نمرود» التي تقع على ارتفاع حوالي ثمانية الاف

(*) بتليس واصلها بدليس «ولاية كبيرة تقع الى الغرب من ولاية وان»

(١٧) دير خاونك في جزير اوختمار وليس انتمار تقابل كفاشي وهي مركز قضاء بحيرة وان

وخمسمائة قدم. اي نحو ثلاثة الاف قدم فوق السهل. ويبلغ عرض البركان خمسة اميال ونصف الميل، وقد طغت مياه احدى البحيرات على النصف من مجموع مساحته.

خيمت هناك، واستمتعت بحمام ساخن في احد الينابيع الساخنة. تؤلف «بتليس» موقعا كبيرا بني في غار عميق داخل الجبال ينبع نهر دجلة او بالاحرى احدى منابعه هنا. انني امكث الان مع احد الارمن، اذ انه لايوجد هناك سوى قنصل روسي، ومع انه توجد قنصلية بريطانية، فلا يوجد قنصل فيها. الجو حار بعض الشيء غير انه لايخلو من البهجة.

والموقع يؤلف واحدا من الاماكن التي تقع فيه المذابح الكبرى عادة، فقد قتل اكثر من الف ارمني هنا قبل سنة او سنتين. سوف امكث هنا يومين، ومن ثم انحدر الى «ديار بكر»(١٨) الساخنة، وآخذ طريقي الى «حلب» ويجب ان ابلغ هذا الموقع الاخير في وقت يقرب من اليوم العشرين من شهر آب، ومن ثم اصل «دمشق» بعد ايام قلائل من ذلك التاريخ

ولابد ان اعثر على بريد مثقل نوعا ما ينتظرني هناك، انه بريد كامل يغطي ثلاثة اشهر، ظل يتجول خلال الاشهر الستة الاخيرة. واذكركم بانني مكثت ليلة واحدة مع طبيب محلي يدعى «الكسندر». انه احد النساطرة، وقد اعتاد ان يقوم باعمال العلاج والتبشير بالمسيحية في اصقاع الجبال، ولذلك هبط الاكراد فخربوا مكانه، وهو يقول بانه سوف يذهب، بعد وقت قصير، الى انكلترا او امريكا للحصول على المساعدة.

واذا ماحدث ووصل اليكم فان عليكم ان تقدموا له اية مكرمة مقابل ما اداه نحوي. انه شخص جدير بالثقة فيه، وامين في افكاره، غير انني انبأته بان من العسير جدا عليه ان يحصل على اناس في اوربا يتبرعون بالمال لافراد خاصين وليس لجمعيات. فاذا مارغبتم في ان تقدموا له النقود بصفة، فان هناك بعثة تبشيرية طبية في هذه الانحاء تدعى «بعثة رئيس اساقفة النساطرة». وهذه البعثة تديرها كنيسة «كنتربري»(١٩) وانها تقدم اشياء حسنة!»

---

(١٨): عرفت قديما باسم آمد اواميدا فلما استقرت قبيلة بكر بن وائل فيها قبل ظهور الاسلام بزمن طويل عرفت باسمها الجديد ديار بكر وهي جزء لاينفصل عن ارض العراق تقع على مرتفع يطل على نهر دجلة وكان لها سور محصن له اربعة مداخل ومادام سكانها العرب الى الان يحتفظون بلغتهم وتقاليدهم العربية

(١٩) بدأت اوربا، وعلى الاخص الكنائس الفرنسية والبرتغالية والهولندية والانكليزية، تقتحم الشرق العربي والاسلامي في مطلع القرن السادس عشر، تحت ستار الاستكشاف، ومن ثم الغزو الاستعماري المكشوف. ولقد مهدت بعثات التبشير المسيحية هذه لاعمال الغزو وتوطيد اقدام المستعمرين. وكانت كنيسة كنتربري الانكليزية والدومنيكان الفرنسية، اولى البعثات التي وجهت انظارها الى العراق وبين القرى التي يسكنها المسيحيون في شمالي الوطن حيث ركزت هذه البعثة اعمالها بين الطائفة النسطورية في الدرجة الاولى.

التقى لجمن في بتليس بوكيل القنصل البريطاني المدعو «سفرستيان»[٢٠] «وهو شاب نابه، وهناك القنصل الروسي «شركو» وهو شيخ بليد لكنه محبوب. والمدينة ذاتها تؤلف منظرا رائعا ومدهشا، اذ انها بنيت حول قلعة قديمة، وقد شيدت بيوتها الجميلة من قطع كبيرة من الحجارة». كما ان لجمن التقى ايضا باحدى السيدات الامريكيات المسنات الفاخرات، انها «المس ايلي»[٢١]، التي امضت مع شقيقتها، اثنين واربعين سنة في اعمال التبشير.

كان يومان كافيين لزيارة «بتليس» ولذلك استأنف لجمن مسيرته في اليوم الخامس من شهر آب نحو هدفه التالي وهو «ديار بكر» فاجتاز خلال «زيارات» و«بسمل»[٢٢] حيث وجد نهر دجلة هناك ليس سوى جدول صغير ضحل يمكن عبوره مخاضة من اي مكان فيه!. وبعد ان غادر الموقع الاخير بوقت قصير، وصل مصادفة الى قرية ارمنية وسط التلال هاجمتها مجموعة من الجنود الاتراك.

جلس لجمن على احدى الصخور عند قمة احد التلال التي تطل على القرية لكي يراقب المجابهة بين الاتراك والارمن. توزع الارمن الى فريقين اختفيا جزئيا بين الصخور القائمة عند جانب التل، وراحا يطلقان النار بصفة جزئية من شرفات منازلها فابديا مقاومة عنيفة جدا. واذ كان لجمن يجلس في موضعه وقد وضع مرفقيه على ركبتيه، وحنى رأسه الى امام، واستوعب تماما كل ماكان يحدث، حتى اجفل لانه سمع من خلفه تماما رجلا يقول بلهجة امريكية واضحة «خذ حذرك فان من المحقق وجود نوع مامن التدمير يجري الان في الاسفل هناك!»

تطلع لجمن حواليه فرأى شابا فتيا يقف وراءه وهو يدخن سيكارة بكل هدوء، ويرتدي ملابس انيقة جدا، وينتعل احذية داكنة، وصقيلة جدا، ويضع حول عنق ثوبه ياقة بيضاء، وفوق كل ذلك يضع على رأسه قبعة من الخوص!. كانت هذه المادة الاخيرة هي التي اثارت دهشة لجمن الواسعة، لان ذلك آخر نوع من رداء الرأس كان يتوقع ان يراه وسط الجبال الارمنية.

كان الشخص الذي يرتدي لباس الرأس ذاك ارمنيا دون ادنى شك، ولكن كيف كان قد وصل الى هناك، ومن اين حصل على مثل هذه البدلة التي بلغت اعلى درجات الفخامة في الخياطة والتفصيل؟. لقد كان لجمن يجهل تماما لأن يتصور ذلك. ولكن ذلك الغريب سرعان ماأضاء له ماكان يجهله حين قال «لقد عدت الآن من الولايات المتحدة الامريكية، حيث

---

(٢٠) SAFRASTIAN

(٢١) MISS ELEY

(٢٢) بسمل مركز قضاء شرقي ديار بكر

امضيت هناك خمس عشرة سنة، واصبت ثروة طيبه. ان ابي وامي يسكنان الوادي، وانا قادم لزيارتهما، ولكن يبدو لي، ان علي ان انتظر قليلا، لانني لااريد لملابسي ان تتسخ!»

غير ان هذه الحكاية الصغيرة لم تقص بسبب مظهرها المرح بل بسبب نتيجتها! فقد هتف به لجمن قائلا ماذا؟ كنت بعيدا مدة خمس عشرة سنة عن قومك، وانهم لايستطيعون ان يروا ثيابك الجميلة هذه الا بعد ان ينتهي هذا القتال؟ يالعدم المبالاة! تعال معي!»

واذا ذاك سأل الارمني المندهش «ماذا تريد ان تفعل؟» فرد عليه لجمن «اريد ان آخذك الى امك وابيك تعال معي!». وبارتعاش واسع، اخذ الرجل المندهش يمشي متمهلا مخافة ان يتلوث حذاؤه الصقيل وهو يتعقب خطوات رفيقه الغريب هذا

كان لجمن يهبط بانتظام الى وسط المعمعة. وقد دهش الفريقان المتقاتلان لذلك، بحيث امسكا عن اطلاق النيران، واذ ذاك توجه لجمن الى نائب ضابط تركي بدين جدا، فغر فمه، وراح ينظر اليه بعينين نصف مفتوحتين، كما لو ان امرا غريبا شاذا قد وقع. لقد سأل لجمن عن المكان الذي يوجد الضابط فيه، غير ان احد الضباط كان قد اقبل عليه حقا. واذ ذاك سأله لجمن بالفرنسية عما اذا كان هو الذي يقود هذه القوة، ولكن الرجل هز رأسه بالنفي، واشار الى ضابط اكثر بعدا عنه.

توجه لجمن الى ذلك الضابط رأسا، وقال له ان من الضروري اطلاقا ان يسمح لرفيقه برؤية ابيه وامه. كشر الضابط بابتسامة عريضة، غير انه قال انه لم يسمع بمثل هذا الاجراء، في حين رد لجمن يقول «حسنا ان رفيقه سوف يذهب ليرى امه واباه وانني ذاهب معه. ارجوك ان تعطي الاوامر بان لاتدع احدا يطلق النار علينا!». وافق الضابط الذي كان نبيلا حقا، واذ ذاك وجد لجمن ان صديقه قد بلغ منزله سالما، ومن ثم استدار وشكر الضابط، وواصل رحلته قدما!

لم يشر لجمن بصفة مميزة الى هذا الحادث لافي يومياته او رسائله

ولكن حين كنت في احدى الليالي اجلس معه على سقف منزله في كربلاء، وحين كانت المدينة كلها غارقة في النوم، قص علي هذه القصة، باعتبارها واحدة من الحوادث المدهشة التي شاهدها اثناء رحلاته، ولست اعرف الشيء الذي اثار اعجابي اكثر من اي شيء آخر، اهي رقة فؤاده، ام جرأته المتصفة بالخبال، ام شراسته الواسعة!

كم عديدة كانت الوقائع التي حدثت في حياته العجيبة المحيرة، وضاعت علينا وكم من قصة كان يود ان يقصها؟. انه لمن المؤسف الف مرة، ان لجمن لم يدون قصته، مثلما كان يقع الضغط عليه جراء ذلك في مرات لاعدد لها، لكنه كان يرفض ذلك بعناد، ويكرر على الدوام ذات جوابه «ان المرء اذ يفعل ذلك، يحسب نفسه حمارا ليس الا!»

* * *

وصل لجمن الى «ديار بكر» في اليوم الخامس فلم يمكث فيها سوى يوم ونصف يوم.

وفي اليوم السابع من الشهر صحبه في جزء من الطريق المستر «توماس» الترجمان الارمني في القنصلية البريطانية، في حين بدأ لجمن وحده القسم الاخير من رحلته ولقد وصل الى «اورفة» [٢٣] في اليوم العاشر من الشهر، ثم غادرها في اليوم الثالث عشر، واجتاز ريفا لااهمية له الى نهر الفرات فبلغه وعبره في «شختور» في ذات اليوم

لم يكن عرض النهر يزيد عن مائة وخمسين يردا، ولكن كان على لجمن بعد ان عبر النهر ان يقوم بمسيرة طويلة جدا ومنهكة لانه كان قد ضل طريقه بالنسبة الى الماء، كان حصانه على وشك ان ينفق تحته بصفة تامة ولم يكن امامه سوى ان يكافح للوصول الى داخل مدينة (باب) [٢٤] حيث نفق حصانه فعلا في مساء ذلك اليوم، كما كتب عن ذلك مؤخرا.

بلغ لجمن مدينة «حلب» في اليوم التالي حيث مكث في فندق يثير القرف والأشمئزاز يدعى «القصر» وبذلك تكون مسيرة الالف والثلاثمائة ميل قد كملت. ومع ذلك فان مغامراته لم تكن قد انتهت بعد! لانه كان يسعى الى ان يزور سوريا، وفلسطين، ومن ثم يجتاز الصحراء الغربية الكبرى بطريقة مثيرة للحساسية، كما سيرد وصفه بعد.

غادر لجمن مدينة حلب متوجها الى دمشق بالقطار في اليوم الثامن عشر من شهر آب. ومن دمشق ذاتها كتب رسالة في اليوم الحادي والعشرين من آب يصف فيها رحلته من حلب ويعطي بعض التفاصيل المهمة. «وصلت الى هنا في مدى خمس عشرة ساعة من سفر بغيض تماما.

لقد كان الجو شديد الحرارة، وكان يوجد على الدوام اثنا عشر من الناس في العربة ومع ذلك كانت الرحلة عبر لبنان جميلة جدا. كان القطار يتعقب احد الانهار عبر مضيق عجيب لمدة خمس ساعات. كان الوقت ليلا، ولكن القمر كان زاهيا وكان المنظر كاملا. ان هذا الموقع يكون اكثر بهجة اثناء الصيف منه اثناء الشتاء. فالاشجار قد بدت جميلة، وكانت معظمها تتألف من اشجار الزيتون، وكلها خضرة داكنة.

لقد اصابني الزهو كثيرا حين تلقيت رسالة من «الجمعية الجغرافية الملكية» تدعوني فيها لالقاء محاضرة في شهر تشرين الثاني القادم عن رحلاتي، وان الجمعية قد تخلفت عن نشر مقالتي في «صحيفتها». ماتزال الحكومة والسفارة شديدتي القلق بشأن حركاتي، حيث يبدو بانهما كانتا

---

(٢٣) اورفة: وتعرف باسم (الرها) و«اذيسا» عند اليونانيين اعاد الامبراطور الروماني جستنيان عمارتها وسماها باسمه جستنيا نبولس سنة ٥٤٥ وشيد المسلمون فيه مسجدا باسم مسجد ابراهيم الخليل وهي الآن داخل الاراضي التركية بعد ان كانت جزءا من العراق وقد استولى الصليبيون على الرها بقيادة بلدوين الفرنسي.

(٢٤) مدينة الباب تقع على مقربة من ساحل الخزر وفي شمالها الغربي مدينة اربيل.

تجهلان حقيقة اني كنت قد عدت الى بغداد، بعد ان بدأت رحلتي الثانية. وتتصوران بانني مازلت اعيش بين البدو.

سوف اغادر هذا المكان في وقت مامن هذا الاسبوع، وانحدر الى بحيرة «طبرية» ومنها الى «بيت المقدس». ومن ثم اجتاز طريقي من (جرش) الى سكة حديد الحجاز. واعود الى هنا في حدود شهر واحد، ومن ثم اقطع الصحراء على ظهر احد الابل الى بغداد. ان «دمشق» في الوقت الحاضر، تؤلف مركزاً لحرب دامية. ذلك ان الاتراك يقومون الان بمقاتلة طائفة كبيرة تدعى «الدروز» على مقربة من هنا، وان المدينة تردد اصداء مسيرة الرجال المسلحين، واصوات الابواق. لقد اضطربت جدا لما الم بيدي.

ذلك ان بعض رجال الشرطة الذين رافقوني خلال قسم محفوف بالخطر من البلاد، قد تأخروا كثيرا اثناء الطريق، وظنوا بانني سوف ابلغ امرهم الى المسؤولين، ولقد حاول احدهم ان يقبل يدي، دليلا على المصالحة في هذه البلاد. واذ كان يفعل ذلك فقد طعن يدي ببندقيته حيث تسممت بعد ذلك.

لقد كانت البلاد برمتها تتلهف الى رؤية المشاريع المدهشة لبناء سكك الحديد الجديدة، ولكن كانت نتيجة ذلك ان تلك المشاريع اصبحت تدار من قبل اصناف رديئة جدا من الالمان. ففي احد الفنادق في مدينة حلب كان علي ان ادعم الامبراطوية بقوة السلاح تجاه احد الالمان الوقحين!

لعبت «البولو»[٢٥] يوم امس مع بعض الضباط الاتراك. ولقد تألفت اللعبة من امتطاء برذون غير مدرب لقفز انواع من الحفر الصغيرة، بالاشتراك مع سبعة براذين اخرى غير مدربة ايضا، وقد الفت الرفس. لقد كنت انزف عرقا باردا طيلة الوقت!.»

وفي اليوم الثلاثين من شهر آب كتب مرة اخرى رسالة يذكر فيها مغامراته الاخرى فيقول «انكم ترون الآن بانني قد اصبحت من الحجاج! لقد غادرت دمشق قبل اسبوع تقريبا، ووصلت بسكة حديد الحجاز الشهيرة الى بحر «الجليل». ولقد عبرت بحيرة طبرية حيث مكثت في دير للطائفة الفرنسسكانية[٢٦] لم تكن طبرية اكثر من موقع غير انها تشمخ جميلة بابراجها الصليبية داخل البحيرة. اما البحيرة فانها رائعة جدا فهي محاطة بالتلال من كل الجوانب التي تضفي اشكالا جميلة عليها في مختلف ساعات النهار. ذلك انها تؤلف واحدة من مفاتن هذه البلاد، وان كانت جدا جرداء، وتكون الالوان التي تكشف عنها جميلة.

ابحرت من طبرية الى «كفر نعوم»، واجتزت الموقع الذي يفترض فيه بانه هو موقع بيت سعيدة. لقد خيل الي ان يومي الاخير قد دنا!، لاننا اثناء عودتنا قد تعرضنا لعاصفة حملت

---

(٢٥) البولو POLO لعبة رياضية شبيهة بلعبة الهوكي، تمارس على متون الخيل بمضارب طويلة وكرة من الخشب

(٢٦) الطائفة الفرنسسكانية FRANCISCAN احدى الطوائف المسيحية الفرنسية التي لها تقاليدها المميزة

الاطنان من المياه. ولقد وصل البلل الى الجلد. كانت طبرية جد حارة، ولقد سررت فرحا لان اغادرها. ولقد ركبت من هناك الى الناصرة» حيث استغرقت السفرة حوالي خمس ساعات

من الناصرة تحركت نحو حيفا على البحر وامضيت يوما على «جبل الكرمل»(٢٧) لقد كان المنظر فخما جدا. ركبت الباخرة من حيفا الى يافا في مسيرة استغرقت ليلة واحدة. والذي اتصوره انني لن الاقي رحلة غير مريحة.

بدأت سفرتي الى يافا حين جرحت ساقي علانية من قبل احد المواطنين المحليين الذي طلب بعض النقود. ولد ادى هذا الامر الى ملاكمة خشنة وتدحرج على ظهر السفينة خرجت فيه انا المنتصر، مثلما كان يجري في المناورة للقيام بالهجوم، الى درجة ان احد المعتدين الرئيسين قد سقط الى البحر اسفل الجانب الاعلى لسطح السفينة.

ان السكان في هذه البلاد، يعتبرون بالطبع من اكره الناس في العالم، ولكنني عوملت بصفة افضل، ومن المحتمل ان ذلك قد حصل لانني كنت اعرف اللغة العربية. توجهت من يافا بالقطار الى بيت المقدس، التي استغرقت رحلتي اليها اربع ساعات. لقد كنت اتوقع ان امقت بيت المقدس لكنها كانت جميلة حقا. ولهذا فانني اتوقع ان امكث فيها اسبوعا او الى عشرة ايام. انني الآن محطم! لانني اصاب بالحمى في كل مساء. اما الفندق فانه قذر بصفة خاصة وان كان يعتبر افضل فندق!».

اتخذ لجمن طريقه من بيت المقدس عائدا الى دمشق في اليوم التاسع من شهر ايلول عن طريق «جرش»، وجبال «مواب» الى عمان، حيث تخلى عن القطار، ووجد نفسه في عربة من الدرجة الثالثة مزدحمة بالركاب(٢٨). لم يخرج القطار عن الخط سوى مرة واحدة، وقد ظهر بان هذا الحادث كانت نتيجة الحظ بصفة استثنائية. وهكذا تم الوصول الى «دمشق» في مدى اربع عشرة ساعة.

مكث لجمن في دمشق مدة ثلاثة اسابيع، وفي نهاية تلك المدة، عزم على ان ينفذ، في بعض المظاهر المحددة، واحدة من اشهر رحلاته الحديثة. ففي اليوم السابع والعشرين من شهر ايلول ركب بكل ارتياح احدى العربات ومعه شخصان من دمشق الى قرية «دمير» (٥٣) التي تقع على حافة الصحراء السورية.

كان ينتظره هناك فريق صغير من الاعراب الاشداء نحيلي المنظر، هم كل من «حمدان» و

---

(٢٧) جبل الكرمل: على بعد عشرين كيلومتراً من حيفا وقمته التي ترتفع ٥٤٠ متراً تشرف على حيفا فيه دير شهير يعود الى القرن الثالث الميلادي وفيه اثار من العصر الحجري

(٢٨) نود ان يدرك القارىء ان هذه العربة ليست من عربات القطار، وانما هي من العربات التي كانت تجرها الخيول وتعتبر احدى ادوات النقل في تلك الايام التي لم ينتشر فيها استعمال القطار

«عبد الرزاق، رفيق لجمن من قبيلة عقيل، وبعض الادلاء من البدو. كانت معهم مجموعة من الابل الفاخرة

واذ لم يقنع لجمن بالجولات التي قام بها مؤخرا، فقد غدا الآن على وشك ان يعرض نفسه عمدا الى محنة من اشد المحن في سبيل ان يختبر حدود مقدرته على الاحتمال. فمن النقطة التي كان فيها الى جانب بعيره في «دمير»، كانت الصحراء تمتد من هناك الى بغداد حوالي خمسمائة واربعين ميلا.

لقد صمم الآن على ان يحاول اجتياز هذه الصحراء المقفرة والتي لاتوحي باي شيء، في وقت قياسي على ظهر بعير، وان يبرز قوى التحمل لديه، ازاء رفاقه الاشداء، الذين ولدوا وتربوا على حياة الصحراء. لقد تم تقليص طعامهم الى ادنى حد مستطاع، والذي كان يتألف من اكياس قليلة من التمر ربطت ربطا وثيقا في موضع امين!.

كان لجمن يأمل ان يبلغ بغداد في مدى عشرة ايام، وتلك مهمة شاقة، اذا ما اخذت شدة الحر، وطول الرحلة، وندرة الماء، وطبيعة الارض بنظر الاعتبار وحتى لو كان معدل السير في اليوم والذي يساوي اربعة وخمسين ميلا قد تم تحقيقه، فان توقعات النجاح تبدو بعيدة المدى جدا. لم يكن نجاح المحاولة، يكمن في اجتياز مدى محدود من البلاد في اعظم سرعة مستطاعة، وانما في الحفاظ على معدل رفيع من التقدم ليل نهار باستمرار لفترة طويلة نسبيا

لقد قررت الجماعة ان تتعقب طريق البريد، «درب الساعي»[٢٩] والذي يمتد نوعا ما الى الشمال من الطريق الحالي الذي تقطعه السيارات، وان يبلغوا نهر الفرات في جوار «هيت». لم تضع الجماعة شيئا من الوقت للتوغل في الطريق، وراحت على الفور تقطع الطريق بخطى سريعة متجهة نحو الشرق. واذ واصلت الجماعة سيرها بثبات مدة يومين وليلتين، وصلت الى ابار «سبع ابيار»[٣٠]

على ان الجماعة لم تضع هناك شيئا من الوقت، على الرغم من ان ركوب لجمن على السرج غير المريح الذي وضع على جواده، قد قرح مقعده بصفة سيئة، وجعل ركوبه منطويا على انعدام الراحة، والاصابة بالالم. وبعد ان غادروا «سبع ابيار» كانت شدة السير الذي لم ينقطع، قد ظهرت اثارها على الرجال وعلى دوابهم معا.

كانت طبيعة الارض الرتيبة المملة قد جعلت الايام تبدو طويلة وكأن لا نهاية لها. ذلك لان المسافات الشاسعة التي تقع عليها العين، قد تخلق التوهم بانه لم يتم احراز سوى القليل من

---

(٢٩) كتبها المؤلف باللفظ العربي!. DARB AL - SAI وكان هذا اللفظ يطلق على نوع من القماش الموشى بالحرير يجري استيراده من سوريا حتى نهاية سن العشرينات في العراق

(٣٠) كتب المؤلف الاسم باللفظ العربي SABA ABYAR

التقدم. وكانت علامات الارض التي ترى في الافق عند الفجر، تبدو بانها ماتزال غير قريبة حين تشرق الشمس. وحين يحل الظلام ويتواصل التقدم السريع، تخفي الظلمة كل شيء، عدا باردات قليلة من الانبساط الكليل الذي يشاهد.

في مثل هذه الحال يبدأ الحديث يقل، ومن ثم ينقطع تماما. ويروح الجميع يضغطون على السير قدما في صمت. كذلك تبدأ الحيوانات هي الاخرى تفقد قوة زخمها وحركتها. واذ ذاك يحتاج الامر الى جهود اضافية لحثها على التقدم الى امام وزيادة التعب الذي يحس به راكبوها وفضلا عن ذلك فان الجماعة ينبغي لها ان تكون متيقظة بصفة دائمة. والا فانهم يفاجأون بالعصابات السلابة التي تجوب القفار، وبهذا يفرض توتر اضافي على احاسيس الجماعة.

كانت اول استراحة تمتعت الجماعة بها عند «بئر المولوسي»[31] على بعد مائتين وعشرين ميلا من دمشق. ومع ذلك فانها حتى في هذا الوضع سارعت الى التخلي عن راحتها بعد تمهل وجيز، واجبرت اجسامها الصلدة التواقة، الى ان تستأنف مسيرتها، وان تكد في سيرها الى امام نحو آبار «مهينير» التي تقع على مسافة وخمسين ميلا اخرى

كان القسم الاعظم من رحلتهم قد خلفوه وراءهم الان. ومع ذلك فانهم كانوا في غمرة مأزق مؤسف. كان افراد قبيلة «عقيل» الاشداء على وشك ان يبلغوا حدود تحملهم، ولذلك كانوا في نقطة انهيار كامل.

فلقد غدت عيونهم اشبه بالزجاج، وغارت شفاههم وتشققت، وارتخت اجسامهم المتعبة في سروجهم. اما لجمن نفسه فقد كان عرضة لأن ينسلخ جسمه، ويأخذ بالنزيف ولكي تزداد محنته فقد تضاعف المه باصابته بالملاريا. كان الجميع يعانون من نقص النوم. وقد تحملوا العذاب الاضافي في مقاومة ادمغتهم التي تخدرت ففقدت الاحساس!

ومع ذلك ابى لجمن ان يتخلى عن المحاولة. وعن طريق شفتيه الملتهبتين نتيجة الحمى راح يستهزىء بافراد «عقيل» ويصفهم بانهم نسوة الى ان دفعهم الى الحمية بسخريته الواسعة وتعبيراته الشديدة، حيث اعتمدوا على آخر مابقي لهم من احتياطي قوتهم. وراحوا يشقون طريقهم مكتئبين الى امام

واخيرا وفي باكر اليوم الرابع من شهر تشرين الاول، وصلوا نهر الفرات على مقربة من «كبيسة». وهكذا كانوا قد قطعوا اربعمائة واربعين ميلا في مدة سبعة ايام تماما، وبمعدل ثلاثة وستين ميلا في اليوم الواحد، ولم يبق امامهم سوى ان يقطعوا مائة ميل ليس الا.

امدهم التفكير في قصر المسافة الباقية بقوة اضافية وبآخر جهد بشري متفوق وصلوا بغداد في

---

(31) كتبه بئر المولوسي والذي نعتقده ان الاسم الذي يعرف به لدى البدو هو بير الموصلي. وربما كان هذا البئر واحدا من الابار التي اكتشفها السائح الجيكوسلوفاكي «موسل» فنسب اسمه اليه وحرف الى الموصلي او المولوسي

اليوم السادس من شهر تشرين الاول وبذلك كانوا قد اكملوا الرحلة بيوم يقل عن المدة التي حددوها لانفسهم. ونجد في يوميات لجمن في اليوم التالي النهائي لمصيره العجيب هذا المطلع المهم

«الى جهنم او الى العرش»

فمن يسافر لوحده يسير بصفة اسرع!».

ترى هل كانت الفرصة التي جعلته يكتب هذا المقطع، ام انه قد تم ادخاله في يومياته عمدا؟. لقد كان هذا المقطع يلخص حياته بشكل عجيب. ذلك لان من يسافر لوحده، يقطع مسيرة حياته بصخب! ترى هل ان اختياره لذلك المقطع كان يكشف لنا، ومن دون اعلان، لمحة من روحيته؟

لقد اصيبت الجماعة بالانهاك الكلي من الرحلة، لكنها كانت فخورة وسعيدة لان تعلم بانها قد قطعت الصحراء الغربية على ظهور الابل في وقت لايمكن مباراته ابدا. وبعد يومين من وصوله كتب لجمن الى امه ينبؤها عن وصوله سالما، في رسالة، قال فيها

«لقد وصلت سالما ولكن بنية لم تكن صائبة!. لقد قمنا برحلة استغرقت خمسمائة ميل في تسعة ايام بدا لنا فيها ان علينا ان لانتوقف، وان لاننام. فقد غادرنا ضواحي مدينة «دمشق، ليلة يوم الاثنين، واتجهنا نحو الشرق مباشرة فوصلنا نهر الفرلت على الجانب الاخر من الصحراء في مدى سبعة ايام تماما. لقد كنا نركب الحيوانات حوالي ست عشرة ساعة من كل يوم فعلا. وكان من سوء الحظ ان اصبت بالحمى خلال منتصف تلك المدة. ولقد فرحت اذ وجدت الاعراب والبدو الاخرين كانوا في نفس الوضع الذي كنت فيه في النهاية.

لقد بلغت بغداد في فجر يوم الخميس، حيث قطعت الثلاثين ميلا الاخيرة راكبا دون ان اتوقف الا لمدة ساعتين ولقد وصلت الى سطح مركب بحري هنا فنمت عليه، ونمت بلا انقطاع، في الوقت الذي كان فيه عمال المركب قد عالجوني على عجل، لان كل قطعة من جسمي كانت متورمة جدا. لقد اخذت اتماثل الى الشفاء ببطء لكنني ما ازال متعبا ومتقرح الجسم!»

وفي رسالة اخرى بعث بها في اليوم الحادي والعشرين من تشرين الاول، اشار لجمن الى رحلته مرة اخرى فقال «لقد شفيت الان تماما من التعب الذي اصابني خلال رحلتي. لقد كنت بعد تلك الرحلة ولاسبوع كامل انام خمس عشرة ساعة في اليوم. انني لمسرور حقا لانني قمت بتلك الرحلة لانها سوف تصنف بمثابة عمل بطولي. غير انني سوف افكر تفكيرا حسنا قبل ان اقوم بمثل تلك المغامرة مرة اخرى».

كانت اجازة لجمن على وشك ان تنتهي. في اليوم الثامن عشر من الشهر، استقل الباخرة النهرية «مجيدية» في رحلة الى البصرة، ولكن بالنظر الى انتشار الكوليرا بصفة مفاجئة، كان على

الباخرة ان تظل محجوزة لمدة خمسة ايام في المحجر الصحي بجزيرة «كرارة» على بعد بضعة اميال في اسفل بغداد، وان تستغرق رحلتها نحو الجنوب مالا يقل عن خمسة ايام.

ولذلك لانعجب اذ نجد لجمن يبعث برسالة مفعمة بالسخط الى ابيه يقول فيها «اصبحت الآن في وقت يتسم بالعفونة الواسعة. فلقد وقعت الكوليرا في بغداد، وكما يحدث ذلك في اي مكان اخر، وضعت كل السفن العاملة في النهر اسفل من بغداد في المحجر الصحي. وهكذا فانني الان محتجز في احدى البواخر على بعد حوالي ساعتين من بغداد!..

لقد كان من حسن الحظ تماما ان اصبح الجو باردا الآن، غير ان الباخرة لم تكن مريحة. فهي صغيرة حقا، ومع ذلك يحتشد على سطحها اكثر من ثلثمائة حاج في طريقهم الى مكة، والروائح الكريهة تنبعث من اجسامهم... لقد وجدت بان بغداد قد تغيرت تغيرا هائلا. اذ اصبح لدى القوم وال جديد [٣١] الذي قوض كل الابنية الجميلة القديمة، والطرق المفتوحة والمبيضة بماء الكلس. كانت هذه المباني جديرة بالثناء جدا، غير انها قد اتلفت الموقع.

كان كل واحد يعاني من الجو الحار، وكانت له وسيلة معتادة من ادوات تبريد الهواء لانهاء فصل الصيف، ولذلك كانت المساكن كليلة معتمة، ماعدا المقيم البريطاني ورفاقه الذين كانوا يستمتعون بالبهجة والمسرة. لقد كانوا يعيشون في غمرة انفعالات شجار صاخبة، ذلك لان كل موقع يضم حوالي عشرة اشخاص من الاوربيين، يحبون ان يكون لهم ذلك الموقع، ولم يكن نصفهم يود ان يتحدث الى النصف الاخر.

لقد كنت ارتعد حين افكر بنوعية الطريقة الخاصة التي ينبغي ان اعيش بها بعد ان اكملت هذه الرحلة، كيف آكل وانام، واشرب وادخن، كما هو المنهاج. لقد نضجت التمور، والتمور الطرية شيء يموت الانسان في سبيله!.

(٣١) هذا الوالي ناظم باشا الذي تولى الولاية في الفترة ١٩١٠ – ١٩١١

«الفصل السادس»

اخفاق

في الاسبوع الاول من شهر تشرين الثاني سنة ١٩١٠ وصل لجمن الى «راول بندي» قبل عودة كتيبته من التلال. لم يجد ان من اليسر عليه ان يطمن نفسه على العيش في حياة عسكرية اعتيادية في محطة كبيرة. والواقع ان التغيير الذي حدث كان تغييرا واسعا على كل الوسائل. فلقد كان لشهور كثيرة هو سيد نفسه بنفسه.

اما الان فانه سوف يصبح للمرة الاخرى، جزءا ثانويا في اداة واسعة! ذلك لان اللغة المحددة التي كان يتحدث بها، وملابسه ، وطعامه، وايامه التي تسير على وتيرة واحدة، ورفاقه ، كل هذه الامور سوف تغدو مختلفة، ولسوف يبدو وكانه قد اعيد زرعه في عالم جديد! . ذلك لانه حتى غطاء الارض قد تبدل. وان الاشجار، والزهور ، والمروج الخضر، غدت الان تحل محل القفر والرمال. وان الايام الباردة والليالي المتجمدة، قد خدرت جسمه بعد ان تعرض لحرارة شمس الجزيرة العربية التي لاترحم!

سوف تأتي الان التجربة الفذة عما اذا كان يستطيع ان يؤدي رسالته، وان يكمل مهمته العظمى التي اعد نفسه لها، والتي ارغم على ان يدعها نصف كاملة، او ان رخاء المدينة ، ويسرها ، ورفقتها السعيدة، سوف تفطمه عن النهوض بمشروع لم يكن ليوفر له اطلاقا ، سوى المشقة، والمعاناة، والوحدة، والمخاطر!

لقد كان الخيار بين يديه تماما ولن يجد انساناً يرغمه على ان يغامر مرة اخرى في هذه المتاهات المخيفة المتعبة. لقد حقق صيتا يعتمد عليه. وتلقى تعويضاً مستحقاً اذا ماحكم عليه من وجهة النظر المادية. فقد تمت تجربة مدى تحمله وصبره الى اقصى حدودها. وبرزت شهرته واضحة باعتباره احد الرحالين. ولقد ردد عدم رضاه في اول رسالة بعث بها من راول بندي كتبها في اليوم التاسع من شهر تشرين الثاني. ولكن سبقت هذه الرسالة اشارات واضحة تشير الى ان طبيعته القلقة كانت تبحث عن مخرج لقواه التي لاتنضب.

قال في رسالته «واخيرا القيت مراسي كما ترون، ويبدو ذلك غريبا لانني لم اتدافع لركوب سفينة او قطار. لقد امضيت النهار في «كراتشى» حسب، ومن هناك استخدمت افضل جزء من ثماني واربعين ساعة للوصول الى هنا، حيث كانت رحلة قذرة لقد وجدت الامور هنا اكثر امنا. ذلك ان الكتيبة قد انحدرت من التلال خلال يومين. ولا يبدو ان هناك احدا في نادي الضباط، وان كل فرد قد تزوج، وان الناس الذين تزوجوا كانوا مخيفين!

اني متضايق جدا. ولقد وجدت انه ينبغي لي ان اعيش في خيمة اذ لاتتوفر البيوت. وان البرد شديد جدا. فبعد ان مكثت تحت السماء مثل ذلك الوقت الطويل، آمل ان اعيش في احد البيوت. واضافة الى ذلك احس الآن، بان البرد مرعب بعد ذلك الحر الشديد الذي جربته هذه السنة!.

لقد وقعت كارثة اخرى. ذلك انني تركت ورائي كل ملابسي حين ذهبت الى الجزيرة العربية، وان كل شيئ تقريبا، قد تلف نتيجة النمل الابيض، الذي احدث ثقوبا في تلك الملابس. ان هذا سوف يكلفني بعض المبالغ كي ازود نفسي بالملابس. وانه لمن النادر جدا ان لايستطيع المرء ان يحصل على اشياء ملك لشخص آخر، بعد ان يغادر.

اننا خارجون للمناورة في اليوم الثالث والعشرين[1] ولن نعود قبل حلول عيد الميلاد، كما اعتقد. اود ان اتحول الى عرض ما عند الحدود. لقد مضى علي زهاء شهرهنا تقريبا، بعد ان عدت من بغداد، وان مثل هذا الامر يدع المرء يحس بالدفئ، اذا لم يكن المرء قد اعتاد ان يمكث ساكنا بلا حركة!»

وحتى في رسائله هذه لم يكن لجمن يلمح الى رحلاته القادمة فقد كان يذكر مثلا «لدي آمال في القيام برحلة اخرى» دون ان يوضح المكان الذي يقصده في رحلته تلك، وفي هذا كان يكمن اهتمام الاتراك بتعقب حركاته، وعنايته بالوصول الى بغداد من دون ان يحس احد به، ولهذا فان يومياته ومذكراته لن تصادر اذا ماتم الامساك بها قبل ان يودعها في موضع حريز

مضت اربعة شهور منذ ان عاد لجمن الى الهند، واذا أجرى الخيار بين حياة الدعة والمصاعب، فقد فضل المغامرة الشاقة على حياته الرخية.

غير انه قبل ان يبادر برحلته الجديدة، كان عليه ان يهيئ الاستعدادات اللازمة، وان يمول ويعبئ موارده المالية وغيرها، وان يراسل اصدقاءه في الجزيرة العربية، وكل من هذه الامور يحتاج الى وقت، ولذلك انقضت ثمانية اشهر قبل ان يستطيع المغادرة

وفي الوقت ذاته، وعلى الرغم من البهجة التي كان يتمتع بها، والالعاب التي يمارسها، اظهر لجمن نفاد صبره لكي ينطلق في مغامرته الجديدة. لقد كانت الحركة هي التي يشتاق اليها. اما المكوث في مكان واحد، مهما كان بهيجاً، فيبدو عليه بانه كان يضايقه. ولذلك كتب الى اهله في شهر نيسان يقول «اود لو استطيع الوصول الى الوطن لفترة ما. لقد اصبحنا نعيش في مرح عظيم هنا، غير انني قد تعبت من ذلك جدا. اننا في الوطن غالبا مايعتمد المرء على التعرف الجيد للاخرين، فيروح يتجول باستمرار يطعم السيدات الكهلات والفتيات العانسات!»

---

(١) من شهر كانون الاول سنة ١٩١٠

على انه لم ينس الشكوى من التبذير فيقول «حصل لدينا اجتماع واسع للسباق ، ولقد استمعت به ، ويعود السبب الرئيس في ذلك الى مقدار من المال كنت قد اعددته. هناك مثال اخر على تبذيري المخيف. هل قرأتم ماكتبته في الجريدة الجغرافية لقد كانت بالاحرى ضعيفة لقد كدت ان اسقط ميتا في اليوم الاخر حين سمعت بانني قد تلقيت مكافأة «جل»[٢] التذكارية من الجمعية الجغرافية الملكية ، والتي لاتساوي اكثر من اربعين باونا ، غير انها شيء من التكريم ولكنه لم يجر تقدير استحقاقه اطلاقا. لاتعتبروا هذا سفرة الى الخارج ولكنني سوف اغادر في رحلة صغيرة اخرى للمتعة في حدود شهر آب كما اعتقد ، اما الذهاب الى ذات البقعة وحدها ، فانه ليس بالامر الهين مثلما كان قبلا.

انني سوف امضي الصيف في «بندي» ويجب علي ان اذهب الى التلال ، لكنني كنت قد غادرت لكي اقود رجالنا هنا. انني لست افكر في هذا كثيرا غير ان تلك لم تكن دورتي ، ولهذا اخفي تذمري ! ».

وفي شهر حزيران تلقى لجمن اتصالا مشجعا جدا من الجمعية الجغرافية الملكية» وكان من نتيجة ذلك انه استطاع ان يحدد ترتيباته . وفي رسالة اخرى بعث بها الى ابيه مؤرخة في اليوم التاسع والعشرين من شهر حزيران انبأه فيها بكل ماكان يحدث. ومما ذكره في رسالته تلك قوله «انني لاعجب ان كنتم تشعرون بصفة خاصة بانكم اثرياء تماما في الوقت الحاضر. اعتقد بانني سوف اغادر الى اجزاء مغرية» في حدود بداية شهر ايلول.

«لقد كتب آمرنا الجديد بانه قد طلب اليه من لدن الجمعية الجغرافية بان يسمح لي بالمضي. انني لارغب فيما اذاكان يستطيع ان يعتاض عني (لانني ذو قيمة). ولقد كتبت الى الجمعية الجغرافية بانه ينبغي لي ان احاول بالتأكيد المضي الى الرياض او «القصيم» في الشتاء المقبل كما اقوم بهذه المغامرة التي ستكون عملا بطوليا له اهميته الجغرافية الاولى ، وان الجمعية سوف تكافئني على وجه التأكيد. وستكون هذه المكافأة ذات اساس نقدي حسبما اتفقت معها على هذا الموضوع قبلا «والآن انني لاعجب عما اذا كنتم ستسمحون لي بان احصل على صك للعلاوة السنوية باكملها ، اي ابتداءا من شهر تشرين الاول القادم فاذا كنتم تستطيعون ان تدبروا هذا الامر فانني سوف اكون ممتنا كثيرا ، والا فانني سوف اقترض مااحتاج اليه من هنا بمعدل فائدة مفرط. اود ان لاتدفعوا المبلغ عن طريق شركة «كوكس» افهل ستفعلون ذلك؟ ان المكان الذي اريد ان اذهب اليه مكان مجهول ، وان تلك آخر مرة اقوم فيها بمثل هذه المغامرة وبهذه المناسبة اذكر لكم ان الجمعية تتحدث بمنتهى الحماقة عن «هذه الرحلة الشاقة المحفوفة بالمخاطر». ان الرحلة لن تكون على هذه الشاكلة ابدا ، شريطة ان لايتطلع المرء الى المتاعب».

---

(٢) GILL احد المكتشفين الاثريين لدى الجمعية الجغرافية الانكليزية

لقد واجه لجمن القليل من المصاعب والاخطار في رحلته التي استهدفها، غير ان اهله لم يتلقوا سوى راحة ضئيلة من تأكيداته مقابل ذلك، كما ان الجمعية الجغرافية لم تكن تلك المؤسسة التي تهتم بتحليل الوضع، مثل المشروع الفاشل. على ان لجمن لم تقعده عن مغامرته اية اعتبارات، او تحذيرات عن الخطر الذي يواجهه، كما انه لم يكن يأبه حتى باي اعتراض يبدر من لدن اعلى جهة مسؤولة. في رسالته المؤرخة في الرابع والعشرين من شهر آب كتب يقول «لست ادري ماذا حدث عن اجازتي، ولكنني اتصور بان «اللورد كرو» (٣) يتفحص موضوع الاجازة في الوقت الحاضر، ويعتزم ان يرفض الموافقة على سفرتي. وعلى اية حالة فانه ينبغي لي ان اعود الى استعمال الحيلة والذريعة!»

وعلى حدة من كل الاعتبارات الاخرى فان الرحلة المقترحة ينبغي ان تحظى بالموافقة من لدن وزارة الخارجية البريطانية. كما ان الاعتراض القوي الذي اظهره الاتراك ضد فعاليات لجمن، والخطوات التي اتخذوها، لافشال تلك الفعاليات، كانت قد نقلت برمتها من لدن ممثلنا في بغداد طبعا!

كان الوضع في الشرق الاوسط في هذا الوقت معقدا وخطرا غاية التعقيد والخطر. ذلك لان السياسة الالمانية كانت تتطلع الى السيطرة على تركيا كما تتقدم اي المانيا، بمشاريعها الطموحة بالنسبة الى سكة حديد بغداد. وكانت بريطانيا تريد تخفيف هذا التوتر لانها كانت تعرف حق المعرفة بان المنطقة برمتها سوف تكون مجالا للنفوذ الالماني.

ولذلك كان الاتراك يعملون بارتباط وثيق مع حلفائهم المفضلين لديهم، ويعيدون النظر في اية محاولة من جانب بريطانيا لمراقبة ماكان يحدث، او للحصول على معلومات ذات طبيعة عسكرية، او من ذلك النوع الذي يساعدها على ان تقيس قوة الوضع او ضعفه، بعدم الموافقة، او ان تعرف على وجه التأكيد بان ذلك سوف يثير احتجاجا رسميا على محاولة لجمن للقيام برحلة استكشافية ، قد تكون غير مناسبة من وجهة النظر الرسمية

فمثل هذه الوقائع كانت على الدوام تجعل مشاريع لجمن تنطوي على المزيد من الجرأة والمغامرة، لأن عليه ان لايواجه اخطار الرحلة وحدها حسب، بل ان عليه ايضا ان يتجنب تعقب الاتراك له، وكذلك النتائج غير المسرة التي سوف تحدث من دون شك اذا ماوقع في ايديهم.

ولم يلبث لجمن بعد ايام قليلة، ان وجد ان اسوأ مخاوفه قد تحققت، وقد اشتد سخطه جدا، حين ابلغ بالحظر الرسمي للقيام بتلك الرحلة. في رسالة كتبها في اليوم الحادي والثلاثين من آب يقول «انني احس بمنتهى الشدة وكأنني قد تخليت عن مهمتي، او اتخاذ اية خطوات يائسة

---

(٣) لورد كرو LORD CREWE نائب الملك في الهند

اخرى. فلقد رفضت هذه الحكومة المجنونة ان تأذن لي بالسفر، ولو ان طلبي قد تلقى الدعم القوي من لدن رئيس اركان الجيش، ومن الحكومة الهندية، وهما يعلمان المزيد عن هذه الامور اكثر من مجموعة من الخونة الذين يلعبون على الحبلين! ولهذا فانني قد تراجعت قليلا لكنني سوف اخدعهم مع ذلك. ان اسوأ مافي الامر هو ان الطف مافي الجو طيلة هذا الوقت كان قد ضاع، الامر الذي يمرضني!»

لقد صمم لجمن كما قال، على ان يخدع المعارضين لرحلته، وان يستعمل اجازته التي يستحقها من دون ان يعطي ادنى اشارة بصفة رسمية، الى اي احد، عن الكيفية التي سوف يمضي بها الاجازة، ولذلك اتخذ طريقه الى البصرة كما لو انه يريد ان يمضي بعض مدة اجازته هناك، وفي بغداد.

كانت كل خططه قد كملت تماما. فقد كان على اتصال مع بعض الاصدقاء من العرب في البصرة الذين كانوا يتوقعون قدومه، وكانت نقوده كافية تماما للوفاء بحاجاته، وان كان الامر محفوفا بالخطر، لانه مسافر من دون موافقة رسمية، بل في الواقع، في وجه معارضة تامة، ولذلك فانه لن يحظى باية مساعدة مالية من الخارج

وبذات الطريقة التي زار بها «التبت» قبلا، كانت تحركاته تبدو بريئة تماما، وهكذا كان في اليوم الحادي عشر من شهر تشرين الثاني في البصرة، مصمماً على ان يأخذ سبيله الى بغداد.

ولقد قيل بان الحظ قد ساعد لجمن في رحلته من الهند الى البصرة عبر الخليج العربي، ووصوله البصرة، لان احدا من الموظفين البريطانيين لم يشعر به.

وفي البصرة جدد صداقاته مع مختلف المقيمين هناك، وراح يعب من المتع بشراهة، كما هي عادته، من دون ان يعطيهم ادنى اشارة بان لديه هدفا آخر بدلا من اقناع نفسه. ولكنه، ولشدة دهشة اصدقائه، سرعان ما اختفى على حين غرة! كان قد حضر حفلة في اليوم الثالث عشر من تشرين الثاني امتدت طيلة الليل الى ان قال للحاضرين فيها «ليلتكم سعيدة» بالطريقة المعتادة، على ان يلتقوا به في الصباح الذي اعقب تلك الليلة.

كان صديق لجمن العظيم، «مكفرسون» قد كتب مقالة في «صحيفة اسيا الوسطى[٤]» اورد فيها المقطع التالي «لقد كان حضور الجمن مثيرا مثلما كانت مغادراته ايضا! فقد يتناول طعام العشاء معك، ويقول لك ليلتك سعيدة»، وتكون تلك العبارة آخر ماتسمعه منه ربما لشهور، حين يظهر مفاجأة مرة اخرى، ويمسك بتلابيب المدينة، وكأنه لم يكن بعيدا عنها. كانت غياباته تحتسب بعدد رحلاته في الداخل، والتجول بين العشائر.

---

(٤) CENTRAL ASIAN JOURNAL

ولم يكن ليتحدث عن نفسه الا بمنتهى الصعوبة، وحتى اذا مافعل ذلك فان الانسان الذي يصغي اليه بصفة اعتيادية، قد لايتحقق من جزء من الاخطار والصعاب التي جابهها، ولذلك تراه يتحدث باعتدال عن كل تجاربه. ولقد كان الاتراك بصفة طبيعية يراقبونه وينظرون الى سفراته بعين الريبة والشكوك، ويبذلون كل الجهود لكي يوقفوه او يمنعوه، سيما وانه لم يكن يتوقع سوى مساعدة ضئيلة، بل اية مساعدة من لدن السياسيين البريطانيين اذا ماصادف المتاعب مع الاتراك او العشائر في رحلاته تلك غير ان لجمن كان يعتمد في الواقع على نفسه هو، ويحمل حياته في يديه!

لايوجد سجل عملي لرقابة حركاته من لدن الاتراك بهذه المناسبة، ولكن من المحتمل جدا وجود مثل تلك الرقابة. ولنضرب على ذلك مثلا: فما ان كان الاتراك يراقبونه في اليوم الثالث عشر من تشرين الثاني، حتى وجدوه يمتع نفسه الى اقصى حد حتى بعد منتصف الليل، حين مضى الى فراشه بعد ان اتضح بانه قد ثمل، وتلك هي الحيلة التي كان يستخدمها غالبا، وبعد ان اقتنع بان مراقبتهم طيلة الليل قد تراخت على الاقل. غير ان الاتراك لم يروه قد غادر مسكنه متسللا في الساعة الثالثة بعد منتصف الليل، ولم يميزوا ذلك الاعرابي النحيل الذي غادر بساتين النخيل المجاورة للطريق الذاهب الى الكويت بعد ساعة. لقد كان هذا هو مافعله لجمن حقا

لقد بدا لدى لجمن ان كل شيئ ملائم له، ولذلك كتب رسالتين مشجعتين الى ابيه، الاولى مؤرخة في اليوم الحادي عشر[٥] والاخرى في اليوم الذي غادر فيه. فقد قال في الرسالة الاولى «انني محظوظ الى ابعد حد، وان اموري متجاوبة. لقد غادرت، بعد ان رتبت كل شيئ ترتيبا حسنا، خلال يومين مع فريق من العرب، ولسوف اكون في منتهى الامان فلا حاجة لان تقلقوا بشأني!

اما في الرسالة التي بعث بها يوم مغادرته فقد ذكر «انني اغادر هذه الليلة، ولسوف انطلق بطريق الصحراء نحو الكويت، وفي مكان قريب منها سوف التقط حشدا من العرب، واذهب الى مكان ليس بعيدا جدا عن «الرياض». اظن انني قد وجدت رفيقا طيبا جدا، وانا ذاهب مع طراز من العرب المشهورين باستقامتهم، وسعة تفكيرهم، ولذلك فان الامور سوف تكون جيدة تماما. وفي حالة اذا ماحدث شيئ ذو طبيعة غير اعتيادية، فانني قد تركت لكم عنواني هنا لدى رجل سوف يعلمكم به»

كان لجمن قد كتب رسائله هذه علانية لانها سوف تبرد في باخرة بريطانية، ولذلك فانها سوف تكون سالمة من التدخل. ومع ذلك، وبعد مضي ثلاثة اسابيع على اليوم الذي غادر فيه البصرة، كتب الى ابيه تقريرا ينبئه فيه بالفشل التام لكل خططه . ومما ورد في ذلك التقرير قوله

(٥) من شهر تشرين الثاني من سنة ١٩١٠

«لم اكن اتوقع ان اكتب اليك مرة اخرى بمثل هذه السرعة، ولكن الحقيقة انني واجهت الفشل المؤلم في رحلتي. لقد خرجت من البصرة بكل يسر. واتجهت جنوبا مدة ثلاثة ايام الى مكان كنت اتوقع فيه ان التقي برجال كانوا يعتزمون ان يأخذوني معهم الى اواسط الجزيرة العربية. لقد وجدت ان اولئك الرجال كانوا قد غادروا ذلك المكان قبلا، نتيجة العفونة المطلقة التي تميز بها رفيقي العربي ذاك. وكانت نتيجة ذلك ان علي ان اذهب الى الكويت، وان اساق هناك امام الشيخ الذي كان عسوفا وعدوانيا هو الآخر، وان يعيدني الى البصرة.

«ومن ثم كان علي ان انفق كل نقودي، ولهذا كان علي ان اصرفها لانني لا استطيع ان اقدم على محاولتي مرة اخرى. لقد كان لدي وقت لكي اقتل تلك النقود، ولقد كنت امرض حين افكر بانها لاقيمة لها. انني الآن عائد الى الهند، ولسوف اعود الى الوطن في شهر حزيران المقبل ولمدة ستة اسابيع ان كان ذلك ممكنا . ولسوف احاول رحلتي هنا في الشتاء القادم، ذلك لان هناك فرصة بالطبع بان القوم سوف يخرجوني من الجيش تماما، او ان يوقفوا اجازتي لمدة سنة على اية حال.

ان الجو بارد جدا هنا، اننا على مقربة من «بوشهر». واعتقد ان هذا هو بريد عيد الميلاد ولذلك ابعث اليكم بتمنياتي الطيبة. انني ساعود الآن رأسا الى الوطن، ولكن لاول امر انني لا املك نقودا، وثانيا انني قد حصلت على اجازتي لهذا الغرض. اظن انه ينبغي لي ان اعود. ومع ذلك اخشى ان تحصل بعض المتاعب لانه لايسمح للاوربيين بالدخول الى الكويت، ومع انني قد غيرت هويتي جهد المستطاع، الا انني اخشى ان اكون معروفا بصفة جيدة، في هذه الاصقاع التي لن يعرفوا فيها من أنا.

لست اتطلع قدما الى جندية الشتاء كثيرا، لانني ادرك ان حظي قد مضى غير انه لن تكون لدي معونة على ذلك. محبتي الفائقة، وكل تمنياتي الطيبة بعيد الميلاد!»

ان الظروف التي احاطت بهذا الفشل الذريع الذي احاق بمغامرة لجمن، لابد وان تمنع معظم الناس من تكرار التجربة. ومع ذلك فان لجمن، على الرغم من خيبة امله المحزنة، لم يفقد جرأته، وبقي فكره منشغلا بافكار الاقدام على محاولة اخرى. وفي الوقت ذاته كان مضطرا الى ان يعود الى كتيبته، وان يجيب على عدم احترامه للسلطة . وهكذا استقر، لفترة قصيرة، بصفة ضابط في احدى الكتائب، وان يتهيأ لامتحان الترقية الذي سوف يحل في بداية شهر اذار سنة ١٩١٢. ولقد اجتاز ذلك الامتحان بيسر، وتلقى بعض الاخبار التي عوضته عن مغامرته الفاشلة، ذلك ان العقيد الذي كان يعمل تحت امرته، قد وافق على منحه اجازة يقضيها في انكلترا في نهاية شهر نيسان.

«الفصل السابع»
التهيؤ للمغامرة الكبرى

نيسان – كانون اول ١٩١٢

خلال الاجازة التي امضاها في لندن بمتعة تامة وطاقة معتادة، لم يفقد لجمن التطلع لحظة واحدة نحو هدفه الرئيس وهو تحقيق الرحلة التي اضطر الى الاقلاع عنها مؤخرا. ولذلك راح يضغط بالحاح لاكمال هذه الرحلة على جميع من يستطيعون مساعدته لانجازها باية طريقة كانت. وبفضل التوصيات القوية من لدن السلطات العسكرية في الهند، وقبل كل شيء ذلك السخاء، والدعم الذي لقيه من الجمعية الجغرافية، كانت آماله قد تحققت، ووسائله واجازته التي يتمتع بها قد هيأت له الفرصة كما يضع خططه قيد التنفيذ. واذ ذاك كان عليه ان يأخذ بنظر الاعتبار «ميناء الدخول» الذي يوصله الى البلد المطلوب، وعلى هذا قرر في النهاية ان يبدأ رحلته من دمشق

وعلى حدة من النفقات الزائدة وضياع الوقت الذي تستغرقه رحلة الى البصرة وبغداد، كان يأمل ان الرقابة عليه في العاصمة السورية، سوف تكون اقل شدة مما لوكان في البصرة وفي بغداد. لقد كان يعرف مدينة دمشق، والمنطقة المحيطة بها، معرفة حسنة. فلقد سبق له ان. قام برحلة ناجحة من هذه المدينة حين قام بمسيرته الشهيرة الى بغداد في سنة ١٩١٠ واذن فقد كانت دمشق، من اية وجهة نظر، مفضلة على اي مكان آخر في الجانب الشرقي الذي كان معروفا فيه معرفة جيدة.

غادر لجمن انكلترا في اليوم السابع عشر من شهر تشرين الاول، فوصل «برنديزي»[١] في اليوم التاسع عشر منه. كانت انطباعاته عن هذا الميناء مفضلة على غيره نوعا ما. فقد كتب يقول «ان هذا مرفأ بحري ولاشيء فيه على الرغم من ان «فرجيل»[٢] كان قد مات هنا ولذلك فلم اندهش. ولقد وجد الموقع حارا، مغبرا، وقذرا.

---

(١) BRINDISI من الموانئ الشهيرة في ايطاليا على البحر المتوسط

(٢) VIRGIL الشاعر الروماني الشهير ولد سنة ٧٠ق.م وتوفي سنة ١٩م واسمه الاصلي ببليوس فرجيلوس مارو. ولد في مانتوا شمالي ايطاليا في مزرعة ابيه وقد توطدت علاقته باكتافيوس الذي اصبح الامبراطور الاول لروما او غستوس. كان عليلا منذ صغره وقد طلب اليه الامبراطور اوغستوس ان يرافقه في رحلة الى بلاد اليونان فلبي طلبه لكن صحته ساءت فقطع الرحلة وعاد وتوفي في مدينة برنديزي. وضع ملحمته الشهيرة الانياذة «التي كانت ثالثة ملحمة شعرية له والتي تروي قصة» «انياس» «بعد سقوط «طروادة» وقد ترجمت لاول مرة في ١٩٧٥ الى العربية على يد الاستاذة «عنبرة سلام الخالدي» وطبعتها دار الملايين في بيروت

وفي اليوم الخامس والعشرين من تشرين الاول، كان لجمن في دمشق، بعد رحلة مريحة نسبيا، وان كان مع ذلك قد وجد فيها اساسا للشكوى، لانه وان كان قد احتمل كل مشاق السفر واعباءه المضنية في اراضي مجهولة بكل صبر، بل وحتى بالتقبل والرضا، الا ان المصاعب البسيطة للسفر الحديث كانت تضايقه بمنتهى الشدة.

سبق للجمن ان اكمل المزيد من قبل. فلقد جاب شرقي الامبراطورية العثمانية حتى غربها، وعرف الكثير من الاماكن التي تقع على اي جانب من الطريق الذي كان يقطعه. فلقد استدار حول ارمينيا وكردستان، والزاوية الشمالية الغربية من بلاد فارس. ولقد اجتاز الصحراء من دمشق الى بغداد، وقطع ستمائة ميل حتى الى الجنوب من كربلاء. اما الأن فقد قرر ان يغوص عميقا في قلب الجزيرة العربية.

ولغرض ان ينجز هذه الرحلات فقد كان يعمل وفق خطة محددة، كما يقلص من خطر الاخفاق، بل انه اعد نفسه لان يضحي بمسلكه العسكري في سبيل ان يحقق مهمته التي فرضها على نفسه. كان لجمن عسكريا حاذقا وصلبا. لقد تحقق لديه، مثل كثيرين غيره، ان الحالة في الشرق الاوسط، اذا ما اخذت من وجهة العلاقة مع امبراطوريتنا في الهند، لايمكن ان تعتبر متزنة الا قليلا

لقد كان واضحا للكثيرين بان الحرب الاوربية المقبلة، والتي كانت وشيكة الوقوع بكل وضوح، ولم يتم تجنبها في سنة ١٩١١، الا باضيق الحدود، ان هذه الحرب سوف تؤثر حقا تأثيرا حيويا في اهتمامنا بالجزيرة العربية او في بلاد فارس، ان لم تكن في هاتين المنطقتين معا. فقد كانت تركيا صديقة لالمانيا، وكانت المطامح الالمانية تتطلع الى ان تمد نفوذها الى الخليج العربي.

كانت الاستنتاجات واضحة كل الوضوح، وكان لجمن قد تحقق بسرعة من الاحتمالات المتوقعة للوضع. ولذلك اعد نفسه بصفة متعمدة، لان يقوض نفوذ تركيا والمانيا بين الشعب العربي ، واصبح شوكة دائمة في جنبي تركيا والمانيا.

والحقيقة ان مهمة لجمن كانت مهمة هائلة. ذلك ان المركز الممتاز الذي احرزته المانيا في الامبراطورية التركية قد ساعد عملاءها، وكذلك عملاء النمسا على ان يتدفقوا على البلدان التي تؤلف الممتلكات العثمانية. فما ان تزود هؤلاء العملاء بالمال بمنتهى السخاء، حتى اصبحوا طيلة سنوات يحصلون على المعلومات عن الجزيرة العربية، ويبحثون عن النفوذ بين رؤسائها لكي يشاركوا تركيا.

ولقد تم اختيار العملاء الالمان اختيار حسناً لكي يخدموا بلاد آبائهم بمقدرة وجرأة مبرزتين. اما لجمن فانه دخل قائمة العملاء كمغامر فرد وغير مسلح سوى تسليح ضعيف. ومع ذلك فبالنسبة الى الجزيرة العربية الاصلية، والى العرب من سكان الارياف في بلاد الرافدين،

استطاع ان يحطم التنظيم الالماني والتركي، الى درجة ان العميل الرئيس لدى الالمان والاتراك[٣] قد ادرك ان كل ماعمله، قد ذهب هباء بفعل النفوذ الذي اصابه هذا الانكليزي المنفرد المغامر.

كان لجمن، الذي يمقت سكان المدن، يتطلع الى توسيع النفوذ البريطاني عن طريق رؤساء البدو واتباعهم، غير ان تطلعه هذا ابعد مايستطيع ان يحققه في هذه المرحلة من سلوكه العربي. وفي الوقت ذاته فانه كان يهيئ نفسه لان يصبح اداة يمكن استخدامها حين تحل اللحظة الصائبة.

وفي اليوم الثاني من شهر تشرين الثاني كانت جميع الترتيبات اللازمة لرحلته قد كملت. وفي ذلك اليوم كتب آخر رسالة قبل مغادرته فعلا في اليوم التالي. ومما ذكره في رسالته تلك قوله «انني مغادر غدا بدءا باسفاري. لقد صادفت مشقة كبيرة في العثور على اي انسان للذهاب معه. ولكم كانت فرحتي بالثقة حين دخل الفندق في صباح احد الايام رجل عربي اعرفه حق المعرفة. كان قد وصل على التو من بغداد في اليوم السابق. ولقد ابدى موافقته على ان يسافر معي الى اي مكان كان.

«ولقد حصلت على رجل آخر، واشتريت ثلاثة ابل. انني ذاهب الأن الى قرية «دمير»[٤] على بعد عشرين ميلا من هنا عند حافة الصحراء. ولسوف اغادر من هناك على ظهور الابل باتجاه بغداد خلال الايام الاربعة الاولى، ومن ثم اتجه نحو الجنوب. ولسوف اكون اقل قلقا حين انطلق نحو الجنوب، لان الانسان يتوقع ان تحين فرصة لسلبه في الجزء العثماني من البلاد. ان الامور في وضع سيئ هنا ذلك لانه لاتوجد اية انباء اطلاقا عن الاندحارات الشديدة التي اصيب بها الاتراك هنا، غير انني سمعت اولى الانباء هذه الليلة بصفة خاصة. اعتقد بان المسيحيين في هذه الاصقاع ليسوا في وضع امين جدا.

«لدي فكرة بان رسائلي قد توقفت، لانني لم اتسلم اية رسالة بالكاد حتى هذا التأريخ من الوطن سوى رسالة واحدة. لقد انبأت القوم هنا بان يحتفظوا برسائلي هنا الى ان ابعث من يتسلمها، او تحويلها الى دمشق. واذا لم يقع اي امر غير منظور، فانني اشك فيما اذا استطيع ان احصل على رسالة قرب البصرة، او الكويت، ولكنني سوف ابذل جهد طاقتي لذلك، غير ان من العسير عليكم ان تتوقعوا ذلك

---

(٣) هو الهر بروسر: من اعاظم الجواسيس الالمان في الشرق قبيل الحرب العالمية الاولى. كان العثمانيون يطلقون عليه اسم «البدوي». ولقد نجح ثلاث مرات في زيارة مصر، والدخول الى مقر القيادة الانكليزية في القاهرة من دون ان يكتشف امره.

(٤) دمير: بليدة تابعة لقضاء حلب وتقع على الطريق الذي يبدأ من سوريا باتجاه الجزيرة العربية او العراق والنسبة اليها «دميري»، ولا علاقة لها ببلدة «دميرة» في منطقة الدقهلية بمصر التي ينتمي اليها «كمال الدين الدميري» صاحب كتاب «حياة الحيوان الكبرى».

واذا ما سارت جميع الامور سيرا حسنا، فانني سوف اغادر البصرة او الكويت في غضون ثلاثة اسابيع، وعلى هذا فاذا لم تسمعوا عني شيئا، في مدى شهرين، فان عليكم ان تدركوا بانني قد انطلقت، على اكثر احتمال، الى اواسط شبه الجزيرة العربية. ان المطر يتساقط هنا، وان الطرق مخيفة. آمل ان يتحسن الوضع حالا، لانه من غير المريح ان يتم السفر على ظهر بعير اثناء المطر، لانه يتزلج في المكان الذي يسير فيه. ملاحظة: ان هذا لن يحدث الا اذا غادرت دمشق!».

يتضح من رسالة لجمن هذه شدة حذره من التحدث عن مغادرته والمكان الذي يقصده بحيث ينبغي ان لايكون ذلك معروفا لدى الاتراك. ولما كان لجمن قد دون وصفا موجزا لهذه الرحلة الهامة في رسالته تلك، فلسنا نستطيع ان نروي ذلك بافضل من كلماته الحقيقية هو. اما البيان الذي سوف يأتي في الفصل القادم، فانه قد تم نشره من قبل الجمعية الجغرافية في العدد الصادر من صحيفتها في شهر ايار سنة ١٩١٤، والذي اعدنا نشره هنا بعد ان حذفنا منه التفصيلات الجغرافية، والمعلومات الجيولوجية الخالصة، والتي لاتحظى الا باهتمام ضئيل من لدن القارئ الاعتيادي. وما خلا ذلك فان بقية البيان قد تم نشره تماما.

«الفصل الثامن»

رحلة عبر اواسط الجزيرة العربية

قام بها النقيب . ج . لجمن من كتيبة سوسيكس

تشرين الثاني ـ كانون الاول سنة ١٩١٢

قال لجمن في صحيفة الجمعية الجغرافية مايلي «ان الرحلة التي يجري وصفها هنا، قد تمت في الاشهر الاخيرة من سنة ١٩١٢. وكان هدفي منها، ان اسافر، ان كان ذلك ممكنا، من دمشق باتجاه الجنوب الشرقي، الى اسوار «لينا» التي بلغتها في مرحلة سابقة، ومن ثم اضرب في الارض جنوبا، حتى ابلغ «القصيم». وانني ساحاول في الوقت المناسب ان اصل الى الرياض العاصمة الجنوبية للجزيرة العربية.

ومن الرياض آمل ان اتغلغل الى داخل الاراضي التي لم تكتشف على الاطلاق، من «صحراء الربع الخالي». غير ان هذه المحاولة قد برهنت في النهاية على انها كانت مستحيلة. كنت قد غادرت دمشق في بداية شهر تشرين الثاني بطريق كان يتم تعقبه الى ماقبل شهر سابق، من قبل الابل التي تحمل البريد، والتي اعتادت ان تقطع خمسمائة ميل نائية من الصحراء بين دمشق وبغداد في مدى تسعة ايام، ولكنها كانت تنقطع.

اما المسافرون الذين كانوا يقطعون مثل هذه الرحلة مع البريد ، فانهم لابد وان يتذكروا نوعية الكابوس الذي يمثله الركوب. ذلك لان هذا الطريق قد تم التخلي عنه نتيجة الغارات المتواصلة التي يقوم بها البدو، وضياع البريد الذي ينجم عن ذلك، حيث يجري نقل اكياس البريد بطريق اطول، لكنه اكثر امنا، عبر حلب. ولقد اصطحبت معي فريقا مؤلفا من عشرين رجلا من افراد عشيرة «عقيل» كانوا عائدين الى مواطنهم في القصيم

هناك الكثير من الخلاف في الرأي بالنسبة الى كلمة «عقيل». فبعض الكتاب القدامى يعتقدون بان الاسم يطلق على احدى القبائل في اواسط الجزيرة العربية. ولقد ظهر بان الاسم كان يستعمل لوصف اولئك الاعراب من سكان القصيم، الذين يشتغلون بتجارة الابل، والخيل، ويتاجرون بين الكويت، وبغداد، ودمشق ، ومصر ومهما كان الاسم الحقيقي الذي يستعمل ، فالواقع ان افراد عقيل في مقدورهم ان يجتازوا خلال الجزء الشمالي كله من الجزيرة العربية من دون ان يخافوا غارات طوائف البدو. ولقد استطعت على الفور ان اجرب هذا الامر.

بعد ان خلفنا وراءنا قرية «دمير» وهي القرية التي تقع في اقصى الشرق من سهل دمشق، كانت الطريق تمتد فوق سهول حصبائية، تتقطعها مصادفة، حافة طويلة منحدرة. كان البرد

القاسي جدا تتم تجربته في هذه السهول اثناء الشتاء، وكانت «القرب»[١] تبدو على الدوام متجمدة صلدة عند الصباح، ولذلك كان علينا ان نذيبها بواسطة النار، قبل ان نحملها، والا فانها سوف تحدث خدوشا في جوانب الابل.

وفي الليلة الثانية لخروجنا من «دمير» كنا نتعقب طريقنا عبر الظلام نصف نيام، حين انحرفت ابلنا، ومن دون سبب واضح، الى احد الجوانب. لقد اكتشفت فريقا اخر يقترب منا. وسرعان مارفع بعض من جماعتنا عقيرتهم هاتفين «سلاحكم. سلاحكم!»[٢]

لقد بدا ان هذا التحذير كان في منتهى الحكمة، لاننا لانملك سوى ثلاث بنادق، اما الفريق الاخر الذي لم يكن ليبعد مائة «يرد» عنا فقد سمعوا النداء، وردوا عليه على الفور، بان اطلقوا النار الى داخل الحشد الاسود الذي تمثله الابل. ولم يلبث نداؤنا ان تحول عندئذ الى كلمة «عقيل» فانقطعت النيران حالا.

اقترب الفريق الاخر منا، وقد تبين بكل وضوح بانه كان فريق «غزو»[٣] او جماعة مغيرة من قبيلة بدوية تدعى «ولد علي» كانت عائدة من حملة غير ناجحة. يكون «الغزو» نشطا جدا ايام الشتاء، لان الغزاة في ذلك الوقت يستطيعون ان يعثروا على الماء متجمعا في بقع غير متوالية من آخر امطار تكون قد سقطت، ولذلك فانهم غير مجبرين على ان يزوروا مواقع المياه المعروفة، والتي تكون على الدوام مصدر خطر عليهم.

و«ولد علي» فرع من «الرولة» احد فروع عشيرة عنزة الكبيرة جدا. وتحتل الرولة الجزء الشرقي من الصحراء السورية، والذي يجتازونه للقيام بغارات على الفروع الاخرى من «عنزة:، من فرع «العمارات» المعادين له. ويندر ان يتجاوز عدد الرجال الذين يقومون بهذه الغزوات الصغيرة، اثني عشر رجلا، يقطعون مسافات طويلة في حملاتهم تلك.

ولقد جوبهنا، في اليوم التالي، بفريق آخر من «ولد علي» يقوم بغزوة في جوار «ديرالزور» على بعد ثلثمائة ميل من «ديرتهم» الاصلية. وقد جلبوا معهم كثيرا من الابل التي نهبوها.

واذ توغلنا بصفة اكثر في الصحراء السورية، حتى اصبحت الارض اكثر قفرا، وفي المكان الذي يقطع فيه الطريق الزاوية الشمالية من «الحماد»[٤] يندران يرى اي اثر للكلأ طيلة القسم الاعظم من ايام السنة، ذلك لان السهل مغطى باحجار الصوان السود، والذي يكون متعبا لاقدام الابل. اما في فصل الربيع، فان الصحراء كلها تكون مغطاة بالعشب الذي يرتفع الى حد القدم.

---

(١) كتب المؤلف كلمة «قرب» باللفظ العامي «جربات» JIRBAS

(٢) كتب المؤلف هذه الكلمة باللفظ العربي SILAHKUM

(٣) ذكر المؤلف كلمة «غزو» باللفظ العربي لكنه كان يضيف اليها دوما الحرف R على الشكل التالي GHRAZZU

(٤) كتب المؤلف كلمة «حماد» باللفظ العربي HAMAD

وفي اليوم الخامس من مسيرتنا من دمشق، وفي اراضي تتقاطعها وديان[٥] تمتد من الشمال نحو الشرق، افترقت جماعتي عن جماعة «عقيل» التي واصلت سفرها في طريقها الى بغداد. فهؤلاء لايهتمون بان يحققوا الارباح من ابلهم التي يبيعونها خلال هذه الصحراء بانفسهم، ولذلك فانهم يحصلون على تحاويل من دمشق الى عرب موجودين في بغداد، ومن تلك المدينة يسافرون بالباخرة الى البصرة والكويت، ومن هناك يرافقون القوافل الى «القصيم». ومن هذه النقطة على طريق دمشق – بغداد، بدأت رحلتنا الحقيقية للتغلغل الى اواسط الجزيرة العربية.

اصبحت جماعتي تتألف الآن، من رفيق عرفته في سفرات سابقة يدعى «صالح» من «عقيل»، وشابين من «القصيم»، فاصبحنا نؤلف اربعة اشخاص. واذ كنا على وشك ان نجتاز اراضي «عنزة» و«شمر» البدويتين، اصطحبنا رجلا من كل من هاتين العشيرتين كما ييسران لنا امر اجتياز تلك الاراضي من دون التعرض لخطر الجماعات المغيرة. ففي الجزيرة العربية، يكون من اللازم اصطحاب مثل هؤلاء الرفاق خلال الطريق[٦]

انتهت نقطة مغادرتنا لطريق دمشق – بغداد الطويل، عند آبار «غارا» اوكما يسمونها احيانا باسم «ملوسي» او «بيرملوسي» على معظم الخرائط. وفي بئر «المات». كان الماء على مستوى ثلاثين قدما الى اسفل. وهنا كان بعض «الصليب»، نور الصحراء، منهمكين بارواء حيواناتهم استعدادا لتحرك مخيمهم. لقد تلق هؤلاء بطريقة سحرية، انباء بان مخيماً بدويا كان يتحرك باتجاه تلك الابار ذاتها، والصليب يمقتون الاقتراب من البدو الذين يستولون على مواشيهم ودوابهم.

لاتوجد معرفة محققة محددة عن اصل هؤلاء «الصليب» وان كانت نظريات مختلفة عن ذلك قد وردت قبلا، واحدى هذه النظريات تقول ان «الصليب» يتحدرون من الصليبين، وان الاسم يعني الصليب رمز المسيحيين. ويجهل الصليب انفسهم اصلهم، ولكن البدو مغرمون بالادعاء بان الصليب، ينتمون الى «الانكليز»[٧] فقد عثر عليهم في الجزء الشمالي من الصحراء العربية وعلى المنحدرات القائمة بين الخليج العربي ونجد وفي المنطقة الغربية من نجد ايضاً. ولا يبدو عليهم بانهم يقومون بزيارة الصحارى الجنوبية.

وتتألف مخيماتهم عادة من حوالي عشرين خيمة، ومن حجم اصغر من حجم الخيام التي يستخدمها البدو، وانهم ينصبون خيامهم بصفة عامة على مسافة مامن محلات الارواء التي

---

(٥) كتب المؤلف كلمة «وادي» باللفظ العربي WADI

(٦) كتب المؤلف كلمة رفيق باللفظ العربي RAFIK

(٧) ANGLEZ ونضيف الى هذان بعض هؤلاء الصلبة الذي كانوا يفدون على مناطق تكريت وبيجي في بعض مواسم الربيع قبلا، كانوا يعترفون بانهم من بقايا الصليبيين وبينهم عدد من الانكليز. غير اننا لانستطيع ان نقطع برأي نهائي في هذا الموضوع اذ لابد من دراسة موسعة عنه

لايعرفها سوى الصليب انفسهم . وهم يحتفظون بقلة من الابل، وينقلون حوائجهم وانفسهم على ظهور الحمير، التي تتحمل العطش، بكل جلاء، بذات الطريقة التي يتحمل بها البعير. ولا يغير البدو عادة على الصليب، ولكنهم يحصلون على وفادة واسعة منهم. وتتشابه مظاهر الصليب تشابها كبيرا، ولكنهم يتحدثون بصوت مرتفع الطبقة، وكلهم في وقت واحد عادة.

ويتحدث البدو عن جمال نساء الصليب ، ولكن شهرتهن ليست حسنة! . ويرتدي الرجال منهم عادة ملابس اشبه بالسمق (٨) مصنوع من جلود الغزلان، مع قلنسوة لتغطية الرأس. ولقد قيل عنهم بانهم بهذا اللباس يستطيعون ان يقتربوا ضمن باردات قليلة من قطيع من الغزلان، ونادرا مايفشلون في المطاردة خلسة. اما اسلحتهم فانها من طراز قديم جدا من البنادق ذوات الفوهات التي يكون طول الحاشي فيها ستة اقدام غالبا. ولذلك فلا تتوفر لدى الصياد سوى فرصة ضئيلة على اية مسافة. ولقد شهدت المطاردة في الرمل حيث يروح الصياد يدب لمسافة حوالي ميل في اقترابه من احد القطعان.

واذ غادرنا بئر «المات» واتجهنا نحو الجنوب بصفة اكثر، اصبحنا قادرين على ان نتجنب الارض المتكسرة نتيجة الوديان (٩) التي تؤلف المنطقة المعروفة لدى العرب باسم «الوديان». ولقد جاب منطقة الوديان هذه مؤخرا الرحالة النمسوي «الدكتور موتسل» (١٠) الذي تغلغل خلال هذه الكتلة من الاودية التي كان حتى البدو يجدون مشقة مافي تسميتها،

بعد مسيرة استمرت ستة ايام من دون ماء، وصلنا الى بعض الابار في واد يعرف باسم «اغرار» او «عرعر»، وهنا يوجد مخيم كبير للصليب، كان احدهم رفيقا للدكتور موتسل في وقت ما، ومن الواضح انه لم يكن ممن يعتمد عليهم جدا. وكان شيخهم مشهورا بانه كان شاعرا، وفي مستطاعه ان ينظم الابيات التي تحظى برضى اي شخص يتوقع ان ينال منه مكافأة ما.

وبعد ان اضطجعت في الليل سمعت هذا الشيخ يحدث صديقي «صالح» بانه قد نظم الآن قصيدة عني، وانه كان يتساءل عن المبلغ الذي ينبغي لي ان اهبه اياه. ولقد انشدت القصيدة امامي على الفور عند انبثاق فجر بارد جدا وبهيج، على انني اخشى ان لاتبلغ مكافأتي له الى توقعاته.

في هذه المناطق عبرت الطريق الذي سار فيه كل من النقيبين «ايلمر» و «بتلر» (١١) حين

---

(٨) السمق SMOCK ثوب خارجي فضفاض يرتدى لوقاية الملابس من الانساخ- قاموس المورد

(٩) ذكر المؤلف كلمة الوديان هنا باللفظ العربي اما بصفة WADIAN او WADI

(١٠) لم يكن الدكتور موتسل نمساوي الاصل وانما كان جيكوسلوفاكيا، يعمل لمصلحة الاستخبارات الامريكية، كما اشرنا الى ذلك في هامش سابق

١) BUTLER . AYLMER من الرحالين الانكليز في الجزيرة العربية في القرن التاسع عشر

انحدرا من «هيت» الى «الجوف» في سنة ١٩٠٩. فمن هذه النقطة شرقا حتى آبار «الحزول» لم يعرف ان اي رحالة اوربي قد اجتازها. ذلك لان طبيعة الارض تتغير، فالسطح الحصباني يفسح الطريق لسبل من حجر الجير المتفككة على مستويات متفاوتة كثيرة، وتلال واطئة.

وتشاهد هنا اعداد من الطيور والحيوانات، من امثال الدراج، والسمان او السلوى، والارانب البرية، والحبارى[١٢] وقطعان كبيرة من الغزلان.

وهناك ايضا كميات نادرة ومتنوعة من الافاعي، تعتبر سامة من لدن العرب، لانه لاتوجد افعى غير سامة في نظرهم.

بعد مسيرة اربعة ايام باتجاه الجنوب الشرقي وصلنا الى ابار «الحزول» وقبل ان نبلغ هذه الآبار بحوالي اثنى عشر ميلا، دخلنا المنطقة التي سماها العرب المصاحبون لي باسم «وادي الخر» والتي لايمكن ان توصف على وجه الدقة بالوادي، ويبلغ عرضها حوالي اربعة اميال.

واذا اخذنا بنظر الاعتبار ما اذا كان وادي الخر يؤلف طريقا بين «الجوف» المركزية الكبرى والنجف على نهر الفرات، ام لا، فانه لاتوجد في الوقت الحاضر حتى ولا طريق قوافل محددة، تستخدم بهذه الصفة بين الجوف والنجف، لان الناس الوحيدين الذين يقطعون هذه الطريق اما من الافراد الذين يمتطى كل واحد منهم بعيرا، او من افراد عشيرة عقيل.

ومثل هؤلاء المسافرون قد يقطعون مسافة الثلثمائة ميل بين الموقعين في مدى خمسة او ستة ايام، وقد يتوقفون خلال الصيف عند آبار «عرعر» ومن ثم يتخذون سبيلهم راكبين رأسا الى مدينة النجف، في حين يحتمل انهم لا يرتوون اثناء الشتاء على الاطلاق الى ان يبلغوا نهر الفرات.

لقد علمت الآن بان «الجوف» الواحة الرئيسة في شمالي الجزيرة العربية، قد سقطت في يد «ابن سهيلان» شيخ الرولة، احد فروع عنزة» تلك القبيلة البدوية الكبيرة التي تجوب الاراضي الواقعة شمالي غربي «الجوف» حتى حدود دمشق، بل وحتى نهر الفرات.

والرولة الآن معادية لفرع «العمارات» الفرع الكبير الاخر من «عنزة» والذين يغطون الاراضي الممتدة الى الشمالي الشرقي والى نهر الفرات في ذلك الاتجاه واكثرية الآبار الصحراوية الى هذا الجزء من شمالي الجزيرة العربية التي تجري زيارتها تكون ضيقة جدا عند السطح، ويندر ان يزيد عرضها عن ثلاثة اقدام في حين انها تتسع عند الاسفل. وعلى امتداد فم البئر، يوجد حوض يصب الماء فيه حين يبلغ السطح. وهنا يشرع البعير يرتوي بنفسه في منظر شهير بعض الشيء، حتى وان كان صاديا، كما يفعل ذلك في صفة مسترخية، ويبدو عليه بانه يستمتع تماما بلذة الشرب الطويل للماء بطريقة الخبير المتأنق في اختيار المأكل والمشرب!

---

(١٢) كتب المؤلف كلمة حبارة جمعها حبارى باللفظ العربي HOUBARA

في اول الامر يبلل البعير شفاهه، ومن ثم يرفع رأسه، ويشرع يهزه وينظر حواليه. وبعد تأن يشرع بالشرب اكثر من ذي قبل، ويكرر ذات العملية وبذلك يتم ابتلاع كل نقطة من ذلك السائل الثمين بتلذذ تام. اما في ايام الشتاء فان البعير قد يستمر سبعة ايام من دون ماء، ومن غير ان يحس بفقدان الراحة لذلك، في حين انه نادرا مايذوق الماء ايام الربيع حين يظهر العشب الاخضر، ويبقى حوالي شهرين دون ان يحتاج الى الماء.

اما بالنسبة الى الطعام فان ساعة واحدة او مايقاربها في كل يوم من الرعي غير الكثيف جدا، يكون كافيا للبعير للقيام برحلة قصيرة الامد. ولقد اعتاد افراد «عقيل» ان يحملوا معهم مزيجاً من السويق ودقيق خشن، يسمونه «عليج»[13] الذي يصنعونه كل ليلة على صفة كرات صغيرة بحجم قبضة الرجل، ويقدمون حوالي خمسا الى ست منها لابلهم. اما في جنوبي بلاد نجد، فان العرب يصنعون التمور في صفة كرات، كما يستعملون الاحجار، وكل ذلك في صفة نافعة وشهيرة للعلاج.

يكون البدوي محباً بصفة غير اعتيادية لابله، ومقابل ذلك يكون البعير العربي حيوانا يختلف جدا عن تلك الحيوانات سيئة الاعداد، والمؤذية التي يواجهها المرء في الهند. ذلك ان البعير العربي لايعض، ولا يرفس، ويندر ان يجأر بالشكوى، وحين يتم امتطاؤه لايظهر اي نوع من التذمر او الامتياء.

اما قوته على التحمل فانها تكون من الامور النادرة، وان بعض القصص التي تروي عن الرحلات العظيمة التي تقطعها الابل، تكون خارج نطاق التصديق!.

اما راكب البعير، الذي كان واجبه ان ينقل البريد بين دمشق وبغداد، بصفة عامة، فانه يقطع مامعدله ستين ميلا في اليوم، طيلة تسعة ايام، تمثل مهمة طيبة. وغالبا ماتروى احدى القصص عن راكب بعير يحمل انباء مستعجلة جدا الى احد رؤساء ابن الرشيد في الرياض في تلك الايام، وقد قطع مسافة تسعمائة ميل بين النجف والرياض في مدى ستة ايام، ولكن البعير مالبث ان نفق حين وصل الرياض. ويتحدث الرحالة «بركهارت»[14] عن بعير قطع مائة

---

(١٣) كتب المؤلف كلمة «عليج» وتعني طعام الحيوان، باللفظ العامي ALEJ

(١٤) بركهارت BURKHARDT اسمه جان لوي بركهارت سويسري ولد في لوزان سنة ١٧٨٤ ودرس في الجامعات الامريكية وجاء الى لندن في سنة ١٨٠٥ حيث تعرف على السر جوزف بنكس الذي شارك في اكتشافات افريقيا، ومنحه سخاءه ولم يلبث بركهارت بعد سنوات ان قام برحلة الى الديار المقدسة في الحجاز في سنة ١٨١٤ ابتدءا من مدينة الطائف وحاول ان يحصل هناك على جواز من الخديو محمد علي الكبير، حيث اصطحب دليلا ذهب به الى مكة ايام الحج فطاف بين الصفا والمروة، وطوف بجبل عرفات. وقد صادفت جولته في الوقت الذي كان فيه اهل الحجاز يتوقعون حملة محمد علي باشا الكبير ضد الوهابيين ولذلك عاد الى مصر بعد ان اعتنق الدين الاسلامي في شهر تشرين الاول ١٨١٧، وفي اليوم الخامس عشر منه توفي بعد اصابته بالدزانتري ولم يكن قد تجاوز الحادية والثلاثين من عمره، وقبل وفاته بعث بكل ذكرياته عن اسفاره في افريقيا والجزيرة العربية الى لندن وكان من بينها «رحلات في الجزيرة العربية» التي صدرت في سنة ١٨٢٩ اضافة الى «ملاحظات البدو والوهابيين» و«الامثال العربية» وغيرها

وخمسة عشر ميلا في مدة احدى عشرة ساعة.

ولقد قطعت طريق الحج بين بغداد ومكة، والمعروف باسم «درب زبيدة» وهو ذات الطريق الذي قطعه «بلنت» في سنة ١٨٧٩، و«هوبر» في سنة ١٨٨١، حين سافرا من حايل الى بغداد. واذ غادرنا «النفود» في اليوم الرابع من «الحزول» فقد هبطنا في منخفض تقع فيه آبار «لينا».

ولقد مررت بهذه الابار الشهيرة في رحلتي التي قمت بها في سنة ١٩١٠، وفي ذلك الوقت، ونظرا لسقوط امطار الشتاء، كان ذلك الوادي مغطى كله بالاعشاب التي ترتفع الى مدى قدم، وفي جواره تنتشر الالاف من خيام البدو اما الآن فلا نشاهد نصلا لواحدة من الاعشاب، او حتى شجيرة من شجيرات الصحراء ويبدو ان الماء في هذه الآبار وفير، اذ انني وجدته الآن في ذات المستوى الذي رايته في سفرتي السابقة، وان كان مذاقه مالحا بصفة خفيفة. وفضلاً عن ذلك فان للعرب مقولة تجري على النمط التالي «لينا لينا مثل العجينة غدا باللينة، عشا بالبصرة!»[١٥] وهذا يعني ان مياه آبار لينا لها تأثير مماثل لنوع معين من الخبز الفاخر، وانه ينعش المسافر، فالمرء الذي يتناول فطوره في لينا سوف يسير بسرعة الى درجة انه سوف يتعشى في البصرة، التي تبعد مسافة مائتين وخمسين ميلا.

وما ان غادرنا ابار لينا حتى دخلنا على الفور صحراء الدهناء، وقد اطلق هذا الاسم على قطاع رملي تخلف هنا من صحراء النفود. وفي هذا الجزء من صحراء الدهناء وصلنا مخيما لاعراب من «سنجار» وهم فرع من «شمر»[١٦]. وينهال التساؤل عادة عن مختلف القبائل العربية، وعن سقوط المطر في البلد، وعن وجود الفرق المغيرة من البدو، ومدى قربها، وغير ذلك من الامور الاعتيادية الاخرى التي تهم البدو.

واذ كنت غير راغب في زيارة الشخص الذي استضافني سابقا، وهو «ابن الرشيد» رئيس شمر والذي عاصمته هي مدينة «حايل» والذي منعني من السفر الى هناك قبلا. فقد وجدت من غير المستحسن ان اعترف بانني انكليزي، ولكنني وجدت من اليسير تماما ان اقدم نفسي بصفة «موصلي»[١٧] او احد سكان مدينة الموصل في شمالي العراق.

والواقع ان لغتي العربية لاتقدم ولا تؤخر شيئا في الامر، ولا يبدو عليها بانها غريبة، او ان تثير اية شكوك في اذهان هؤلاء الناس. ولقد وجدت الشيء ذاته في بعض مدن اواسط الجزيرة العربية، حيث خيل الي انه من الافضل ان اخفي هويتي، ووجدت ان العقبة الوحيدة امامي هي

---

(١٥) LEINA MITHAL AJINE GADANA BELIENA ASHANA BIL BASRA

(١٦) عرف هذا الفرع من شمر باسم سنجارة او الخرصة وهو القسم الاول من شمر الجربة وقد اطلق اسم الجربة على شمر هذه. لان اول من نزح من نجد الى العراق من شمر هو فارس الذي اشتهر باسم فارس الجربة نسبة الى امه التي اصيبت بالجدري فعرفت باسم «الجربة» (البادية لعبد الجبار الراوي الطبعة الثانية ص١٢٧ والمعروف ان هذا الفرع من شمر ينقسم الى ثمانية افخاد.

(١٧) كتبها المؤلف «مصلاوي» وهو اللفظ الدارج لدى العامة في العراق MUSLAWI

اني لست اعرف الاسعار الدارجة للابل، والاطعمة وغيرها، في بغداد، ودمشق، وهو السؤال الذي يطرح دون تغيير على اي قادم جديد يزعم انه من اهالي تلك المواقع.

بعد ان غادرنا الدهناء، عبرنا منطقة تدعى «طعيسات». ومعظم هذه المنطقة مؤلفة من صخور كلسية شبيهة بمنطقة «الحجيرة»، وعبر هذه الصخور خط من تلال حجرية تصل في النهاية الى آبار «الزبير» ويطلق الاعراب عليها اسم «طريق» ويصعب تفسير وجود هذه التلال الا اذا استطاع احد الملمين بالعصور القديمة ان يؤلف طريقا من احجار متناثرة. ويقول الاعراب عن هذه التلال انها من عمل «زبيدة» زوجة هرون الرشيد، المحسنة العظيمة في هذا الجزء من العالم

واذ غادرنا الزبير دخلنا قطاع ارض رملية تعرف باسم «الارض المدهونة» بدت لي انها تؤلف حقا مصائب للمسافرين اعظم مما كنت قد صادفته قبلا. فمن هنا وطيلة مسيرة يوم فوق سهل حصبائي، يصل الجمع المسافر الى القصيم» وعلى بعد ثمانية وعشرين يوما من دمشق، حيث بلغنا عند منتصف الليل ضواحي «قصيبة»(١٨) المدينة التي تؤلف الحدود بين بلاد «ابن الرشيد» امير شمر، وبلدة «القصيم».

وقبل ان اصف رحلتي الاخرى الى اواسط الجزيرة العربية، يبدو من المستحسن ان اعطي بعض المعلومات عن القوة الحاكمة وعن السياسات المتشابكة في هذا الجزء من البلاد. وينبغي ان يوضح في البدء ، بان الجزء المأهول من اواسط الجزيرة العربية يعرف باسم «نجد»، وان هذا الجزء ينقسم الى قسمين كبيرين، بحد دائم التغير ابدا. فالجزء الشمالي من امارة «شمر» او مملكتها، يقع في ايدي عائلة ابن الرشيد، وهو عضو كان يعمل في الايام السابقة، حاكما لهذه المناطق ، وكان تابعا لمملكة «ابن سعود».

ولقد انفصل احد هؤلاء الحكام عن سيده، وقام بجمع القبائل البدوية الشمالية ، بما فيها «شمر» و«حرب»، والف هذه الدولة الشمالية الكبيرة التي كانت «حائل» عاصمة لها. اما القسم الجنوبي او المملكة الوهابية، التي كانت في ايدي ابن السعود، فقد كانت قاعدتها في الرياض، وكانت هاتان المملكتان في الغالب، في حرب دائمة بينهما.

(١٨) القصيبة تقع في الشمال الشرقي من القصيم العليا وفي مكان منخفض فيه مياهها غزيرة لكنها ملحة فيها عين ماء حارة وبساتين واسعة جيدة الثمار عدد سكانها ثلاثمائة نسمة يسكنون في اربع محلات متجاورة

كان مثار النزاع بين المملكتين عادة، هي المنطقة المعروفة باسم القصيم والتي تقع في منتصف الطريق بين العاصمتين. فهنا تقع مدينتان كبيرتان مستقلتان هما (عنيزة)[19] و(بريدة)[20] مع عدد كثيف من القرى المجاورة لها. وتضم المنطقة اناسا من الرحالين، والجواسيس، والمحبين للحروب، الذين يتصلون باحد الجانبين المتنازعين، ويحققون النصر بذلك عادة للدولة التي يقفون الى جانبها.

ولقد ادعى الاتراك انفسهم بالسيطرة على القصيم، ومع انهم قد دحروا في مناسبتين، في سنة ١٩٠٤ على ايدي القصيميين، الا انهم استولوا ، بصفة اسمية، على القصيم لمدة سنتين، قبل ان ينسحب جنودهم منها او يخلوها. وعند جلائهم عن القصيم في سنة ١٩٠٦، اصبحت هذه المنطقة تابعة لابن السعود، وبقيت على ذلك حتى الوقت الحاضر. على ان ابن الرشيد وابن السعود يعيشان الآن في سلام، ولو ان المدة التي سوف تستمر فيها هذه الحالة ، تعتبر من الامور المشكوك فيها.

يمتد خط الحدود بين مملكة شمر والقصيم، الى الشمال من مدينتي «قصيبة» و«الخبرا»[21] وكانت الايدي تتبادل هاتين المدينتين دائما بالنسبة الى هيمنة ابن السعود او ابن الرشيد عليهما. وتعتبر مدينة «قصيبة» مدينة مبعثرة، مؤلفة من جملة احياء منفصلة كل حي يضم عددا من المنازل ،والكل تمتد الى حوالي ميل، على امتداد سفح كهف من حجر رملي شديد الانحدار، يبلغ ارتفاعه ثلثمائة قدم. وتقوم علي قمة الكهف ابراج للمراقبة ، وهي الصفة المميزة لكل المدن النجدية، يقوم فيها وقت الحرب ، احد الحراس مخول بمساهمة عامة لان يلاحظ اقتراب العدو.

ويوجد الماء على عمق قدم او قدمين من سطح الارض قرب المدينة، وان وفرته تسبب تجمع اعداد كبيرة من البعوض. وحتى في ايام الشتاء يكون الهواء في المدينة متقداً، اما في الصيف فلابد ان تكون الحرارة شديدة جدا، بالنظر الى موقعها المحصور عند اقدام ذلك الكهف المرتفع . ويتميز سكان المدينة بالشحوب، واعتلال الصحة، ووهن المزاج

---

(١٩) عنيزة: تقع على يمين وادي الرمة وعلى بعد حوالي اثني عشر ميلا من بريدة. مكانها يشتهر بالخصب ويحيط بالقسم المأهول منها حائط داخلي فيه بساتين عامرة. وبيوتها انظف من بيوت بريدة. يبلغ عدد سكانها نحو عشرين الف يشتهرون بالتجارة وبعض الصناعات البدوية

(٢٠) بريدة تقع على مرتفع رملي وهي من اوسع المدن النجدية محاطة بسور يحمي البيوت والاسواق مياهها وفيرة خالصة العذوبة. يعد سكانها حوالي ثلاثين الفا وفي شمالها الشرقي تقع القلعة التي يسكنها عامل العاهل السعودي واكثر سكانها من تميم ولكنهم دون اهل عنيزة في الكرم

(٢١) الخبرا: كتبها المؤلف باسم كوارا KAWARA تقع شمالي الرس وسكانها ثلاثة الاف وخمسمائة نسمة وهي مسورة وفيها ميدان كبير وعمق ابارها حوالي خمسين قدما.

كان فريقنا قد قطع الآن ثمانمائة ميل من الصحراء من دمشق الى القصيم من دون اي عائق. على الرغم من الهواجس الشريرة لافراد «عقيل» وغيرهم، حول مسيرتنا. ولقد ظننا بان من المعقول لنا ان نتوقع مواصلة رحلتنا فيما بعد في امن، في هذه المناطق المأهولة كثيرا. ولقد اصابتنا، في الاحرى، هزة حين سمعنا بان جميع الطرق عبر منطقة القصيم، وعلى الاخص من «قصيبة» الى «بريدة» ليست آمنة بالنسبة الى المسافرين، بسبب الغارات الاخيرة التي قام بها بدو «العتوب»، الذين كانوا قبل اسبوع مضى، قد تصدوا لرئيس مدينة قصيبة نفسه، وسلبوه كل ماكان معه!.

لم نحصل على اي رفيق من (العتوب) يسافر معنا، ولذلك قررنا على ان نغادر من دون ان نصحب ايا منهم، وان نتسلق الكهف العالي خلف المدينة قبل ان تغرب الشمس، حيث اختفينا مع ابلنا في احدى الفجوات الى ان حل الظلام، لكي نتجنب اي فريق من البدو قد يكون يراقب وجود المسافرين الخارجين من المدينة. لقد تخلصنا من الرقابة، وما ان اسدل الظلام سدوله، حتى اندفعنا بسرعة عبر الصحراء الحجرية وقبل ان ينبلج الفجر بساعتين، رقدنا الى جانب ابلنا على مشارف مدينة «العيون»[٢٢].

تعرف هذه المدينة التي تضم اربعة الاف من السكان باسم «عيون القصيم» ايضا، تمييزا لها عن «عيون السر»[٢٣] التي تقع على مسافة ابعد من الجنوب وتؤلف احدى المراحل على الطريق الرئيس من حايل الى البريدة. كان امير المدينة او حاكمها اخا لصديقي «صالح»، الذي هجر موطنه هذا منذ سنين طويلة قبل ان يصبح فتي، واذ كان صالح يركب جواده عبر المدينة حتى عرفته قلة من رجال مدينته فانتشرت انباء وصوله، وتجمع حوله الاقارب من كل الاصناف. والاجناس ناحاطوابه، واذ ذاك اقتادونا بانتصار الى بيت الامير. همس صالح في اذن اخيه بانني انكليزي، وتلقى لقاء ذلك منه انذارات صادقة بان اقول بانني قد دخلت بصفة (موصلي) من مدينة الموصل في شمالي العراق، ففعلت ذلك واذ ذاك كنت اتلقى في اي مكان احل فيه، مجاملة ورقة نادرتين لانني رفيق اخ الحاكم. كانت تدار علينا اقداح القهوة في كل مقهى[٢٤] وكانت تطرح فيها مئات المرات ذات الاسئلة عن سفرتنا، وعن انباء اهالي «العيون» الذين قد يوجدون في بغداد او في دمشق. ويبدو ان صالح كان قد رأى كل واحد منهم قبل ان نغادر بايام

---

(٢٢) العيون تقع في القسم الاعلى من القصيم وتبعد عن شمالي غربي «بريدة» بمقدار ثمانية وعشرين ميلا. وهي في منخفض وتمتد نصف ميل من الشمال الى الجنوب يبلغ تعداد سكانها خمسة الاف نسمة لها تجارة واسعة وفيها بساتين للنخيل كثيرة، وابارها على عمق ثلاثين قدما.

(٢٣) عيون السر هي القرية الثانية التي تتألف منها مدينة العيون

(٢٤) كتب المؤلف كلمة قهوة بلفظها المألوف لدى العامة (KAHWA).

قلائل، وانه يطلب الى كل واحد ان يتذكر السائل. اقيمت وليمة على شرفنا. وفي خلال ذلك قدمت لنا كتلة من اللحم القوي بطريقة مغلوطة، فكدت اختنق اثناء تناولي منها. الامر الذي جعل الافراد المتجمعين على المائدة، والذين يبلغ عددهم خمسين او مايقارب ذلك. تحدث احدهم الآخر، عن المشقة التي يجابهها رجل متمدن مثلي، ان اتناول طعامي بمثل طرقهم لانهم يرون اننا بطريقتنا الحضارية نستعمل الملعقة، في حين انني الآن اتناول طعامي باصابعي!.

«ليست لمدينة العيون اسوار، وذلك بالاحرى يعتبر امرا استثنائيا في اواسط الجزيرة العربية. ومهما بصفة خاصة في مدينة تقع على الحدود. وهي تقع في حوض رملي وتحيط بها تلال حجرية واطئة من ثلاثة جوانب بينما تختفي بيوتها المشيدة من الطين بين بساتين النخيل والمزروعات ولكن ليس على مسافة ما منها كما هي الحالة عادة. ويبدو ان سكانها اصحاب عقول اكثر اتساعا. وحباً للاعمال التجارية والسفر، وان المجتمع القائم فيها سعيد جدا

ويرى عدد قليل من الرجال المسنين فيما بينهم نظرا للخسائر الواسعة التي عانتها هذه المدينة الحدودية في الصراع المتواصل بين عائلتي السعود والرشيد وهذا الوضع مماثل للمدن الاخرى في اواسط الجزيرة العربية. وتحكم العيون من قبل امير عينه ابن السعود من اسرة بارزة في الموقع ويكون هذا المنصب وراثيا. والعمل الذي ينهض به هذا الامير هو ان يحفظ النظام، وان يجمع الضرائب، وان يجند المرتزقة للخدمة تحت راية ابن السعود في حالة الضرورة ومقابل ذلك يتلقى الامير مقداراً محددا من مرتب وقدراً كبير من الشرف.

«لقد صممت على ان اواصل مسيرتي نحو الجنوب على امتداد الطريق الغربي خلال «الرس»[٢٥] وباتجاه الغرب الى القصيم عبر مناطق لم ير القسم الاعظم منها احد من الاوربيين. غير انني سمعت في مدينة العيون ان ابن السعود الامير الكبير نفسه قد جاء الى البريدة في احدى الزيارات ولقد اوضحت لحاكم العيون الطريق الذي اود ان اسلكه، كما انني اشرت ايضا، بانني كنت اود كثيرا ان ازور ابن السعود في عاصمته الرياض، وان آخر شئ ابتغيه، هو ان التقي به في «بريدة». ومن هذا الموقع يستطيع بكل يسر ان يصر على تعقب خطواتي باتجاه الكويت

ولقد اوضح لي الحاكم كيف ان من العسير عليه ان يدعني اسافر بالطريق الغربي، والذي قد يتجنب المرور بمدينة بريدة والالتقاء بابن السعود قائلا انه اذا مافعل ذلك فانه قد يثير عدم رضا سيده، وان ذلك قد يكلفه منصبه وعلى هذا، وبهواجس كئيبة قاتمة، عزمنا انا وصالح على ان نغادر الى بريدة التي تبعد مسافة ثمانية وعشرين ميلا عن مدينة «العيون»..

---

(٢٥) الرس: من مدن القصيم الشهيرة تقع في القسم الجنوبي من القصيم على بعد خمسين ميلا من الجنوب الغربي لمدينة بريدة وعلى بعد اربعين ميلا جنوبي غربي عنيزة على الحافة اليمنى لوادي الرمة تحيط بها البساتين من كل الجوانب عدا الجانب الشرقي منها ولقد قاومت حصار ابراهيم باشا بن محمد علي الكبير سنة ١٨١٧ وخضعت لذلك الحصار مدة طويلة. ويبلغ عدد سكانها حوالي اربعة الاف نسمة.

قطعنا طريقا تتناثر فيه قرى قليلة و بساتين للنخيل تبرز درجة متغيرة من الخصب. ولكن الشيء الواضح هو ان تغييرات كبيرة كانت قد حدثت منذ الوقت الذي كان فيه «بلغريف»[٢٦] الذي اجتاز هذه المناطق متنكرا في سنة ١٨٦٢، وصرح بانه قد شاهد في منتهى الافق سهلا واسعا، مكتظا بالمدن والقرى، والابراج، والبساتين تعلن الحياة والثروة والنشاط.
واذ اقتربنا من (بريدة) اجتزنا صحراء ذات كثبان من الرمل الابيض، واخيرا واذ اقترب المساء، بانت لنا المدينة المسورة ذاتها على حين غرة، وكأنها قد هبطت من السحاب في هذه المتاهة الرملية. ان القادم من ناحية الشمال والشرق لا يرى اية بساتين للنخيل، وانما كتلة صلبة من بيوت مربعة الشكل محاطة بسور عال يكون واضحا وينتصب باب خشبي ينفتح على بوابة مرتفعة في السور. ولقد دخلنا هذه البوابة، واجتزنا فضاءا واسعا منبسطا، يقوم في الناحية الشمالية الشرقية منه موقع محصن لابن السعود قيل بانه يحتفظ فيه بقوة مسلحة لكي يعالج بها تمرد رجال القبائل المثيرين للاضطراب في المنطقة المجاورة.
انخنا ابلنا عند باب منزل الامير «ابن معمر» وهو رجل من الرياض عين حاكما من لدن ابن السعود. وسرعان ماتجمع حولنا عدد من العبيد المسلحين في القلعة. ولقد علمت منهم لخيبتي ان ابن السعود قد غادر ذلك الصباح عائداً الى الرياض. لقد حدث شيء من الهياج بين الواقفين حين اعلنت لهم بانني انكليزي مبعوث في مهمة ما الى ابن السعود، غير ان الامير لم ينطق بكلمة، ومن الواضح انه لا يريد ان يحرك تفكيره في استقبالي. ومهما يكن ومن خلال دقائق من وصولي قام رسول على بعير سريع الخطى بالاتجاه نحو الجنوب لتعقب ابن السعود وهو يحمل انباء ظهوري هناك.
بقينا جالسين في احدى الساحات مع ابلنا زهاء ساعة او اكثر عرضة لاهتمامات المتسكعين من اهالي بريدة الى ان اخذنا الى دار قذرة جدا، وتركنا في امان، ولكن من دون طعام.
عند الليل اقتدت الى الامير الذي كان قد اغتاض نوعا ما لانني لم انبه عن عملي مع ابن السعود وان كنت انا قد اقع في حيرة لان انبه عن هذا الامر لانني في الواقع ليس لدي اي من العمل

(٢٦) بلغريف PALEGRAVE اسمه وليم جفورد بلغريف. ابوه السر فرنسيس بلغريف مؤسس «دائرة الوثائق العامة» في لندن كان يهوديا اصلا لكنه اعتنق المسيحية درس في اكسفورد ومن ثم التحق في سنة ١٨٤٦ بالجيش الهندي حيث ابحر الى الهند في كانون الثاني ١٨٤٧ لكنه استقال من الجيش وانضم الى جمعية يسوع واعلن نفسه قسا وانتقل الى روما لاكمال دراسته ولقب نفسه بلقب «الاب ميشيل سهيل» فانتقل في جولة الى سوريا، ومن هناك رحل الى جبل شمر والقصيم، واذ ذاك وجدت جماعة الجزويت فيه اداة طيبة في تنفيذ مشاريعها في الجزيرة العربية. وقد بعث به امبراطور فرنسا نابليون الثالث الى مصر في الوقت الذي اعدت فيه التمهيدات لشق قناة السويس. كما قام برحلاته في الجزيرة العربية بدعم مادي من فرنسا ورحل مع احد الدمشقيين الى معان وشرقي البحر الميت ومن هناك اندفعا الى الجزيرة العربية حائل والجرف وغيرها. في اذار ١٨٦٤ استقر في المانيا ليدون رحلاته ومشاهداته. ثم تخلى عن دينه المسيحي الروماني في ١٨٦٥ وقد توفي في ٣٠ ايلول ١٨٨٨ في مونتفيديو بعد ان غدا وزيرا

الذي ادعتيه ومع ذلك كله فقد رضي الامير بان يصغي الى قولي بان هناك كل الاحتمال بان ابن السعود سوف لا يبتهج تماما بطبيعة استقبالي في «بريدة» .وبعد هذا الايضاح اصبحنا انا والامير صديقين غير انني اكتشفت بانه كان شخصية ضعيفة تحت نفوذ عبيده من الزنوج، ومن دون اي احساس مباشر ضده، وسرعان ماانتهزت الفرصة بعد ذلك لكي انسحب

مدينة بريدة هي المنافسة لمدينة «عنيزة» في القصيم، وهي المدينة الكبيرة الرابعة في نجد، وكان عدد سكانها حوالي عشرة الاف نسمة. كانت هناك حافة من الرمال البيض يبلغ ارتفاعها مائتي قدم، قد دفعتها الرمال في اشكال غريبة فراحت تحمي المدينة من ناحية الغرب في الوقت التي يتداخل فيه بين تلك الحافة والبيوت القائمة في المدينة قطاع طويل من بساتين التمور والمزارع الكثيفة.

يشتهر سكان «بريدة» مثل اهالي «عنيزة» بالنزوع الى الاعمال التجارية، حيث يجري نقل المزيد من التجارة مع المدن التي تقع على ساحل الخليج العربي، والقبائل العربية المحيطة في الوقت الذي تقوم فيه سوق واسعة في المدينة ذاتها. وعلى الرغم من ذلك فان كلا من الرحالين «بلغريف» و «هوبر» و «دوتي» قد زاروا هذا الموقع، ليختبروا طبيعة التعصب والتطرف لدى سكان المدن، في الوقت الذي لم يستطع فيه الرحالة الاخير ان ينجو بنفسه الا بمشقة. وحتى في الوقت الحاضر وعلى الرغم من ان الاتصال مع الخليج العربي والعراق قد زاد وان االحالة في البلاد آمنة فان بريدة واحدة من المدن القليلة في نجد التي قوبلت فيها باي جفاء!

عاد الرسول الذي بعث به الحاكم الى ابن السعود، بتعليمات من لدن الامير تقضي بان ارسل وراءه الى الرياض، كما انني قد وجدت خلال طريقي ايضا بان ابن السعود قد اصدر اوامر ودية جدا تقضي بتوفير الراحة لي في اية مدينة تقع على الطريق، الامر الذي يسهل لي الامور كثيرا. ولذلك توفرت لدي الفرصة للسفر من بريدة بطريق مباشر الى الرياض عبر مدينة «شقرا في «الوشم»[٢٧] التي طوف بهاذات مرة النقيب «سادلر» احد الضباط من الهند قبل حوالي مائة سنة خلت[٢٨] بدأنا مسيرتنا مع رفيق من قبيلة «عتيبة» البدوية الذي ظهر عليه بانه وان كان مايزال شابا تماما، الا انه قد زار معظم اجزاء الجزيرة العربية بمثابة عضو في جموع الغزاة في وقت واحد

---

(٢٧) شقرا هي عاصمة اقليم «الوشم» يبلغ عدد سكانها حوالي سبعة الاف نسمة وقد تهدمت اسوارها وابراجها بعد محاصرة ابن الرشيد لهافي سنة ١٨٩١ وابارها وفيرة الماء لا تنضب وفيها بعض البساتين اما الوشم فانه سهل يمتد حوالي مائة ميل من الشمال الى الجنوب وتسعين ميلا من الشرق الى الغرب ويبلغ عدد سكانه حوالي خمسة عشر الف نسمة ينتمون الى تميم وعنزة واشهر مدنه «شقرا» و «ترمذا» و «شيقر» و «المذنب» و «السدير» والمجمعة

(٢٨) جورج فاستر سادلر ربان احدى البواخر البريطانية في الهند عين مبعوثا دبلوماسياً في الجزيرة العربية في حزيران ١٨١٩ وكان الثاني بين الرحالين اللذين وصلوا صحراء الصفوف

او آخر. واذ غادرنا قرية «اثيثة»[٢٩] بلغنا حدود القصيم. ومن ثم دخلنا القسم الجنوبي من نجد او المملكة الوهابية الاصلية. كان اسم المنطقة هو «المذنب»[٣٠] وكانت المدينة التي تعرف بهذا الاسم تقع على بعد خمسة وثلاثين ميلا جنوبي شرقي «بريدة» عند قاعدة جرف صناعي للكهف الشرقي تضم هذه المدينة من السكان زهاء الفي نسمة يمتهنون حرفة العمل في بساتين النخيل والزراعة الكثيفة والتي تمتد لاطول من ميل على كل جانب من الجوانب الثلاثة للمدينة. والماء الذي يجري اسفل المنحدر ومن ناحية الغرب ويليه الكهف الذي يطل على المدينة من ناحية الشرق. شديد الملوحة. ولا تستطيع المخلوقات البشرية شربه.

ولقد علمنا بانه لابد من وجود بعض ابار ذات مياه حلوة على مقربة من المدينة. غير ان احدا ممن التقينا بهم من عابري السبيل لم يخبرنا عن موقع مثل تلك الابار، او يرد علينا باي جواب في الواقع. فالناس هنا يتبعون العادة الاعتيادية لانهم يخشون بانهم اذا ما دخلوا في حديث معنا فانهم قد يستضيفونا ليلاً! . ومع ذلك فان كل سكان نجد يأخذون اصولهم من اصول بدوية متباينة جداً، وعلى الاخص من فروع مختلفة من قبيلة «عنزة» وان عليهم ان يعرفوا قوانين الوفادة

هناك جزء كبير من هؤلاء السكان المستوطنين، يتحدرون من قبيلة «بني تميم» القديمة. والذين كما اعتقد لم يعودوا من البدو، وانما اصبحوا الآن كلية من المتوطنين. ماان غادرنا «المذنب» حتى رحنا نطوف بسهل مزيج من الرمل والطين، مايزال يحتفظ بكهوف رملية في ناحيته الشرقية، حيث توفرت لدينا الفرصة اثناء الليل ان نجتاز قرية «المربع»[٣١] سمع احد المراقبين على الاسوار حديثنا فامرنا بان نتوقف والا اطلقت النار علينا فورا. ولذلك هتفنا نجيبه باننا في طريقنا الى ابن السعود. غير ان القرويين يكررون دوما بانهم قد سمعوا هذه القصة قبلا، واذ قد نعتبر من السلابين احتمالا، فان من الافضل لنا ان نتوقف. وطبقا لذلك وجدنا ان من المستحسن لنا ان نتوقف وان نوقف ابلنا الموسقة حيث كنا. اذ عثرنا على بقعة سهلة تحت سور القرية واوقدنا النار.

---

(٢٩) اثيثة بلدة الشاعر الشهير «جرير» وقد اخطأ المؤلف في تهجئتها فكتبها افيزيا - AVFIZIA

(٣٠) المذنب بكسر الميم وسكون الذال وفتح النون: تقع في منتصف الطريق بين شقرا والقصيم وهي جملة قرى يبلغ تعداد سكانها حوالي الفين وخمسمائة نسمة وآبارها ليست عذبة المياه وبها كثير من القصور

(٣١) «المربع» موقع كان خارج مدينة الرياض تتوقف فيه القوافل القادمة الى الرياض نفسها الى ان يؤذن لها بالدخول الى المدينة غير ان اتساع العمران في الرياض تجاوز حدود المربع فاصبح هذا الموقع داخل الرياض في الوقت الحاضر.

تجمع على الفور بعض السكان حولنا انتظارا باننا سوف نعد القهوة المعتادة. ومع ذلك فلم نكن نشعر باننا نود الاختلاط بالغير. وماخلا ذلك فانني اذا ما اجبرت على البقاء هناك فقد اصيب شيئا من النوم. ولذلك تفرق الزائرون ومضوا فغدا كل شيء هادئا ضمن الاسوار، وقبل ان ينبثق الفجر بمقدار ساعة او نحو ذلك بدأت سفرتنا الجديدة باتجاه الرياض.

تتناثر مختلف القصور [٣٢] او القلاع على مسافة عدة اميال تقع بين الواحد والآخر منها. وتحيط الاسوار العالية بهذه القصور، وفي داخلها تقوم مساكن صاحب الارض في الضاحية، والتابعين له، وعبيده، اولئك الذين يبلغ عددهم في الغالب مابين سبعين وستين نفرا. وتتم المساواة المطلقة بين السيد والخادم بالنسبة الى الحديث، وهم يظهرون في صفة مجتمع سعيد امضت جماعتي احدى الليالي في قصر احد افراد عشيرة ناصر من فروع «هتيمي» المزدراة. غير ان هذا الرجل قد اشتهر شهرة واسعة بكرمه وسخائه. ولقد تحول الى رجل محسن فراح يتحدث ساعات عن موضوع الدين، ويصر علي دوما بان اعيد «كلمات» [٣٣] من القرآن تقول «لاآله الا الله، وان محمد رسوله» وكان يتضايق كثيرا لانني كنت اتوقف على الدوام في نهاية النصف الاول من قانون الايمان [٣٤]

تلقيت قنا زنجيا زودني به في صفة خادم، بعد ان سدد هذا القن الى «ناصر» كل ماعليه من ديون. ولكن ما ان وصلنا «الرياض» حتى كان ذلك القن قد اختفى بصفة غريبة. وذلك دليل على ان الزنوج حتى وان كانوا يقيمون طويلا في الجزيرة العربية فانهم لا يستطيعون ان يتحملوا بيسر الشدة التي يعانيها افقر بدوي بالنسبة الى قضايا التوطن.

* * *

«استدرنا من العيون نحو الشرق، واجتزنا قطاعاً رملياً يبلغ عرضه هنا خمسة عشر ميلاً. يتحول الى سهول حجرية تتخللها بقع من صخور «البازلت» السود. كان طريقنا هذا يمتد فوق حافة ظاهرة من ذات التلال تعلوها قمم رملية على امتدادها، وتدخل في سهل رملي. تقع فيه مدينة «شقرا» حاضرة هذه المنطقة من «الوشم»

يبلغ عدد سكان «شقرا» حاضرة الوشم» حوالي خمسة الآف نسمة وهي تقع عند النهاية الشرقية لمنحدر رملي طويل، تمتد بساتين النخيل والحدائق فيه نحو ميل. كان طريقنا يقترب من المدينة من الناحية الشمالية ويجتاز عبر سور خارجي «متهدم في اماكن كثيرة منه» ومن ثم يسير بامتداد طريق

---

(٣٢) كتبها باللفظ العربي KASR

(٣٣) كتبها باللفظ ايضا KALAMAT والمقصود بها آيات من القران الكريم

(٣٤) المقصود به قانون الايمان المسيحي

يرتفع عشرين قدما فوق الحدائق المحيطة. ولقد تألف هذا الطريق من الرمال التي اندفعت خلال فتحة من السور حين تحولت الى طريق

اتخذنا سبيلنا على امتداد الطريق عبر سورثان اكثر جدة، فوجدنا انفسنا في المدينة التي يشيع فيها جو من النظافة والرخاء العام ليس لها مايضاهيها في القسم الجنوبي من نجد. كان الامير «محمد بن سعود» [٣٥]، وهو شاب ذو ظرف واسع في مسلكه واراء تنم عن عقل واسع جدا، قد استقبلني في قصره على الرغم من الاحتجاجات التي ابداها كبير الملالي لديه، والذي كان يريد مني ان اخيم خارج المدينة

كان الحديث بيننا متسلسلا بصفة عجيبة. وكانت المواضيع التي تستأثر بالاهتمام الاوربي، من امثال الطائرات واللاسلكي، قد تم بحثها بمنتهى الحرية. يوجد في «شقرا» قدر من النفوذ الهندي الذي غدا واضحا حيث اصبحت العملة والاوزان الهندية تستعمل للحساب بها كانت المدينة في السنوات السابقة تزود السوق الهندية بأغلبية الخيول، ولكن لم يبق منها سوى العدد القليل الآن، بعد مرور فترة طويلة من الحرب. وفي هذه السنة لم تصل الساحل الهندي سوى خمسة خيول

واذ غادرنا «شقرا» كان الطريق يسير شرقاً على امتداد الجانب الجنوبي من القطاع الرملي ويمر بمدينة «ترمذا» [٣٦] والتي ماتزال تبرز آثار العقوبة التي انزلها بها «ابن السعود» لانها وقفت ضده في صراعه مع منافسه ابن الرشيد. وما ان غادرنا «النفوذ» [٣٧] حتى اخذ الطريق يصعد منحدرا حصبائيا طويلا، يمر بقرية «البرة» وفي الاخير يلامس جبل «طويق» [٣٨] والذي يبدأ يتجمع عنده بالتدريج.

اتصل هنا طريقنا، بطريق الحاج من مكة الى الرياض، ولذلك دخلنا مضيقا في جبل «طويق» كان مليئا باشجار «السدر» و«الطلح» وبعد ان ارتقينا هذا الطريق الى مسافة عشرة اميال، بلغنا تجمع ماء هنا، فدخلنا رأس «وادي حنيفة» [٣٩] والذي يعرف هنا باسم «وادي حيسيات» [٤٠].

---

(٣٥) الامير محمد بن سعود: هو مؤسس العائلة السعودية تحالف مع محمد بن عبد الوهاب مؤسس النحلة الوهابية على تطهير جزيرة العرب من البدع والخرافات ودخل في حرب مع حاكمي الاحساء ونجران، ثم تصالح مع حاكم نجران وانتهت الحرب ضده. وقد توفي محمد بن سعود في سنة ١٧٦٦م

(٣٦) ترمذا: من مدن منطقة الوشم وهي تؤلف الحد الفاصل تقريباً بين الوشم والعارض

(٣٧) النفود: جبال رملية تمتد الى الجنوب من مدينة ترمذا ومن اهم مدنها (الجوف)

(٣٨) جبل طويق: يقع في منطقة العارض وتقوم عنده عدة مدن منها حريملة وثادق وسدس.

(٣٩) وادي حنيفة: هو قلب منطقة العارض يقع في جنوبه الغربي سهل ضرما والمحمل في شماله و «الرياض» هي اشهر مدن العارض

(٤٠) وادي حيسيات: لم نعثر على تأكيد لهذه التسمية والحيسيات هي تجمعات مياه المطر في الرمال.

والى ناحية الشرق من هذا الوادي الذي ينحدر بلطف مرة اخرى، ويبلغ عرضه ثمانمائة يرد، غدت جوانبه بالتدريج اوطأ، ولذلك واصلنا سيرنا فيه. ويرتبط الطريق من «زلفري»[٤١] بـ «سدوس» [٤٢] عند الناحية الشمالية. اما حوض الوادي فقد غدا الآن محددا بكل وضوح وعند «العين» على مسافة بضعة اميال ابعد، عثرنا على بقايا سواتر حجرية من حجم هائل. كانت قد بنيت لكي تسيطر على اندفاع الماء ظهرت خرائب «الدرعية» القديمة عند الضفة اليمنى من الوادي، في حين تقوم القرية الجديدة على الضفة اليسرى منه، وحين استولى المصريون على هذه المدينة العاصمة القديمة لنجد ذبحوا اكثرية سكانها فيما بعد. تسلقنا الوادي الذي تركناه عند الجنوب، واجتزنا هضبة حجرية يبلغ عرضها عشرين ميلا حيث لاحت امامنا فجأة مدينة الرياض العاصمة الكبرى لبلاد نجد، والتي كانت قبلا مخفية في منحدر في الارض.

«فهذه» المدينة التي اصبحت عاصمة لنجد، ومقر المملكة الوهابية، بعد تدمير الدرعية على ايدي المصريين في سنة ١٨١٨ تقع في منخفض عمقه مائة قدم في اسفل السهل المحيط بها سوية، مع الضواحي وبساتين النخيل التي تمتد مسافة ميلين الى الشمال والى الجنوب، في حين تلامس نهايتها الجنوبية. وادي حنيفة والذي يعرف هنا باسم الباطن [٤٣] فهذه المدينة التي تحيط بها بساتين النخيل الكثيفة احاطة تامة من جوانبها الثلاثة، محاطة ايضا بسور هائل من بناء حديث مع ابراج على بعد مئات قليلة من اليردات، ليسيطر البعض منها على مختلف بوابات الدخول. اما في الناحية الغربية فتقوم مقبرة واسعة تتقاطعها الطرق الواسعة التي تؤدي الى «مكة» و «الحسا».

«وعبر سهل مكشوف، اتخذنا سبيلنا، انا وصالح، وكنا كلانا في شك مابالنسبة الى طبيعة الاستقبال الذي سوف نجابه به في مركز الوهابية القوي هذا، تلك الحركة التي تعتبر من اشد الطوائف الاسلامية تطرفا في العالم. وما ان دخلنا المدينة من «بوابة» مرتفعة ذات ابواب خشبية مكفتة بالحديد، حتى اجتزنا الشوارع الهادئة ومن ثم مرقنا على حين غرة، الى ساحة واسعة فيها احد الاسواق. كانت الاعمال التجارية آنذاك في ذروتها في هذه الساعة التي يبلغ فيها المد ذروته بعد الظهر. وما ان اجتزنا عيوناً دهشة كثيرة صوبت نحونا حتى وصلنا فيما بعد الى فراغ واسع مكشوف من الارض تقوم على جناحيه الايمن قلعة عالية كانت تدلل على انها كانت قصر «عبد العزيز بن سعود امير نجد الوهابي

---

(٤١) زلفرى اخطأ المؤلف في تسميتها فهي مدينة «زلفي» التي تقع في سهل بين جبل طويق واعالي منطقة النفود

(٤٢) سدوس: بلدة صغيرة في موقع كثير المياه خصب التربة فيها كثير من اشجار الفاكهة والنخيل وقد اشتهرت بما عثر فيها من آثار قديمة (جزيرة العرب في القرن العشرين تأليف حافظ وهبة الطبعة الثالثة ١٩٥٦ ص ٢٥٠ ٥١)

(٤٣) الباطن: من اشهر المقاطعات الشمالية في الكويت وهي قسم من الوادي المعروف بهذا الاسم، وتؤلف ملتقى الحدود العراقية والنجدية وكانت من المراعي الطبيعية في السنين التي يسقط المطر فيها

انخنا ابلنا واتخذنا اماكننا على دكة طينية تمتد بامتداد الاسوار في الوقت الذي تجمعت فيه حشود من اهل المدينة ومن العبيد من حولنا، وهم يتسقطون اخبار الحاج العائد من مكة والمقدرة عودته خلال ايام قلائل، حيث ظنوا باننا كنا نمثل الفريق المتقدم له. واذكنا ننتظر اقبل كثيرون منهم نحونا فصافحونا. وفي النهاية اقبل ممثل الامير، فازاح الحشد عنا، وقادنا الى القصر. بعدد من الاستفسارات المؤدبة عن صحتنا وطبيعة رحلتنا. كانت الصيغة الاولى المعتادة هي ان نتناول القهوة في غرفة عامة لها، يمر بها الغادون والقادمون باستمرار من الحاضرين في القصر. والعبيد الذين كانوا يرتدون العباءات المطرزة ويحملون السيوف ذوات القبضات الفضية. وسرعان مانقلنا في حاشية الى صالة علوية تطل على السوق وعلى المدينة، حيث حيانا الامير الوهابي عبدالعزيز نفسه.

«كان رجلا في حدود الاربعين من العمر، يبلغ طوله ستة اقدام، ذو بنية ضخمة ووجه قوي ورقيق وعوائد على اشد مايكون من البساطة. صافحني بيده، وهدأ من روعي على الفور، بتحيته الودودة وبالحديث الطويل الذي انطوى على انباء العالم الخارجي وعلى الاخص الحرب التركية–البلقانية (٤٤). ولقد اعلن عبدالعزيز عن اسفه لان قصره لا يوفر سكنا فيه الافضل اوالمزيد من الرخاء. لكنه قال بانه منذ وصوله الى الرياض قبل عشر سنوات، كان يتجول دون انقطاع في الاجزاء الصحراوية من بلاده يحارب اعداءه ويحاول ان يوطد اكثرية القبائل تحت سلطته، ولذلك فلم يكن لديه من وقت كيما يضيف المزيد الى قصره او يصلحه.

قص علي ابن سعود تأريخ وصوله الى الحكم. ويبدو من حديثه بان القسم الجنوبي قبل بضع سنين خلت خلال حكم محمد بن الرشيد حاكم حائل ومن اقوى امراء شمر قد خرج برمته وبصفة عملية من يدي ابن السعود وان عبدالرحمن بن سعود والد الامير الحالي قد التجأ الى الكويت في حماية مبارك شيخ ذلك الموضع.

وفي سنة ١٩٠٢ توفي محمد بن الرشيد واذ ذاك ضعفت قوة شمر فغادر عبدالعزيز عبدالرحمن السعود الكويت في رفقة اربعين فردا من اتباعه امتطى كل اثنين منهم بعيرا واندفعوا داخل الصحراء لكي يمسكوا باعنة الحكم مرة ثانية في الرياض. وصل عبدالعزيز المكان وترك ابله بعهدة اثنين من رجاله خارج الاسوار اما بقية الجماعة فقد دخلت المدينة ليلا واتخذت سبيلها نحو قلعة حاكم ابن الرشيد. وقد حدث ان وجدت الجماعة في الساحة المكشوفة عجوزا، اكتشفت منها بان الحاكم لم يعتد النوم في القلعة ليلا، وانما اعتاد ان يقدم اليها كل صباح ولذلك قررت الجماعة ان تدخل القلعة وتغلق البوابة الكبرى، ولا تترك سوى ممر خلفي صغير مفتوحا فيها.

---

(٤٤) الحرب التركية–البلقانية هي الحرب التي وقعت بين تركيا وبلغاريا في سنة ١٩١٠ وانتهت باستقلال بلغاريا

وفي الصباح اقبل الحاكم مع حاشيته ليلقي حتفه حين اجتاز باب الممر الصغير ذلك المصير الذي شاركه بعض اتباعه فيه. واذ ذاك تسلق عبدالعزيز بن السعود برج القلعة واعلن بان حاكم ابن الرشيد قد قتل، وان ابن السعود قد عاد. وعلى الفور وقفت المدينة الى جانب ابن السعود. وخلال سنوات الضيق اللاحقة اضطر رجال ابن الرشيد ان ينزحوا نحو الشمال بالتدريج الى ان تم الصلح بين السلطتين سنة ١٩١٠.

ومع ان عبدالرحمن والدعبد العزيز، مايزال على قيد الحياة ويعيش في الرياض الا ان اتباعه كانوا على الدوام يتحدثون عن ولده عبدالعزيز في صفة امير او امام، في حين كان ولده يتحدث عن ابيه عبدالرحمن بصفة امير لكن الواقع هو ان السلطة الادارية كلها في يد عبدالعزيز في حين يعالج عبدالرحمن الشؤون الدينية خلال اقامتي في الرياض (٤٥)

منحت سكنا في القصر. فكان يدخل علي سيل طويل من الزوار طيلة اليوم، ويجلس في غرفتي دون استثناء ليظهر لي منتهى المجاملة. وكنت اذهب الى المدينة في اوقات بصحبة احد الامراء. او احد العبيد الذي كان يؤمر بان يرعاني. كان القسم الاعظم من سكان المدينة من المدنيين المجردين من التطرف الديني، وان كان يحدث في بعض الاحيان ان يسؤل الامير لماذا يعتني وبمثل هذه الصفة برجل مسيحي في المدينة الوهابية! . وكان الامير يرد على تلك التساؤلات بان اي انكليزي مسيحيا كان ام مسلما، انما هو صديقه، واعز لديه من كثير من المسلمين من الطوائف الاخرى. الحركة التجارية في الوقت الحاضر، ضعيفة جدا. وقد قيل بان المدينة وضواحيها تضم خمسة وعشرين الفا من السكان. ويبدو بان هذا... العدد مبالغ فيه، لكنني متأكد بان سبعة الآف رجل كانوا قد حضروا الصلاة في الجامع الكبير في العيد الاخير، الامر الذي يرفع عدد السكان الى الرقم الذي تم ذكره. وعلى الرغم من ذلك فان سوق المدينة صغير نسبياً في الوقت الذي يكون فيه الطعام والمواد الاخرى عزيزة. والمادة الرئيسة للغذاء هو التمر، وهو من نوع لذيذ حقا. وتزرع انواع كثيرة اخرى من الفواكه من امثال التين والمشمش والبطيخ في حين يزرع البرسيم في كل مكان بين الاشجار.

لا يوجد في الرياض سوى القليل من الخيول في حين لا توجد الابقار ولا الاغنام اما الامير الذي

---

(٤٥) ذكر ونستون V.F WINSTONE في كتابه الذي اصدره في سنة ١٩٨٢ عن لجمن . ذات ماورد في هذه الصفحة نقلا عن كتاب «الرائد براي» نفسه لكن ونستون اضاف الى ماسبق بانه سبق لابن السعود ان قرر التحالف مع بريطانيا وعرض ذلك على النقيب شكسبير لكن قضية ابن السعود هذه قوبلت بالصمت القوي ولم تطرأ عليها سوى ملاحظات وردت في حواشي الوثائق الرسمية. فقد كانت الحكومة البريطانية ترى ان من الضروري ان اي شيء يتم التوصل اليه بين ابن السعود ولجمن يجب ان يتم اذا كان ضروريا مع الامراء العرب الآخرين لطرد الاتراك من بلاد ابن السعود. او الاعراب عن هدفه في الحصول على الحماية البريطانية على الاراضي التي كان يطالب بها (ص ١٣٦ من كتاب ونستون)

يمتلك المئات من الخيول في منطقة الخرج [٤٦] التي تقع على مسافة يومين الى الجنوب حيث يتوفر المرعى والماء فان ذلك لا يوجد مثله في الرياض. ولابد ان يكون الطقس صحيا جيدا ولم تجرب البرودة فيه مما يستدل عليه بما يرتديه سكان المدينة. وهذا الملبس بهيج جدا يتألف من قميص طويل يتدلى الى القدمين، وله اردان كاملة تتدلى على اليدين اللتين تنشقان عنهما. فوق ذلك تلقى عباءة خفيفة من مادة سوداء نوعا ما محلاة بنقوش تحاك بالذهب عادة، في حين تتألف الكوفية. لباس الرأس من منديل يشد على الرأس يكون احمر اللون ويثبت على الرأس بعقال [٤٧] او حلقة من وبر البعير محلاة بعصابة ذهبية بالنسبة الى الطبقات الجيدة وتكون السيوف المكفتة بالفضة والصنادل هي التي تكمل بدلة الملبس

اما بالنظر الى الاهتمام الخاص بهذا الملبس فان من المستحسن ان نعيد تذكر العادات التي كانت تستخدم خلال الايام المبكرة للدعوة الوهابية التي كانت حركة طهرية حقا، والتي انتعشت نتيجة الاحوال المضنية الشديدة. فلقد حظر استعمال التبغ من دون ادنى احتياط، حيث قيل بان هذه النبتة قد نالت التأييد من لدن «ابليس» بشكل مباشر !!. كما ان استعمال الملابس الحريرية قد حرم على الرجال بينما سمح للنساء بارتدائها الى حد معين. وقد جرى استنكار الشعر والموسيقى والمتع الاخرى وكذلك فرض التشدد على استعمال الرز طعاماً لانه لم يكن مستعملاً ايام الرسول محمد (ص) لانه لم يكن يستطيع تناوله!! فضلا عن بعض الانظمة المتشددة الاخرى اما في هذه الايام فان هذه العادات الوهابية المتشددة في السابق قد سقطت او خففت فالتدخين الذي كان يعد من اعظم الذنوب في نظر الوهابيين الاصليين اصبح الآن يستعمل في القصروهم يطلبون مني قليلا مني تلك المادة المخجلة التي يسمون بها الدخان!

وما تزال المساجد على مظاهرها المتشددة الخالية من البدع حيث تقوم فيها منائر يندر ان يتجاوز ارتفاعها اقداما قليلة كما يشاهد ذلك في الصورة، ويتم حضور اوقات الصلوات الخمس يومياً باستعمال قضيب للتنبيه وتغلق الاسواق اثناء هذه الاوقات ويكون الامير من الذين يحضرون الصلاة دائما. واضافة الى ذلك يقرأ «المطوع» [٤٨] او «الملا» [٤٩] لمدة ساعة عند الفجر واخرى ثانية في الليل فصولا من القرآن للامير في غرفته الخاصة به.

* * *

---

(٤٦) الخرج: من ايالات نجد الشهيرة عاصمتها مدينة الدلم وتقع هذه الايالة في وادي حنيفة في الجنوب الغربي من العارض وتمتد من قرب الرياض حتى الى الصحراء الجنوبية الكبرى من مدنها الاخرى : منفوحة واليمامة وفوزان والمناصفت وغيرها (جزيرة العرب في القرن العشرين ص (٥١))

(٤٧) كتبها باللفظ العربي AGHAL

(٤٨) كتبها باللفظ العربي METOWA

(٤٩) ذكرها باللفظ العربيMULLAH

صادف ان التقيت في الرياض برجل يدعى «احمد بن ثنيان» احد اشراف الرياض وهو من ام شركسية كان قد تعلم في اسطنبول ويتكلم الفرنسية جيدا، كان هذا الرجل مع بعض الاعراب مستعدين دوما لتزويدي بالمعلومات بالنسبة الى القضايا الجغرافية لمنطقة الجنوب حيث تشتد المناقشات ضراوة في غرفتي بالنسبة الى اتجاهات الوديان ومداها الموجود هناك

لم يرغب ابن السعود الموافقة على رغبتي في السفر الى «جبرين»[٥٠] والى الجنوب، ولذلك فانني بعد ان مكثت اسبوعا غادرت الرياض الى الحسا والساحل. كان رفاقي من البدو ينتمون الى اربع قبائل هي العجمان والدواسر وبني حجر وبني مرة. هناك اختلاف تام في المسلك بين القبائل الشمالية اللطيفة. ذلك لان قبائل الجنوب لم تتحسن اوضاعها حتى بعد ان عادت من مكة في اعقاب ادائها فريضة الحج. فقد كان افرادها متطرفين ومتشددين الى درجة ما، بائسين في مظاهرهم وقادرين على المكوث بصفة غير معروفة في اي مكان من الجزيرة ولذلك فلم يبرهنوا على انهم كانوا من خيرة رفاق السفر.

وهذه الصحراء التي تمتد بين الرياض والهفوف خالية من الماء بصفة خاصة الا ان يعثر المرء على آبار للماء يلتقي بها في مسيرة تمتد مسافة مائتي ميل الى «الحسا». ففي اليوم الاول لمغادرتنا مدينة الرياض وبعد مسيرة بطيئة جدا، دخلنا مدينة الهفوف، حيث لقيت الضيافة البالغة من لدن بعض الضباط الاتراك تضم الهفوف زهاء ثلاثين الفا من السكان. بينهم عدد كبير من الوهابيين استقبلني الضباط الاتراك في حامية الهفوف بمنتهى الكرم والسخاء، ولكن كان من المستحيل علي ان ادعهم يسمحون لي بان اجوب البلاد الى الجنوب كما كنت اود ان اتغلغل الى هناك ما ان غادرنا الهفوف حتى اجتزنا في ليلة واحدة اربعين ميلاً من كثبان الرمل، التي لا امل فيها والتي تفصل هذا المكان عن العجير[٥١] الذي يؤلف ميناء الهفوف على الخليج العربي. ومع ان البلاد تبدو خالية من المياه الا انه يبدو مستطاعا في بعض النقاط القائمة على الطريق حفر ماعمقه قدمين او ثلاثة اقدام في الرمال للحصول على كمية محددة من الماء.

وغالبا ماتنفق القوافل والمسافرون يومين في الصحراء ومن ثم يتوقفون عن السير «والعجير» موقع حقير واصغر من دار للكمرك وهو عبارة عن حصن عربي قديم حوله ابنية قليلة تحيط بها الصحراء. والموقع غير صحي والحمى مألوفة فيه وهنالك تجارة ملموسة مألوفة مع الداخل. ومن العجير يستطيع المرء ان يبحر باحد الزوارق ليصل «البحرين». امضينا عيد الميلاد في مواجهة الرياح المعاكسة وبعد رحلة محمية نوعا ما القينا مراسينا اخيرا في البحرين، واذ ذاك دخلت القنصلية البريطانية مرة اخرى!.

---

(٥٠) جبرين. هكذا ذكرها المؤلف والمقصود بها واحة (يبرين) التي تقع في الاحساء الى الشمال من صحراء الاحقاف عند الحدود الشرقية لبلاد نجد

(٥١) العجير: ويعرف باسم العقير ايضا يقع على الساحل الايمن من الخليج العربي. وكان هذا الميناء قبل الميلاد يؤلف عاصمة لمملكة عربية تهيمن على التجارة وطرق المواصلات بين العراق والخليج العربي (انظر كتابنا: الصراع على الخليج العربي ط اولى ١٩٦٦)

«الفصل التاسع»
المنسي من اخبار لجمن

وضعت هذه الرحلة التي وصفت الآن، وقيست على الخارطة، وبلغ مجموعها الفا وثلثمائة وثمانين ميلا، لجمن في مقدمة المستكشفين الذين جابوا البلاد العربية. فلقد تم انجازها في مدة عجيبة لم تتجاوز اثنين وخمسين يوما بما في ذلك مدة التوقف، وتم قطع الطريق فيها باكمله على ظهر بعير، وبسرعة يبلغ معدلها ثلاثين ميلا في اليوم الواحد حين كانت مدة التوقف تختصر منها. ولقد كان لجمن طيلة الفترة كلها يرتدي ويعيش مثل واحد من العرب تماما، فينام على الارض ملتفا بعباءته، ويمشي حافي القدمين، ويتناول القليل من الطعام مثل رفاقه. واكثر من هذا انه كان يعلن بشجاعة، حين تحل المناسبات، بانه مسيحي. ومع ذلك وعلى الرغم من استخفافه بمعرفة اللغة العربة فانه استطاع ان يجتاز بصفته واحدا من الاعراب. وحتى في هذه المناسبة الراهنة، تم تقبله من دون سؤال لاعتباره واحدا من سكنة الموصل.

ومع كل هذا، فلم يكن من اللازم اطلاقا له، ان يقوم باي شئ اخر، وبقي محتفظا بجنسيته ولكن كان تنكره جيدا بالصفة التي دللت عليه الحادثة التالية عند وصوله البحرين في هذه المناسبة، ورحلته السابقة الى البصرة، والتي دنها «مكفرسون» الذي مرت الاشارة اليه قبلا. «حين كنت اقيم في البحرين، وهي مجموعة من الجزر خارج الساحل العربي في خليج العرب، انباني خادمي الفارسي بان احدا الاعراب يود ان يراني.

وما لبث ان دخل عليّ بدوي طويل القامة، شديد الشحوب، قذر المنظر تماما، فحياني وقال لي «هلو! هل لديك شئ ما آكله؟» . لم يكن ذلك البدوي سوى لجمن الذي وصل الآن توا من جولة امتدت ستة اشهر عبر الجزيرة العربية، من دمشق في طريق لم يطرقه احد قبله. لقد كان يعتزم ان يواصل رحلته البرية الى مسقط ولكنه بسبب الاضطراب العشائري الداخلي، كان قد اجبر ان يرحل الى «العجير» التي تقع على البر الرئيس المقابل للبحرين، ومن هناك قدم باحد الزوارق الاهلية [1] . ولقد واجهتهم عاصفة سيئة، فاضطر نتيجة ذلك، على ان يمضي ثلاثة ايام على ظهر ذلك الزورق، من دون طعام فعلا، وان يختلط مع حشد من العرب قذري الملبس ممن يغوصون في البحر.

---

(١) BAGGALOW من الزوارق التي كانت تستخدم في الخليج العربي حتى اوائل القرن الحالي. وكان البحارة يطلقون عليها اسم «البغلة»

وقدمت اليه ما بقي لدي من الطعام، لكنني اكتشفته اخيرا في المطبخ، مع واحد من رفاقه العرب الذي قطع الرحلة كلها معه، يجلس امام صحن كبير من الرز وهو يلتهم منه بنهم من ذلك الطعام بشراهة، مستخدما في ذلك اصابعه حسب الطريقه العربية الحقة.

وذهبت بعد ذلك فوراً الى البصرة في احدى البواخر التي كانت تقف في الميناء وابحرت حالا، في حين كان لجمن يقصد المضي الى ميناء بوشهر، ولقد خرج معي وهو لا يزال بلباسه العربي. ان تنكره الفاخر يمكن التدليل عليه من الحقيقه القائمة، ذلك انه حاول ان يحجز له في الباخره احدى المقصورات ،حيث صعد سلم الدرجة الاولى، واذ ذاك وبخه الضابط الرئيس ،اي الربان في الباخرة، وابلغه بان المسافرين العرب على ظهر السفينه ينبغي ان يستخدموا السلم الاخر. كان السؤال الذي يجرى طرحة دوما، ماإذاكان لجمن قد استطاع ان يمر بين العرب انفسهم في صفة عربي. كان يستطيع ذلك، وان ينفذه فعلا متى ما شاء. كانت لدينا قبلاً جملة امثلة على تنكرة في صفة اعرابي، ولم يتم اختراق او اكتشاف هذه الصفة.مثال ذلك عندما شاركه رجال الجندرمة الاتراك المكوث معه في ذات الخان الذي كان فيه،ومن دون ان يرتابوا فيه.وحين اعترض الحرس والقوات الموجودة في المقيمية البريطانيه ببغداد، بكل شدة دخوله اليها،وحين اجتاز العرب من سكنة شواطئ الانهار، اثناء عودته من رحلته الاولى من دون ان يكتشف امره لولا بلادة خادمة التي كشفت هويته.

وكذلك اثناء رحلته الثانية حين اعتبر بان مما ينصح به وفقاً لنصيحة الامير، في صفة واحد من سكنة الموصل، ومن دون ان يرتاب اي انسان فيه. واخيرا استقر لجمن مع بعض الجوابين من الاعراب ،الذين لو كانوا قد ارتابوا في امره لقتلوة فعلا!.

لقد ذكرنا في بداية هذا التاريخ ان لجمن كان ممثلا فاخرا،يستطيع ان يتظاهر بالغضب، وبالتفاهة، والسكر بصفة طبيعية، بحيث ينخدع بذلك اقرب المقربين من اصدقائه. وفضلا عن ذلك فانه كان يستطيع ان يمثل احدا لادوار لمدد طويلة،على الرغم من شدتها،وان يحافظ عليها كاملة،الى ان تحين الضرورة للافتراض بان تلك الحاجة قد انتفت.

كانت لديه موهبة ملاحظة التفاصيل الدقيقة للعادات وللسلوك، وكان يعاني الالام المبرحة لكي يدرس اية طريقة او عادة قد تساعده في الحفاظ على دوره. وكان من سوء الحظ انه لم تتوفر لدينا المعلومات الاخرى عن الرحلة التي قام بها،سوى معلوماته هو.ويبدو لنا بانه قد اجتاز تلك الرحلة من دون ادنى حادث معوق، وبحظ سعيد، وامن تام، ما خلا بعض الحوادث الصغرى التي سجلت في بدايتها.

لم يكن لجمن قد تجاوز الثانية والثلاثين من عمره. وكانت قوته البدنيه والعقلية في اعلى مرحلة منها، فكان رجلا ذا قوى استثنائية وقدرة في هذا الاتجاه الذي تخصص فيه. ولعل من المدهش

ان نرى ما حدث له بين شهر كانون الثاني في سنة ١٩١٣، وبداية سنة ١٩١٥، حين استدعي الى العراق. قد يتصور المرء بان لجمن سوف يعين حالا في ذلك القسم التابع للاركان العامة في «سملا»، والذي يعالج امور الشرق الاوسط، وانه بالنسبة الى الوضع العام، سوف تعطى له تسهيلات خاصة لدراسة الوضع العسكري في تلك المنطقه دراسة مكثفة، لم يحدث اي شيّ من هذا القبيل ابدا. صحيح انه كان حال عودته الى الهند قد استدعي الى «سملا» لكي يقدم معلومات شخصية تخص الشؤون العربية، وانه قد انكب على العمل للتصحيح وتقديم معلومات حديثة جدا عن تلك البلاد، لكنه ما لبث بعد عشرة ايام ان عاد الى كتيبته في زاول بندي.

في اليوم التاسع والعشرين من شهر كانون الاول سنة ١٩١٣، كتب لجمن يقول «عدت من سملا» يوم امس. لقد امضيت عشرة ايام مضنية هناك، وانني لن ادعهم يستخدمونني في عمل شاق مقابل لا شيّ، كما هو واقع الامر، اذا لم يكن لديهم شيّ لطيف. لقد جلبت اي مقدار معي، ولسوف يستمر جيدا اثناء الصيف».

وفي شهر ايلول من تلك السنة التحق برحلته الثانية في «كشمير» وفي هذه المناسبة راح يتعقب دباً اسمر، والوصول الى مدينة «سامبور»[٢]، فكتب الى امه في اليوم الثاني عشر من شهر ايلول يقول انني اعد خطتي للخروج اخيرا، وان اتحمل قطع مائتي ميل بالسيارة الى «سرنغار»[٣]. في الواقع انني لم افكر في ذلك كثيرا، سوى ان الرحلة لن تستغرق يومين، وان هناك اشياء، سوف اتطلع اليها خلال الطريق. ان كشمير فخمة جدا تماما. فهناك انق جو، لايمكن ان يحس المرء فيه حتى لسعة واحدة، وان الموقع كله عبارة عن كتلة من التفاح. هبطت «جيلوم»[٤] ونزلت في بيت مشاد على زورق. انها رحلة محبوبة!»

عاد لجمن من هذة الاجازة التي اصابها، الى زاول بندي وعلى الفور عين برتبة رائد فيلق[٥] «في بشاور» تحت امرة الجنرال يونغ الذي كان من كتيبته في يوم ما، والذي كان لجمن يعجب اعجابا شديدا، بصفاته العسكرية. وفي هذا المنصب حصل لجمن على الملاحظات التالية التي رفعها عنه الجنرال يونغ. في تقرير كتبه «يونغ» في سنة ١٩١٤ يقول عن لجمن «لقد اظهر جدارة ملموسة في اعمال الاركان، ومارس واجبات رائد لواء، بمزيد من النجاح. لقد كان سريعا في العمل، يعتمد عليه، وهو حي الضمير»

---

(٢) SAMBUR

(٣) SRINGAR : من المدن المعروفة في الهند وكانت الاولى (سامبور) هي التي حجز فيها اكثرية الاسرى العراقيين في الحرب العالمية الاولى

(٤) JHELUM

(٥) BRIGADEMAJOR

والى هذا اضاف قائدا احدى الفرق هو الجنرال «بلومفيلد» [٦] يقول «لدي فكرة سامية عن قيمة لجمن بصفته ضابطا. فهو صلب، وفعال جدا من الناحية البدنية، ولديه احكام صائبة، ومستوى عال جدا، وهو فارس جيد، وذو نظرة فاخرة بالنسبة الى البلاد، وهو يعد اختيارا حسنا جدا في قائمة الخدمة الخاصة».

على ان لجمن لم يكن ليتباهى بمؤهلاته وبقدراته، ولذلك فان رؤساءه لم يتحققوا من قيمته الحقيقية. ويبدو بانه من غير المصدق ان نتحقق بان لجمن كان قد مكث في «بشاور» حتى سنة ١٩١٥. كانت القوة الاستطلاعية [٧] التي تألفت من اسطول هائل ضم سبعا واربعين سفينة، قد غادرت «بومباي» في اليوم السادس عشر من شهر تشرين الاول سنة ١٩١٤، وفقاً لاوامر تنص عليها بان تبحر. كان قسم من هذا الاسطول قد تقرر ارساله الى افريقيا الشرقيه، وقسم آخر الى العراق، وكانت الحرب العالمية الاولى قد بدأت.

وليس من باب المبالغة ان نقول بان لجمن قدتم استخدامه لكي يخلف النقيب المسكين «شكسبير» الذي فقد حياته في احدى المعارك بين ابن السعود وابن الرشيد، وان مجرى الحوادث في فلسطين والعراق، كان قد تغير هو الاخر. ذلك ان لجمن حين استدعي للمشاركة في قوة الاستطلاع كان قد عين ضابطا سياسيا فيها.

---

(٦) C. J. BLOMFIELD كان هو والجنرال يونغ ممن شاركوا في الثورة العربية في الحجاز، والعمل لدى الحكومة العراقية بعد الحرب العالمية الاولى

(٧) يقصد بها الحملة الانكليزية التي ارسلت من الهند للاستيلاء على العراق واحتلاله وقد تم التستر عليها في صفة انها حملة للاستطلاع تهدف الى حماية ابار النفط في ايران والتي كانت تملكها(شركة النفط الانكليزية الفارسية) وللحكومة البريطانية النصيب الاوفى من رأسمالها

«الفصل العاشر»
رأس الرمح في الفتوح

في اليوم الحادي عشر من شهر اذار سنة ١٩١٥ هبط «لجمن» البصرة تحت امرة «السر برسي زكريا كوكس» الضابط السياسي الرئيس لقوة الحملة العراقية، والتي تولى امرتها فيما بعد، «الفريق السر بين»[1]. وحين اتينا لنكتب سجل منجزات لجمن في العراق، جوبهنا على الفور بمصاعب شديدة، ذلك لأنه لاتوجد من الناحية العملية اية سجلات عن تلك المنجزات. ويعود سبب ذلك في الواقع الى انه كان من النادر ان يقدم لجمن على ذكر اعماله او التحدث عنها.

على ان الجواب التالي على استفسار عن معلومات عنه، كان قد صدر عن دائرة المندوب السامي للعراق (في سنة ١٩٢٥) يوفر تعليقاً وافياً جاء فيه «لاتوجد مستندات رسمية في اضابيرنا من شأنها ان تساعد على اعطاء معلومات عن لجمن. ولكن الشيئ المثير جداً عن العقيد لجمن هو شخصيته التي بلغ بها درجة غير اعتيادية من النشاط والجرأة، والذي اقترحه هو ان غرضكم يمكن خدمته بصفة افضل من قبل اناس كانوا يعرفون لجمن وقد عملوا معه في هذه البلاد ولقد كتب السكرتير السياسي للمندوب السامي مرة اخرى يقول «لايوجد سوى بيان مبتسر ليس الا من اوامر التعيينات والتواريخ التي يمكن ان تتجمع من سجلاتنا».

حين هبط لجمن البصرة كان الوضع من وجهة نظر العرب غير واف ابداً. ذلك لأن العرب كانوا يتأثرون بالحوادث القريبة التي تجعلهم من النهاز. فلم يكن الوضع العسكري مشجعاً جداً، وكان اول انطباع لدى لجمن عن ذلك الوضع هو: ان البريطانيين قد تشتتوا في وقت غير ملائم «فالعساكر قد تناثرت في كل انحاء القطر، ولم تكن الأنباء التي ترد عنها حسنة. ونتيجة لذلك كان العرب في نطاق من العمليات الحربية، غير متأكدين من انتصار البريطانيين، وأن التوقف غير المحظوظ وطويل الأمد قد نجم عنه وقوف القسم الأعظم من العرب الى جانب الأتراك، وتلك حالة كان من المستطاع تجنبها بالسير قدماً نحو «العمارة» و «الناصرية» اذا كان مثل هذا الأمر مستطاعاً. في مقدورنا ان نعطف على عمل العرب، لأن املاكهم وأراضيهم ماتزال محتلة من

(١) Lieut. Gen sir A.A. Bane

قبل الأتراك الذين قد يتخذون خطوات شديدة ومرعبة ضد اي عمل معاد لهم. فلقد كان اعظم موقع متقدم للقوات البريطانية في هذا الوقت هو «القرنة»، عند التقاء نهر دجلة بنهر الفرات. وكانت هناك قوة كبيرة في «الشعيبة» على بعد عشرة اميال من البصرة في غمرة الصحراء العربية. ولقد تعقد الوضع وغدا غير ملائم، نتيجة اندحارنا الأخير في «الأحواز»، والذي وفر لقبائل الأحواز في نهر «كارون» وأهوار «الحويزة» تقديم السلاح الى قبيلة «بني لام» المؤيده للأتراك. والتي يتزعمها رئيسها العنيد «غضبان بن بنية». فمن هذه الأوضاع غير الملائمة من وجهة النظر البريطانية، استفاد جواسيس الأتراك والألمان فائدة تامة ولاسيما الجواسيس الألمان.
فتحت حماية الزعامة القديرة للهروسمس [٢] القنصل الألماني السابق في «بوشهر» والذي استطاع ان يفلت من كل المحاولات التي دبرت لألقاء القبض عليه، لم يدع جواسيس الألمان اية وسيلة لحمل القبائل العربية على مقاومة الحركات البريطانية. لقد عمل هؤلاء الجواسيس الألمان بعناية، وشاركوا في العمليات النشطة، والمعادية للنشاط البريطاني الذي لم يشمل العراق وحدة حسب، بل الشرق الأوسط برمته حتى حدود الهند. لقد كان العرب يغيرون مثل اسراب الذباب على اجنحة القوات البريطانية، فلا يضيعون اية فرصة للنهب، ولقتل جرحانا وسلبهم! وعلى هذا كانت المهمة الملقاة على عاتق الضباط السياسيين البريطانيين ثابتة في شدتها. ذلك لأنه كان ينبغي ايضاً استئصال النفوذ التركي والألماني، عن طريق الثقة بالبريطانيين، والأيمان بأنتصارهم النهائي. كانت المهمة العظمى لأستتباب الأمن، والأستيلاء على البلاد في مؤخرة جيشنا ينبغي القيام بها من قبل السلطات العسكرية التي قد تسيئ توفير الجند لهذا الغرض.
ولقد تحقق ذلك الهدف بالأعتماد في الدرجة الأولى على الثقة في لجمن الذي كان يخاطر بحياته، ويتصرف بمثابة رأس الرمح لسيطرة السياسة البريطانية [٣]. وكان العمل التمهيدي الذي يقوم به لجمن، يلقي المساندة والتوطيد من لدن جهود عظيمة تؤديها مجموعه من الضباط السياسيين الجريئين والقديرين تحت القيادة المجربة القادرة للسير برسي كوكس، والتي يدعمها كل من العقيد ارنولد ولسن، والسير سانت جون فلبي والعقيد «مرفي» [٤] من فرع الأستخبارات

---

(٢) Herr Wasmus من اشهر الدبلوماسيين الالمان الذين عملوا قبل الحرب العالمية الاولى بسنوات في القسم الجنوبي من ايران وفي ميناء بوشهر على الخليج ولقد استطاع ان ينظم شبكة تجسس حاذقة في تلك الانحاء وكان من اشهر جواسيسه «الهر بروسر» الذي القى الانكليز القبض عليه اثناء الحرب العالمية الاولى.

(٣) استفاد لجمن جل الفائدة من سفراته السابقة في العراق قبل الحرب . ولذلك حين تحرك الجيش الانكليزي من البصرة صعدا الى الشمال والغرب، كان لجمن يسير في مقدمة الجيش الزاحف يدله على الطريق اولا، ويتصل باصدقائه ومعارفه السابقين في تلك الانحاء محاولا اقناعهم واغوائهم بالعطايا لان يمهدوا السبيل امام الجيش الفاتح او عدم مقاومته على الاقل (انظر كتابنا (من قصص الجاسوسية في البلاد العربية ج[١] طبعة ١٩٨٦)

(٤) Col. c.c.r. murphy

ومساعدة النقيب «غرّيبون»[٥]، والنقيب «كامبل تومبسون» المتخصص في الأشوريات[٦] والمستر «فان ايس»[٧] من البعثة التبشيرية الأمريكية في البصرة، والمستر «غريغسون» مدير الشرطة وآخرون غيرهم[٨].

ولم يكن عمل لجمن ليقتصر على صفته ضابطاً في الدائرة السياسية حسب، وأنما كان نفسه يتولى صفة ضابط المخابرات للجيش. ونظراً لعمله وهو متنكر خلف الخطوط التركية، استطاع ان يهيء البلاد لأستقبال القوات البريطانية بصفة ودية حيثما كانت تتقدم[٩].

امضى لجمن الأيام القلائل الأولى بعد وصوله، في تقييم الوضع كما يحكم على الوسيلة التي يستطيع بها ان يفيد من مواهبه النادرة لأستخلاص افضل فائدة. وما ان قدر مسرى عمله حتى القى بنفسه في خضم مهمته في طاقة لاتكل ولا تتوقف. ولقد كانت اهدافه بسيطة من الناحية النظرية، لكنها كانت عسيرة مخطرة عند التنفيذ.

استطاع اول الأمر ان يتصل مع اصدقائه من العرب الذين اصطفاهم لنفسه قبل ان تقع الحرب في هذه المنطقة، لذلك أخذت بلاده تجني ثمرات اعماله حين كان يعمل في صفة رحالة ايام السلم. في اليوم الأول من نيسان (سنة ١٩١٥ — المترجم) كتب لجمن يقول (لقد التقيت بالكثير من الأصدقاء القدامى من العرب. وما ان اقبلوا عليَّ ورأوني في وضع جيد حتى بدأ كل واحد منهم يمضي نصف ساعة على الأقل في زيارتي، وعلى هذه الشاكلة كان وقتي مشغولاً بهذه الزيارات تماماً.

لقد صمم لجمن على استخدام هولاء الأصدقاء من العرب العائدين له الى ابعد مدى استطاع، وأن يوطد علاقاته الشخصية مع الزعماء في اي مكان يستطيع ان يصل اليه، حتى وأن كانوا يقيمون فيا وراء الخطوط التركية. وما ان جدد اتصالاته مع الأشراف المحليين في البصرة، من امثال عبداللطيف المنديل، ومحمد الشغينة، وآخرين، حتى حول اهتمامه الى الأشخاص الذين يقيمون في اماكن اكثر بعداً

---

(٥) Cap. gribbon

(٦) Cap. r. cambell thompson

(٧) Van esse

مدير مدرسة رأس الرجاء الامريكية التبشيرية في البصرة قبل الحرب العالمية الاولى وما بعدها

(٨) E.c. gregson

(٩) لسنا نوافق المؤلف تماما في هذا القول: صحيح ان البعض من رحبوا بالجواسيس والعملاء قد رحبوا بدخول الانكليز الى العراق، لكن هؤلاء كانوا اقلية لا يؤبه بها الى جانب الفئات والجماعات التي وقفت موقف المعارضة بل وحتى اشهار السلاح ضد الانكليز في حين حاولت فئات كبيرة من العراقيين ربما كانت تمثل الاكثرية ان تقف على الحياد، او ان تخفي مواقفها الحقيقية وتروح تراقب مجريات الحرب كيا تقرر مواقفها في النهاية.

كان يتجول في اطراف البصرة، ويقوم بعمليات استطلاع جريئة، محفوفة بالمخاطر للمواضع التركية فقد كان يتسلل تحت جنح الظلام زاحفاً الى الخنادق التركية، ثم يعود منها مثقلاً بالمعلومات القيمة التي تخص اوضاع تلك الخنادق. كانت له عين عجيبة في تشخيص الريف، وكانت تقاريرة الى مقر الجيش البريطاني تنطوي على اعظم قيمة. ولم تكن هذه الأستطلاعات لتقتصر على استحصال المعلومات ذات الطبيعة العسكرية حسب وأنما تتعداها الى مراقبة النشاط الذي يقوم به العرب، والذي اصبح الآن مسئولاً عنه، اذ ان تلك المراقبة كانت في الواقع تمثل عمله الحقيقي الذي كان يؤديه. حين كان لجمن يحقق اتصاله بالزعماء العرب ضمن الخطوط البريطانية، كان يستخدمهم في التأثير على رؤساء العشائر الذين يسكنون على اطراف تلك الخطوط. وما ان استطاع لجمن ان يضمن صداقة هؤلاء الرؤساء الأخيرين، حتى كان يتنكر في صفة عضو من مجمعهم، ويروح يعمل في مؤخرة الجيش التركي، ولم يكن الأتراك يرتابون فيه الا في مصادفة واحده[١٠]، وذلك نتيجة تنكرة الفاخر، وأخلاص المتعاونين معه من العرب، وسرعة حركاته وشجاعتها. فقد كان يخفي اسرار خططه حتى عن رؤسائه الذين كانوا يعارضونها

في اليوم السادس من نيسان، ارسل لجمن في صفة ضابط سياسي الى «الشعيبة» على الجناح الأيسر للجيش البريطاني. ولقد وصل الى موقعه بعد ان خوّض خلال ستة اميال من صحراء طغى عليها الفيضان، ومن ثم اتخذ مقره مع الجنرال «فراي» واركانه في «الحصن» وقد وصف الموقع يقول عنه «انه مكان كافرجدا، تكتنفه سحب من الغبار وقذارة عامة من كل الاصناف!»[١١].

ومع ذلك كله فقد تأثر بالموقع، وراح على الفور يطوف حول المواضع ويستقصى اخبار المعسكر التركي القائم في «النخيلة»[١٢].

وفي اليوم العاشر من الشهر، دفعت وحدة استطلاع مؤلفة من حوالي ستين من الخيالة العرب «الذين انطلقوا بسرعة وشجاعة امام انظار المعسكر، بطريقة اعتيادية الى ان تم تعزيز قوة الخيالة». كان هذا مثالاً من مشاركة العرب التي صمم لجمن على ايقافها، والتي وضع لها حداً نهائياً.

حدث خلال الأيام الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر من الشهر قتال كثيف. وفي مساء اليوم الثالث عشر تقدم البريطانيون للهجوم، فأسروا عدداً من الأتراك، وأذ ذاك تراجع العدو مخلفاً الأرض وراءه ملئ بقتلاه وجرحاه. وفي ليلة الرابع عشر انسحب الأتراك وأخلوا

(١٠) اشرنا الى هذه الحادثة في كتابنا من قصص الجاسوسية في البلاد العربية «ج١» لجمن يقع في الفخ ولكن!.

(١١) Gen . fry

(١٢) النخيلة: منطقة نخيل على مقربة من الشعيبة

معسكرهم. وهنا نجد وصفاً موجزاً للمعركة بعث به لجمن الى شقيقته «مابل»[١٣] في اليوم الخامس عشر من الشهر، جواباً منه على رسالة وردت اليه منها تهنؤه فيها لأنه كان قد شهد خدمة فعالة.

قال لجمن في رسالته تلك «اشكرك جداً على رسالة التهاني التي بعثت بها اليَّ. وبالطبع انها مسألة تهنئة لأن اشترك في الخدمة فعلاً.

لكنني لست متأكداً بأن هذا العمل يلائمني بصفة جيدة جداً. لست اعتقد بأنني رجل دبلوماسي (يشير بذلك الى تعيينه في مقر الخدمة السياسية، حيث ينبغي له ان يكون لائقاً للخدمة العسكرية). ان لدي مزاج سيئ. ولقد كنت محظوظاً لأن اشهد هذا القسم من العالم. كان قتالاً عظيماً، فلم ار مثل هذا القصف، وكان ينبغي لنا ان نجلس في العراء بدلاً من ان نكون في الخنادق. كانت الكتائب البريطانية مدهشة. وعلى هذه الشاكلة ايضاً كان الضباط البريطانيون من الكتائب الأهلية (انني فرح لأن «جوان»[١٤] (ابنة اخيه) في صحة جيدة.)

يصعب العثور في هذه الرسالة على كلمة واحدة ليشير فيها الى نفسه، او الى ما كان يفعله، ولماذا اصبح ضابطاً سياسيا، وغير محارب يجلس في موقف مكشوف يجري قصفه بكثافة. وينهي لجمن رسالته تلك بقوله «اراني مضطراً، نتيجة هياجكم، الى ان اتزوج!. ولكن زوجتي ستكون يهودية من البصرة، وأن معظمهن تزن ثماني عشرة حجرة[١٥] حين تكون في الخامسة عشرة من عمرها، ذات وجه اشبه بوجوه الملائكة الحزانى.... انني اكرة المكتنزات... محبتي للجميع!».

عاد لجمن الى البصرة في اليوم الثاني والعشرين من شهر نيسان ذاته. غير ان الوقت الذي امضاه في «الشعيبة» كان كافياً لأن يربط العرب المتذبذبين بقضية البريطانيين. ولسوء الحظ لم تكن لدينا، بصفة عملية، اية معلومات عن الكيفية التي انجز بها هذه المهمة الخطيرة. غير ان المقتطفات التالية من تقييم، كتبه بشكل معجب، احد اصدقائه ممن كان ذا صلة وثيقة معه،

يمكن استخدامهذا التالية من تقييم، كتبه بشكل معجب، احد اصدقائه ممن كان ذا صلة وثيقة معه يمكن استخدامها لهذا المثال وللأسئلة الأخرى يقول هذا الصديق عن لجمن «كان نجاحه في مسايسة العرب، يقوم على اساس احترامهم لشجاعته، وعدله وتحرره، بالأشتراك مع شيئ محدد من الخوف، ومن الكراهية التي لاتلين للأكاذيب والخيانة. فقد كان يستطيع في بعض المناسبات ان يدهشهم بالغضب الذي كان يبديه. في كثير من الحالات كان احد الشيوخ، يتصرف– تحت تأثير لجمن– تصرف الأنسان النبيل، وأن كان قبلاً قبيح المسلك حقاً. كان لجمن مسيطراً على

(١٣) Mabel

(١٤) Joan

(١٥) حجرة: وحدة وزن بريطانية تعادل اربعة عشر باوندا Stone

بعض العشائر سيطرة جوهرية، وليس على سكان المدن، وكانت طرائقه في معاملتهم صارمة».
«لم يكن ليحنث بأي قسم يقطعه لأصدقائه العرب، بل حتى لأعدائه. فقد كانت كلمته هي الرباط الذي يربطه بهم، وكانوا يعرفون ذلك عنه. فأذا ماقال بأنه سوف يعاقب، فأنه يفعل ذلك بكل تأكيد وبمنتهى الرعب. وأذا ما قال بأنه سوف يكافئ، فأن المكافأة تكون سخية!.
لقد استطاع لجمن، خلال الأيام الأولى العسيرة في البصرة، ان يتبنى شهرته بين العرب.

وصلت الأنبا الى لجمن من البصرة في بداية شهر ايار (سنة ١٩١٥- المترجم) بأن احد الشيوخ الذي يقطن خلف جناح الخطوط التركية، والذي كان قد اقسم اليمين بالصداقة، قد ابلغ الأتراك بأن لجمن كان قد زاره، وأفضى اليه بالغرض من زيارته تلك (تنتقل الأخبار بسرعة عجيبة في الجزيرة العربية، ولذلك الم لجمن، خلال ساعات قلائل بما حدث. وأذ ذاك اشترى مهراً عربياً «متوحشاً» ومضى يجوب الريف. وعند حلول الظلام، ومن دون ان يعرفه احد، تنكر ومضى الى جناح الخط البريطاني، فزار خط الجبهة عند الظهر، وألتقط عدداً من اصدقائه العرب. وبعد ان استداروا حول الخطوط التركية، ظهروا عند ذلك الشيخ. جابه لجمن ذلك الشيخ بالتهم التي وجهها اليه بحيث لم يستطع انكارها، وأذ ذاك جلده لجمن امام اهله وأصدقائه من العرب، ومن ثم اخذه الى البصرة.

وفي الخامس عشر من شهر ايار كتب لجمن الى امه يقول لها «لقد غدوت شديد القلق اريد ان انطلق في التيه، لكنني اخشى ان يكون هذا الأمر خارج نطاق التساؤل في الوقت الحاضر. لم يكن قد قرر ان ينطلق في التيه. ومع ذلك تم ارساله في صفة ضابط سياسي مع القوات البريطانية التي حققت التقدم الرهيب نحو بغداد. كان قد توجه الى «العمارة»، ومنها الى الكوت، وأخيراً وصل ضمن خمسة وأربعين ميلاً من بغداد، وذلك في الوقت الذي بدأ الأتراك فيه ينسحبون بشكل ثابت من بغداد، فغدا سقوط المدينة بأيدي البريطانيين متوقعاً كل يوم.

وفي العاشر من شهر تشرين الأول كتب من «العزيزية» خارج بغداد يقول «لست اتذكر ما اذا كنت قد كتبت من هنا قبلا ام لا. ومهما يكن فان هذه هي ابعد نقطة الى الشمال في اللحظة الحاضرة، ومن ثم عدت والجيش التركي ورائي. غير ان ذلك قد حصل في وقت مضى الآن، فنحن نجلس الآن ينظر احدنا الى الآخر على مسافة قريبة جداً...«تذهب الطائرة الى بغداد، وأنني أفترض بأن ذلك يثير الفرحة في عيون النساء الأنكليزيات التي مازالت مغمضة هناك. لقد تحول الجو الآن من الحر المخيف الى البرد الشديد. لست متأكداً مما اذا كنت افضل الحر، لأن بأستطاعة المرء حينذاك ان يخلع ملابسه، لكنه لن يستطيع ان يرتدي الملابس اذا لم يحصل عليها! انني غارق في العمل من الصباح حتى الليل. انه يمتد من شراء الأغنام للفرقة برمتها. وشراء التبن لحوالي عشرة الاف من الحيوانات، ودفع الف باون الى احد الشيوخ مقابل قيامه بعمل قذر.... فاليوم كله عمل بكل ساعاته الأربع والعشرين!

كان العمل الاول الذي ينهض به لجمن آنذاك هو ان يتصل بالعرب في المناطق التي انسحب الاتراك منها. فهو يبلغهم بأقتراب البريطانيين من المناطق، ويأمرهم، بأن يهيئوا التموينات، ويحصل على كمية من المعلومات القيمة من الناحيتين السياسية والعسكرية معاً. فضلاً عن ذلك كان لجمن ينظم مصلحة استخباراته حيثما يذهب، ويقتنص الذين يعتبرهم نافعين فيضم اسماءهم الى قائمة المرتبات التي كان يدفعها. ولذلك كان المستر «فلبي» (الشيخ عبدالله فلبي– المترجم» يتولى في الوقت اللازم، «المهمة الغريبة لمعالجة معاملات لجمن. وغالباً ما كان يتم تدوين الأعمال المالية الواسعة على قطع صغيرة من الورق والتي لم يكن من اليسير حل رموزها!...

كان لجمن قد استخدم كل ما لديه من قوى الأقناع لأجتذاب المزيد من الرجال الأقوياء الى جانب البريطانيين، او تخويف البعض بتجنب النشاط المعادي. ولهذا الغرض كان على الدوام في حركة دائبة. فغالباً ما كان يمضي الليلة كلها، مسافراً الى قرية منعزلة خلف الخطوط التركية. وتلك هي المهات الخطيرة التي كان يؤديها بأستمرار. كانت لديه موهبة الألمام بالأراضي التي يطرقها، ولذلك كان– حسب ما يقوله شيخ قبيلة «عنزة»[١٦]– «يعرف الصحراء افضل مما يعرفها الأعراب انفسهم، ويستطيع ان يجتاز اي مكان من دون دليل».

* * *

بعد مضي اسبوع فيما بعد ذلك، وحين كانت الجيوش البريطانية والتركية توشك ان تقف وجهاً لوجه عند «العزيزية»، اوضح لجمن في احدى رسائله، مثالاً آخر على عادته في انزال العقوبة السريعة، فقال «ما زلت في ذات المكان كما تعرفون، وكان كل شيء يبعث على السأم... لماذا؟ لا أعرف سبب ذلك حقاً لست انا، كما اعهد نفسي بصفة خاصة، لكن لدي المزيد مما ينبغي عليَّ عمله. فلقد ابلغوني بأن اسجل عدداً من الخيالة العرب، وبكل بساطة اقترحت عليهم بأن يكون هؤلاء الخيالة تحت أمرتي أنا. (توقفت الرساله هنا ثم استمرت تتحدث بعد اربعة ايام) «ينبغي عليَّ ان انحدر الى النهر لألقي درساً على بعض العرب الذين اطلقوا النيران على سفننا. لقد نسوا – لحماقتهم – ان مخيمهم يقع في حوض النهر. وعلى هذا فأن اطلاقة طائشة وسط خيمة الشيخ قد تعرِّفهم بالخطأ الذي انطوت عليه طرائقهم... ومن ثم عدت في ذات الوقت لكي اساعد في شن هجوم ليلي تقوم به القوة كلها على اقرب موقع للأتراك»

كان لجمن هو الذي قاد ذلك الهجوم الليلي، ولذلك قال في احدى رسائله «نمضي الليل كله

---

(١٦) هو الشيخ محروت بن هذال من اقدم شيوخ الدليم الذين تعاونوا مع البريطانيين قبل الاحتلال وما بعده

سائرين في برد كان ينخر العظام. وعند الفجر تماماً وجدنا الأتراك قد هربوا، فرحنا نتعقب آثارهم، وفاجأناهم ببداية مؤذية مخيفة». وفي اليوم العاشر من شهر تشرين الثاني كتب لجمن في احدى رسائله يقول «مازلت باق هنا لكنني آمل ان لا يطول بقائي. لقد جوبهت بقدر لا بأس به من المشاكل مؤخراً (متى كان يصيب اية راحة ؟) لقد ادهشنا الأعراب، وقتلنا عدداً منهم، وكانت نتيجة ذلك ان اصبح التابعون لي يتصرفون بشكل افضل مما كانوا يفعلونه قبلا. وبوصولنا الى بغداد آمل بأنهم سوف يستقرون حقاً».

ويستمر في رسالته فيقول «ان بلدتي السابقة، (العمارة)، هادئة بشكل عجيب وحسنة السلوك، ولقد اصبح العرب فيها نماذج للمواطنين. انني اشعر بالحزن الشديد لأنكم قد اهملتموني... انني اتوقع الحصول على دفعات من الجوارب، والألبسة الدافئة، والحلويات وغيرها. لكن كل هذه المواد لم تصلني. ان افراد الجيش يحصلون على رزم عجيبة. ليس لدينا مانأكله الآن، وأعتقد ان مرد ذلك يعود الى اننا قد اصبحنا على مسافة بعيدة.

«قد يكون من المستحسن ان لاتبعثوا بهذه الأشياء، فقد لا اتسلمها... ان السر برسي كوكس في طريقه الى هنا. انه يتعقب طريقي بصفة عامة لكي يصحح اخطائي».

وفي رسالته الصادرة عن (اللج)[١٧] والمؤرخة في اليوم السادس والعشرين من شهر تشرين الثاني، يقول لجمن «خضنا معركة كبرى في طيسفون» منذ كتبت لكم، مرة اخرى. كان لدى الأتراك موضع قوي جداً. وعدد كبير من العساكر. كان رجالنا فاخرين. لست اعتقد ان هناك رجالاً يستطيعون مواجهة مثل هذا النوع ، من قصف النيران من القذائف والبنادق، ومن دون ذرة من غطاء. سوف ترون المزيد عن هذا من الصحف، ولذلك فلست اريد ان انبئكم بالمزيد عنه.«استمرت العمليات الحربية اربعة ايام. في الليلة الأولى كنت اسير طيلة الليل، وهوجمت في الليلة الثانية، وفي الليلة الثالثة كنت ابحث عن ارسالية فقدت من الجرحى الذين اطلقت النار عليهم من قبل الأصدقاء والأعداء معاً! . اما في الليلة الرابعة فقد كنت سائراً. اليوم هو الذي اعقب الأيام الأربعة، ولذلك ارجو ان تعذروني اذا لم تكن الرسالة مثلما يجب ان تكون عليه. لقد قتل عدد من الأصدقاء!».

* * *

(١٧) اللج: ثنية في نهر دجلة بين العزيزية والمدائن. كانت من المواقع التي تم تبادلها عدة مرات بين الانكليز والاتراك خلال معارك المدائن، وقبل سقوط الكوت وبعده ،واثناء تقدم الانكليز نحو بغداد

ادى الأندحار في طيسفون الى تراجع مدمر للجيش البريطاني. فبدلاً مما كان يظن عنه بأنه الأستيلاء السريع واليسير على بغداد، تراجع البريطانيون ممزقين الى «العمارة»، وذلك في الوقت الذي تمت فيه التضحية بالفرقة السادسة في «الكوت»، في سبيل وقف التقدم التركي من ناحية، ولعدم القدرة على مواصلة التراجع من ناحية اخرى. ذلك ان رجالنا، بعد التجربة المهلكة في طيسفون كانوا قد تعرضوا لتراجع متعب، ولهذا تسمرت الفرقة السادسة، تحت امرة الجنرال (طاونزند) في «كوت الأمارة» لكي تسبق التقدم التركي، ولتريح رجالها. لقد كان يظن بأن لايطول الوقت قبل ان يستطيع الجيش، تحت غطاء الكوت، ان يعيد تنظيمه، وأن يتم دحر الأتراك مرة اخرى. كان الطعام شحيحاً، وكان العدو قد احاط بالكوت احاطة كلية. ولقد تقرر، ان كان ذلك مستطاعاً، اخراج الخيالة وبعض المدافع من هناك، لأنها ستكون بدون جدوى، وأن الحاجة الى اطعام الخيول سوف تكون خارج نطاق المواد الضئيلة الموجودة تحت تصرف هذه القوة الصغيرة.

هل في مستطاعهم ان يخرجوا من هناك؟ كان هذا هو السؤال الذي تم طرحه. لايوجد سوى رجل واحد يستطيع ان يفعل ذلك، وأن ذلك الرجل هو لجمن وحده، لأن المامه الواسع بالقطر، وبرودة اعصابه، وشجاعته كانت تمثل الأمل الوحيد لتلك المخاطرة اليائسة[18].

احاط الاتراك بالموقع البريطاني كما قلنا. كانت فرصة ميئوس منها بالنسبة الى لجمن، ذلك لان الامور كانت تحول دون نجاحه غير ان لجمن استطاع ان ينجح، وان لم يذكر سوى النزر اليسير عن مغامرته تلك. فلقد كتب «خضيربن عباس» دليل لجمن في سنة ١٩١٠، ودليله وجاسوسه خلال الفترة مابين سني ١٩١٧ - ١٩٢٠، عن هذا الموضوع يقول «واحدة من مغامرات لجمن التي يجب ان تدون بمداد الذهب، انه حين حوصرت قوات الجنرال طونزند، كان المرغوب ان يتم اخراج جزء من القوات المحاصرة من ذلك الحصار ،وان تعود فتنضم الى القوة البريطانية التي كانت تعسكر انذاك التي في قرية «بنى سعد»[19]

تم ايفاد العقيد لجمن للقيام بهذه المهمة العسيرة، واستطاع ان ينجح في تهريب خمسة الاف مقاتل، وبطريتين من المدافع، تحت جنح الظلام، وذلك في الوقت الذي كانت فيه مدينة الكوت محاصرة بصفة عملية من كل جانب». وعن هذا الحادث تحدث لجمن نفسه في رسالة بعث بها من العمارة في اليوم الثالث عشر من شهر كانون الاول سنة ١٩١٥ فقال «ينبغي ان

---

(١٨) ومع ذلك فلم يظهر لجمن على هذا المسرح، اي حصار الكوت، في وذلك الوقت ولسنا نعرف بم كان منشغلا انذاك وقد فشلت محاولة لورنس تقديم رشوة الى الجنرال العثماني خليل باشا مقدارها مليوني باون لرفع الحصار عن الانكليز المحاصرين في الكوت (انظر كتابنا حصار الكوت ج٢ ط١٩٨٥)

(١٩) شيخ سعد تقع جنوبي الكوت مباشرة على الطريق السالكة الى العمارة والقرنة والبصرة

تعذروني على رداءة طبع الرسالة. غير ان كاتب الالة الطابعة في الحرب كان اشبه بالسيد وكنا نحن الاثنان نشعر باننا من كبار السن نوعاما!

«سوف تدرون من العنوان بانني قمت بحركة مضادة قليلا للاتجاه المألوف. فلقد خرجت من الكوت بحشد من الخيالة للعناية بهم في «علي الغربي»، واذ ذاك لم استطيع العودة ثانية. بسبب ان العدو موجود في الطريق، وعلى هذا فانني الان ماض الى العمارة، بصفة ضابط سياسي لدى قائد لفيلق جديد. انني اكتب الان من الزورق الحربي[20] كان زورقي الذي يضم خدمي. وصندوق حاجياتي قد استولى الاتراك عليه، وكانت نتيجة ذلك انني لم اعد املك شيئا واحدا من هذا العالم سوى ما ارتديه. لست افكر في ذلك كثيرا، لكنني فقدت، بصفة يائسة، رفاقي من العرب. والواقع انني سمعت بان معظم الاشياء القيمة قدتم انقاذها ووصلت الى الكويت، غير ان من العسير اخراجها من ذلك الموقع

«اضيف الى متاعبي ان مهري العربي المفضل لدي قد سرق في يوم من الايام من قبل احد افراد حاشيتي من العرب، وفي اليوم التالي تم اطلاق النار على جوادي المفضل الاخر. توفر لدي قدر من الحظ، لانني انقلبت رأسا على عقب بفعل اطلاقة لم تحدث اي تدمير سوى اثارة اعصابي. فلو انني انبأتكم بانني اود ذلك فان رسالتي هذه لن تسلم من يد الرقيب

* * *

احبطت هذه الكارثة التي اصابت البريطانيين (محاصرة الكوت - المترجم) كل العمل الذي انجزه لجمن بين العرب القاطنين شمالي الكوت. وكما كان يحدث مع الاعراب شبه المتمدنين، فانهم كانوا يتحولون مع التيار، ويحكمون على ذلك بما تنبؤهم به عيونهم، وهو: ان الاتراك كانوا متفوقين. وعلى هذه الشاكله شاهد لجمن بام عينيه وهو مهتاج، تداعي ذلك الجزء من العمل الذي انجزه، وان عليه ان يعاود القيام به مرة ثانية. ولذلك فهو يقول في رسالته تلك. «ان اقامتي في العمارة ستكون موقتة، وانني امل ان اعود الى الجبهة بمنتهي العزم على ان اقدم اي عربي اعثر عليه الى يد العدالة!. فلقد اصبحوا قساة. وكان يصعب علي طوال الاسبوعين الماضيين، ان اتذكر لحظة تمر من دون ان يصاب احد بنيران رصاصهم، ومن مسافة امنة على وجه التأكيد».

ادت كارثة طيسفون، وحصار الكوت، الى تحويل حرب العراق الى بهرجة تامة للملاحظات العامة. فلقد تحقق لدينا مؤخرا بان علينا ان ننظر الى الحرب في العراق نظرة جدية،

---

(٢٠) LAUNCH

ذلك لأن النجاح الباهر قد تمت اضاعته، وكان الفشل يعود في الدرجة الاولى، الى حقيقة ان الجبهة العراقية كانت معرضة للفناء، بسبب فقر المواد، وان الوسائل اللازمة لتحقيق انتصار عظيم ودائم قد ضاعت. فاما ان يتم توفير هذه الوسائل فيحين قطاف كل ثمار النصر، واما التراجع العام الى البصرة. ولم يكن الشعب البريطاني من ناحيته غير مقتنع بان تترك الفرقة الباسلة الى مصيرها المحتوم، من دون ان تبذل جهود جدية لنجدتها، حيث علق «فلبي» على ذلك بقوله :—

«تتطلب نجدة الكوت جيشا كبيرا يقوم على اسس التنظيم المستقر الحديث. فذلك الجيش وان لم يكن قد انجد الكوت، الا انه كان قادرا على اصلاح الدمار الذي حدث، ووضع الاسس لفتح عظيم ودائم.»

كان على لجمن ان يصلح فقدانه لصندوق حاجاته وخدمه. وقد استطاع ان يحقق الاول بنجاح منظور. اما الثاني اي خدمه، فقد جابه مشقة اكثر لان يتزود بهم. ولذلك كتب من العمارة في اليوم التاسع والعشرين من شهر كانون الاول سنة ١٩١٥ يقول

«قدمت الى هنا لمدة يوم او يومين، كيما احاول شراء بعض الملابس وغيرها، وهو امر لم يكن يسيرا جدا. ومع ذلك فقد استطعت انجازه بطريقة حسنة. كما انني ابتعت مربطا للمهار، غير انني لم استطع الحصول على خدم. انني خشى ان يظن هؤلاء بانني من اكلة النيران، وانني اعرضهم للخطر، وذلك امر غير صحيح. وما ان اعود الى الكوت فلسوف احصل على فتاي العربي الفاخر جدا.... انني اتصل بكل اصدقائي القدامى، او انهم — بالاحرى — يأتون الي لكي يصافحوني. انني اخشى ان يتم ذلك خارج نطاق الحذر بصفة رئيسة.

«لقد وصلت هذا الوقت في الساعة السادسة صباحا. وفي الساعة الثامنة كانت هناك حكاية تقول بانني في طريقي الى (بومباي) مجللا بالعار لانني بعثت بقوة من دون اوامر من القائد، وان تلك القوة قد اسرت كلها ماعداي انا نفسي»

في نهاية شهر اخر كان لجمن متعبا حقا. ولقد سر كثيرا حين تسلم الصحف الدورية التي يعجب بها، فكتب الى اهله يقول

«تصل صحيفتا «التايمس» و«بلاك وود» بصفة منتظمة. وانني احاول مسرعا ان اقرأ الصحيفة الاخيرة، قبل ان يختطفها اي انسان اخر. والضابط السياسي هو المجهز العام لهذه الصحف.... اصبح واجبي الان ان اوفر اللحوم الطازجة، والتبن، واحطاب الوقود، والخيل للنقل، والادلاء، والخدم الخاصين، والبيض، والدجاج، واللبن، والسمك الذي يصطاده رجالي، وفي الواقع، اي شيئ لايعرف اي فرد كيف يحصل عليه.

«واضافة الى ذلك فالمفروض في ان اعرف كل عربي في الريف، باسمه وبوجهه، وان اعرف ايضا

متى يرتفع ماء النهر. وما هو مدى ذلك الارتفاع، وهل ستسقط المطر. وماهو مقدار ذلك، وكم سوف يستمر سقوطها؟. المفاجاة شاقة حقا. وبالصورة المرفقة سوف ترون التأثير المدهش الذي اصاب قدمي الضابط السياسي!. فاذا لم اغير الجو فمن المؤكدان انحطم!»

كان لجمن منشغلا بامر حامية الكوت المحاصرة. فبعد فشل جملة محاولات لانقاذها، تقرر ان تتم مهاجمة الموضع التركي على الضفة الغربية للنهر، في حين تقع الكوت على الضفة الشرقية. كان المفتاح المؤدي الى الموضع معقلا حصينا جدا يعرف باسم «الدجيلة». فاذا ماتم الاستيلاء على هذا الموضع. فان الموقع التركي على الضفة الشرقية سوف يتم اختراقه والحصول على رأس مؤداها انه حينما يقع الهجوم فعلا، ينبغي حينذاك ان يكون لجمن على تماس وثيق بموضع العدو.

انتدب قائد احد الالوية لمهاجمة معقل الدجيلة. كان كل شيئ قدتم اعداده. فتحرك اللواء المهاجم سرا الى موضعه التمهيدي، وكان على القوات الموجودة على الضفة الشرقية للنهر، ان تتظاهر بالقوة لكي تخترق القوات التركية الاحتياطية وتحول انتباهها عن الصولة الحقيقية الموجهة على معقل الدجيلة.

كان مصير حامية الكوت معلقا على هذه النتيجة. ولقد استطاع لجمن ان يتسلل بصفة خفية الى مقربة من معقل الدجيلة الحصين، وراح يزحف نحوه اقرب فاقرب. لم يكن يسمع اي صوت، ولا ضحكة، ولا غمغمة صوت. ترى ماالذي ينذر به هذا الصمت الغريب؟ كان لجمن مايزال يزحف بصفة اقرب، وكان نفس الصمت المخيم مايزال قائما. ومن ثم دخل المعقل حذرا، فوقف مندهشاً مشدوها. لقد كان المعقل فارغا!. تمت نجدة حامية الكوت ولسبب غير معروف لم تكن القوات المنجدة قد وصلت بعد، ولكن كان يتوقع وصولها في اية لحظة، ولذلك كانت كل ثانية من الوقت ذات اهمية حيوية.

اندفع لجمن الى وراء فانبأ امر اللواء بما اكتشفه، وراح يحثه على ان يسارع في احتلال الحصن. وطبقا لخطة العمليات كان الحصن على وشك ان يتم قصفه من لدن مدفعيتنا. ولكن امر اللواء اصر على ان يتقيد بخطة متفق عليها. وبضربة شديدة من القدر قطعت الاتصالات الهاتفية مع المقر، فلم يتحول امر اللواء عن قراره. حصلت مشادة حادة حول هدا الحادث، غير ان لجمن مالبث ان ابلغ الحادث الى القائد المقيم في مقر القيادة لكن هذا القائد هو الاخر، لم يتخذ اي اجراء، وانما تقيد بخططه الاصلية. وحين وقع الهجوم كان الاتراك قد اعادوا احتلال حصن الدجيلة. فاخفق رجالنا في احتلاله، وتحملوا عقابا صارما في محاولتهم الخائبة تلك .وكانت تلك اخر محاولة جرت لانقاذ الكوت، ولم تستطع قواتنا ان تقوم بعمل اخر، بل راحت تكافح في وقت محفوف بالفشل.

ولقد سقطت الامطار بغزارة فحولت موقع المعركة الى مستنقع من الطين غرق فيه المقاتلون حتى الركب، بل حتى صدورهم في بعض الاحيان. ولقد ترك هذا الحادث علامة غير محددة في تفكير لجمن، فلم يكتب حتى ولا كلمة واحدة عنه، ولم يتحدث عنه ايضا، الابعد ان عاد في اجازة الى الوطن

° ° °

بعد سقوط الكوت بايدي الاتراك، استأنف لجمن واجباته الاعتيادية نوعا ما، في تزويد العساكر بالتموينات الا...ية والاحتفاظ بالعرب في مؤخرة الجيش في هدوء، وذلك عن طريق استخدام الوسائل العنيفة. بعد غيابات زادت عن مدة شهر كتب الى اهله بكل بساطة في اليوم الاول من شهر حزيران سنة ١٩١٦ يقول «اخشى ان لا اكون قد كتبت لكم لوقت ما. ولكن هناك اشياء قليلة اريد ان اقولها، وانني قد تخليت عن وسائل الكتابة لفترة من الوقت!».

سقط لجمن مريضا بالتيفوئيد في شهر تموز، وظل يعاني الام المرض طيلة ثلاثة اسابيع وهو يأنف ان يذيع سبب مرضه. واخيرا اضطر للذهاب الى المستشفى، لكنه بقي يقاوم كل الجهود لارساله الى الهند. وبعد اجراء الفحص عليه من قبل الاطباء، هرب من المستشفى باحد الزوارق، قبل ان تتم معالجته، لكنه في نهاية شهر آب كان قد شفي من مرضه، واستعاد صحته تماما.

وفي اليوم الثاني والعشرين من شهر اب، تلقى لجمن برقيةمن الوطن تهنؤه على تكريمه بمنحه «وسام الرفقة في الامبراطورية الهندية» (٢١). ولقد سبق له ان كوفئ بوسام ظل ينكره، وان كان قد حصل عليه عشرات المرات هو «وسام الخدمة الممتازة» حين كان فتى في شمالي افريقيا، وكان يتضايق جدا حين يمنح وسام الرفقة في الامبراطورية الهندية، لانه وسام مدني وليس وساما عسكريا.

ولذلك رد على التهنئة التي وصلته برسالة يقول فيها «اشكركم كثيرا على برقية التهنئة بوسام مشاركة الامبراطورية الهندية. لقد كنت اتوقع ما حدث، وان لم اسمع عنه من اي مصدر اخر. ذلك لان الشبان اليافعين الذين يجلسون في دوائر (سملا) يحصلون على ذلك الوسام، وانه لا يعطي لقاء الخدمة العسكرية في ميدان الحرب كما اعتقد، ومع ذلك فهو امر حسن... وانه مهما يكن فهو شريط ازرق جميل!!. انني في وضع مناسب تماما، ولست اجد الجو سيئا على

---

(٢١) ODER OF COMPANIONSHIP OF INDIAN EMPIRE ويرمز اليه بالاحرف C.I.E.

الاطلاق. انكم سوف تحزنون اذا ما سمعتم بان شعر رأسي قد اخذ يتساقط، وقد ينبت مرة اخرى، لكنه لن يكون على مثل ماكان عليه قبلا..»[٢٢]

وفي اليوم الثامن من ايلول ١٩١٦ كتب لجمن يقول بان الاتراك، بعد استراحتهم الصيفية قد نشطوا ثانية (لقد سمعت اثناء المساء الاخير بانه كانت لدينا مباراة في القفز، وكان هناك جوق موسيقي لاحدى الكتائب قد وصل وهو يعزف. لقد ظن الاتراك ان تلك تمثل فرصة طيبة لاطلاق قنابل كبيرة على المعسكر، غير اننا لم نقلق لذلك». ويوضح لجمن مؤخراً السبب في ذلك فيقول «لقد اكتشفت السبب الذي جعل الاتراك يمطروننا بالقنابل في الليلة الماضية، كان لدينا احد القسس. ففي مثل هذا الوقت من السنة الماضية وفي المكان ذاته، زارنا احد القسس، ولكننا امطرنا بوابل من القنابل في اواسط الليل، فكنت اتمنى ان يهرب ذلك القس!»

وفي اليوم التاسع من شهر تشرين الثاني خرج لجمن في واحدة من غزواته العربية فكتب يقول «سوف اغادر الليلة في غزوة صغيرة اقوم بها مع العرب. ولما كانت هذه الغزوة قد تستغرق قطع مائة ميل في مدى اربع وعشرين ساعة، فانني اتوقع ان اعود في اسوأ حال!. ولكن لابد ان تكون في هذا بهجة كبيرة، ذلك لان معظم العرب يرونني عظيما بينهم، ولكن هذه الغزوة ارفع وزنا من الغزوات الاخرى».

وتوفر رسالته التالية تفصيلات، لانه يقول فيها «حصلت مغامرة عظيمة منذ ان كتبت لكم اخر مرة. كان هناك مضرب لاعراب معادين لنا، اخذ يضايقنا مؤخرا بالاغارة على ابلنا. وكانت غاراته عنيفة بصفة عامة. جمعت حشدا من العرب الراكبين، بحدود ستمائة رجل قوي، وجئت بهم الى ضفة النهر التي لم يكونوا فيها. عبرت بهم جسر «شيخ سعد» فبدأنا عند الغسق نصل الى مضرب مجاور سوف نذهب اليه عند الفجر. كان ذلك المضرب يقع على بعد خمسين ميلا. ولقد استطعنا بكل نجاح ان نجمع اغنام اهالي ذلك المضرب التي كانت تبلغ عشرة الاف رأس، ثم شرعنا نعود بها القهقوى من دون اية متاعب. وبعد ان قطعنا حوالي خمسة عشر ميلا بدأ العدو يضطرب، وتمت مساعدتهم من قبل رجال الجندرمة الذين شرعوا يطلقون النار علينا.

«لم يكن ذلك من قبيل اللعب بين العرب فلقد تعرض ثلثمائة نفر من جنودي الى المزيد من القصف، ثم خرجوا وراحوا ينتظرونني على بعد عشرين ميلا اخرى. بدأنا نحن البقية نطلق مالدينا من المواشي، حتى اذا بلغنا مواقعنا في الاخير، لم يكن قد بقي بايدينا سوى الفي رأس من الماشية. لقد تحملنا خسائر قليلة وتحمل اعداؤنا مثلها، غير ان الناس كانوا من الغباء الى درجة انهم قطعوا خمسين ميلا في مدى خمس عشرة ساعة من نهار شديد الحر. كنا قد قطعنا حوالي

---

(٢٢) يبدو ان لجمن كان يعتبر نفسه في ذلك الوقت واحدا من المحاربين عمليا في المعارك وانه كان يستحق الحصول على اوسمة عسكرية مثل غيره

مائة ميل في مدة اربع وعشرين ساعة ،ولذلك اعتبر نفسي الان بانني في وضع جيد!... لست ادري بما يفكر به حصاني الصغير في كل هذه الامور!

وفي اليوم السادس عشر من شهر كانون الثاني سنة ١٩١٧ كتب لجمن الى اهله يقول «هل تعرفون بانني اصبحت الأن في رتبة عقيد؟ لقد رفعت (من دون زيادة في المرتب) في اليوم الاول من شهر كانون الثاني لسبب ما غير معروف انكم قد تتيهون بين جملة من الاسماء. هل في مستطاعي ان ابين كيف تجري الامور المغلوطة؟ لقد حصلت اولا على وسام «الرفقة في الامبراطورية الهندية»، وهو وسام مدني خالص، ولذلك منح لي لقاء عمل مدني. والحقيقة وكما ذكرت جريدة الوقائع، فان الوسام قد منح لي على اساس انني كنت معاونا للضابط السياسي في البصرة، علما بانني لم ا نن كذلك!... وفي المرة التالية حصلت على ترفيع من دون زيادة في المرتب، وتلك مكافأة عسكرية خالصة لقاء عمل عسكري على وجه الدقة! قد يكون واحداً او اخر، لذلك فلن يكون لي اي نفع فيه... وعلى هذا المنوال تجري الامور ذاتها!... اليس يبدو جميلا حين يقال «العقيد لجمن»؟

«لدي فكرة ما، بانني سوف انقل من هذه الجبهة الى مكان اخر اقول بانني سوف اقبل بذلك، ويبدو بانه عمل جيد جدا. ولكن من العسر علي ان اعثر على وظيفة مهمة افضل من المهمة الحالية فهي افضل مهمة في هذه البلاد. كانت الرسالة التالية للجمن مؤرخة في اليوم الثاني من شباط. وكانت فترة الانقطاع هذه قد صرفت، على اكثر احتمال، في جولاته المثيرة داخل الجزيرة العربية كما يوطد اتصالاته مع القبائل البدوية، ويظفر بتأييد للبريطانيين. كان يعد الاساس، دون ريب، لعمله المقبل الذي يتجاوز في اهميته ماكان قد انجزه مع الجيش ،حيث نستطيع ان نرى لمحات عنه في رسالته التالية:-

الثاني من شهر شباط سنة ١٩١٧

«عدت الان على التوالى زورقي في مؤخرة الجبهة بعد مقدار من التجوال حولها. ولقد اهلكت خيلي من دون احقق سوى الشيئ القليل. كل شيئ يسير سيرا حسنا ،والقوات تحقق تقدما طيبا. ساكون مسرورا للتغير الذي سيحدث، واظن ان ذلك التغير سوف يكون حسنا باية طريقة كانت!..».

«الفصل الحادي عشر»

الثورة العراقية

«١٩١٧ - تشرين اول ١٩١٨»

كان العمل الجديد الذي اخذ لجمن يمارسه، قد قاده الى داخل الصحراء الممتدة غربي «الكُبير» [1] وجنوبية الغربي حتى جوار مدينة النجف. كانت هذه الصحراء يومها، في حالة خطرة من الاضطراب. فالاطراف المغيرة تجوب القطر، لان هذه الغارات كانت عملية مربحة، بعد ان غدا الاتراك يدفعون اسعاراً عالية لمختلف السلع. وكان الاتراك والالمان يثيرون كل عصب بقصد حمل العشائر على مهاجمة المواصلات البريطانية، وزيادة تطرف السكان في مهاجمة المدن والقرى.

كانت «المنتفق» تحت امرة «عجمي السعدون» مضطربة، وكان هنالك كل مطمح لاثارة الاضطرابات الخطيرة في تلك المنطقة. فهناك جملة من القرى التي لم تكن قد رأت حتى ولا جندياً بريطانياً واحداً، ولم تسمع أصوات المدافع عن بعد، ولم يتحقق سكانها بعد، من التغييرات التي كانت تحدث عن طريق انتصار الاسلحة البريطانية. كان عدم التأكد هذا هو السائد. وسببت الاسعار المرتفعة، ذلك التذمر الذي كان يتحول بيسر، الى عداء نشط بفعل الجواسيس الالمان والاتراك، ولذلك كان من اللازم الاجهاز على هذا النشاط قبل ان يصبح خطرا حقيقيا في مؤخرة الجيوش البريطانية.

وفضلا عن ذلك كان من اللازم ايجاد نوع ما من الحصار على الصحراء، بما سيقلل، الى حد ما، من التجهيزات التي تصل الى الاتراك، وخاصة الاتراك الذين يعملون في مناطق الفرات، حتى وان لم يكن مستطاعا منع تلك التجهيزات بصفة تامة. كان هنالك احساس بان الرجل الوحيد الذي يستطيع ان يعالج الوضع معالجة تامة هو العقيد لجمن.

كان من سوء حظ لجمن انه انتقل من الجبهة، حين كان الجيش يوشك ان يحقق اعظم نجاح لامع له، حيث كان سقوط بغداد متوقعا. في اليوم الرابع من آذار(١٩١٧-المترجم) كتب لجمن يقول: «انني اجوب الصحراء الان ويبدو عليّ بانني قد تركت الكوت» جانباً في هذه اللحظة السيئة. كانت تلك اول ضربة حظ سيئة تلقيتها منذ امد طويل ، ولذلك ينبغي لي بان لا

(١)الكبير: بضم الكاف تصغير كلمة «الكبر» وهو شجر صحراوي ذو اشواك ويحمل ثمرا قرمزي اللون يتسم بالحرورة يعرف باسم «نفلح» وتقع هذه المنطقه على الطريق الصحراوي القادم من شبه الجزيره العربية حتى «ابو صخير»

أقام. ومع كل هذا فانني احس بالصلابة، نوعا ما، بعد ان كنت اجلس امام الاتراك لحوالي سنة، كما اغادر موضعي هذا في لحظة النصر».

بعد اسبوع من ذلك التأريخ استولى «السرستانلي مود» [٢] على بغداد. فلو كان لجمن ينكر نصيبه في هذا النصر، لكان يرضى على الاقل، ان يعرف بانه ينتمي الى الثقة المفردة في تنظيم العمل السياسي، في خط المعركة ذاته، وفي التحضيرات السياسية في مقدمة الجيش في البلد الذي سوف ييسر التقدم، ويضمن بان يكون الاحتلال اقل مشقة وخطرا.

لم يتم السماح للجمن بان يبقى يعمل طويلا في مهمة خاصة، ولذلك غادر الى القاهرة في اواسط شهر نيسان، حيث عين للعمل موقتا في معية «السرمارك سايكس» [٣] الذي وصل تلك المدينة مع «المسيوجورج بيكو» [٤] لدراسة الحالة في الشرق الاوسط عن كثب. ولكن لجمن قبل ان يغادر الى القاهر قام بسلسلة من المغامرات المدهشة. ولقد اطلقت النيران عليه، بما لا يقل عن ثماني مرات، من مسافة قريبة، وقطع مئات الاميال من الصحراء، واستطاع بذلك في هذه الفترة القصيرة ان يحقق لنفسه السطوة الواسعة على العناصر الشرسة تلك السطوة التي بقي يحتفظ بها حتى مماته.

وفي الوقت الذي كان فيه قد غادر الى القاهرة، فانه كان قد حقق وراءه صيتا حسنا بين كل اولئك الذين كانوا يميلون الى ان يعملوا بمثابة جواسيس للالمان وللاتراك، ممن كانوا يمارسون اعمال النهب او الغزو وفي هذه الفترة ذاتها احسن لجمن استعمال اصدقائه من العرب في مهاجمة اعدائه. غير انه كان هو الذي يقودهم دوما بنفسه. ففي رسالة الى صهره، في التاسع عشر من آذار، كتب يقول: -«كان حظي بان لا استقر في بيت مريح، مزود باسباب الرخاء، في الوقت الذي اكون انا فيه انسانا بائسا، يجوب القفار على صهوة جواد، او في زورق، او على ظهر بعير. فهذا العائق الاخير يحول الحياة الى مشقة. ومع ان الاطلاقات لم تصبني الا ان كل واحد كان يوجه اطلاقة نحوي!»

وفي اليوم السادس والعشرين من آذار عاد يكتب الى صهره مجددا، ليقول «لدي الان حصان واحد، وحصانان جيدان. وغالبا ما كنت اقطع مائة ميل في مدة اربع وعشرين ساعة، واخوض بهما القتال، الا انهما لم يكلا. ما كنت قد نهبت هذين الجوادين، وانما دفعت عنهما حوالي عشرين باوناً» وفي غمرة هذا النشاط طلب اليه ان يغادر الى القاهرة التي وصلها في اليوم الرابع والعشرين من نيسان. ومن هناك بعث برسالتين الى اهله، جديرتين بان نقبس منهما.

---

(٢) SIR STANLEY MAUDE

(٣) SIR MARK SYKES

(٤) MR. PICOT

كانت الرسالة الاولى قد ابردت من فندق «شبرد» في اليوم التاسع والعشرين من نيسان والتي يقول فيها «ان سكني-كما ستلاحظون من العنوان-مريح نوعا ما. وصلت الى هنا في اليوم الرابع والعشرين، ومن ساعتها كنت منشغلا جدا. وجدت بعض الوقت للتفرج. القاهرة مهمة جدا. استطيع ان افهم قليلا، العربية التي يتحدثون بها ها هنا، ولو انهم كانوا بصفة عامة يفهمون ما اقوله.«لدي اليوم مقابلة مع احد السلاطين، ممن سوف يختار بين لغتي الفرنسية او العربية، ولكنهما رديئتان. وفي غد ساكون مجازا لكي اقضي، عشرة ايام، مع احد رجال الحرب عند البحر الاحمر، ومن ثم اعود الى هنا. فاذا كنت ما ازال متوعك الصحة حين اعود فلسوف ادخل المستشفى. انني منحط الصحة بشكل مزر، ويصعب عليّ ان ارتقي السلم. ويقول الاطباء بانه يجب عليّ ان ارتاح لمدة اسبوع في المستشفى، عيراننا لا نستطيع ان نرتاح ايام الحرب. انه لاذى حين تتوفر للمرء فرصة العيش على الخصب. فالجو بارد هنا بشكل جميل، ما خلا اليومين الاوليين الذين كنت خلالها هنا

هنالك ريح تدعى«الخماسين»، حين تهب تكون حارة جدا او غير مريحة. ان هذا عالم جديد من الخدمة العسكرية. انه مليئ بالاستراليين ذوي القبعات المذيلة. لم التق حتى ولا بضابط اعرفه. كان كل واحد منهم يحمل عشر مداليات من كل نوع، عدا المداليات العسكرية! انه مكان تجمع واسع لافراد الانضباط العسكري وللفتيان. فاذا ما اردت الذهاب الى ساحة الحرب من «فندق شبرد» فلن تلاقي اية مصاعب. انهم خليط من الملابس. وفي مقدور المرء ان يستعمل زوج مهماز، ذي اهمية، ان هو اراد ان يضرب به الاتراك. اخشى ان نكون غير متمدنين في العراق القديم «الفقير» ومع كل ذلك فقد دحرنا الاتراك!.

«كنت مسرورا لانني تخلصت من مهمة الضابط السياسي المرعبة، ومن كل اولئك الناس المخيفين. اخشى ان لايكون في مستطاع المرء ان يشاهد المزيد من العالم حين يكون في الجيش. والواقع ان المرء يريد ان يثقف هؤلاء الناس. تناولت طعام الغداء مع المندوب السامي «السر ريجنالدو نغيت» (٥) والشكر للالهة، لان الطعام كان ناشفا، حسب عادة بيت المندوب. ومع انني لم أتناول شراباً عند تناول الغذاء، فان هذا الامر قد اضيف الى متعة الامم عند تناول العشاء!»

وفي اليوم العاشر من شهر ايار كتب ثانية يقول:-«عدت يوم امس الى القاهرة، بعد رحلة باتجاه البحر الاحمر، الى اماكن متباينة توقفت في احد الاماكن، مدة حوالي اربعة ايام. ولقد قادتني الرحلة، من دون امل اطلاقاً، الى الساحل الغربي للبحر الاحمر (٦) لم ار هناك نبتة عشب، ولا

(٥) SIR REGINALD WINGATE

اجمة، سوى اميال من صحراء بركانية واحجار انها اشكال تافهة معظمها من الاعراب، الذي كانوا اسوأ مما شهدته في العراق. ولقد ابتهجت لأن ارى القاهرة مرة اخرى، حيث خططت بان اشفي نفسي من شكاتها، ولذلك فانني الان امتع نفسي واتناول الطعام الجيد.

«لم اندهش كثيرا لهذا الفندق الفخم، غير ان صفة المصري الابله الذي كان ينتظر هناك، كانت سيئة للغاية. ومع ذلك فالغرف لطيفة، كل واحدة منها مزودة بحمام، والطعام جيد. وهناك جوق موسيقي يعزف في معظم ساعات النهار، وهناك جولات محببة بالسيارات حول القاهرة في طرق فاخرة. ولما كانت الحكومة هي التي تدفع الاجور، فقد كنت اقوم بهذه الجولات كل مساء. كان لي حديث مطول مع السلطان الذي كان بهيجا، وكذلك مع المندوب السامي «السر ريجنالد ونغيت، الذي كان ظريفا تماما. لست مندهشا لذلك كثيرا. انني اسافر متجولا مع السرمارك سايكس الذي ربما تعرفونه. انه في مثل عمري، وهو رجل ذكي بشكل معجب ومدهش.

«تعلمت اشياء كثيرة عن العالم الذي انفتح امام ناظري. ساغادر، بعد وقت قصير، الى البحر الاحمر مرة ثانية، ومن ثم اذهب الى عدن، ومن هناك التقط احد الضباط السياسيين كان من سوء الحظ انهم قد اغرقوا الضابط السياسي الذي اخترته انا على اساس الملاءمة والمدى، كما ينقلني عبر الرياح الموسمية. اما من بومباي فانني ساقوم بزيارة خاطفة للكتيبة، ومن ثم للبصرة. لا تبعثوا اليّ في مثل هذه الاماكن، باية رسائل اخرى ما عدا الى البصرة. لا ادري ما اذا كنتم قد علمتم بان ذلك الشيخ المسكين «فوستر ثورن» قد قتل في العراق. لقد حزنت اشد الحزن لذلك. ولقد قتل رائد آخر من جماعتنا هو«ميتشل». كان معنا في الجبهة في يوم من الايام. اما الاخ الاخر، الذي كان معنا في الكتيبة، فقد قتل حين سقط من على ظهر جواده، في «بشاور» قبل اشهر قلائل مضت. سوف اغادر في اليوم الخامس عشر من الشهر، ولسوف اكتب اليكم مرة اخرى قبل ان اغادر»

قام لجمن بزيارة (رابغ)والوجه). وفي(الوجه) كان الامير فيصل قد اتخذ قصره المؤقت. وقد دعى ليجمن ومؤلف هذا الكتاب(براي» الى تناول الطعام في خيمته المخصصة للضيوف. كما كان العقيد لورنس حاضراً هو الاخر. كانت تجربة ذات اهمية. فقد جلسنا هناك على الارض، نشارك في كرم فيصل وسخاءه، وننصت الى هؤلاء الرجال الثلاثة الذي اجتمعوا في هذا الموقع المقفر المنعزل، لاول مرة ولآخر مرة! . كان فيصل بسيطا وظريفا، ويطرح الاسئلة التي تخص امور العراق، بشكل يخرج عن مجاملة ضيفه، اكثر مما اذا كان الاتراك قد هزموا. اما لورنس الذي كان يرتدي العقال العربي المطرز، ويتمنطق بالخنجر الذهبي الذي يعلقه في حزامه، فكان يتحدث بنعومة الى فيصل، ويختار كلماته بعناية ومن ثم يروح في صمت طويل. اما لجمن فكان يرتدي ملابس كاشفة اللون من الخاكي، وهو يثير الغموض بتلك الابتسامة المحيرة التي تبدو على

زوايا فمه، ولكن بكلام مفهوم وحاسم. كان التناقض بين الانكليزيين، لجمن ولورنس، واضحا. كان لورنس يقلد العربي ، وقد اصاب امتيازه عن طريق ملابسه الفخمة. وكان تذلله لفيصل واختفاء حقيقته الظاهرة، تؤلف صورة لا تزال تلوح في حياتي. وكان لجمن من الناحية الاخرى واضحا تماما، ويمثل الانكليزي الذي لا يعتريه الخجل، كانت معاناته ومصاعبه بادية على محياه النحيف، وكان الفخر يتراءى وراء استار عينيه فلقد تحمل خمس سنوات من الكدح والخطر، وبالاضافة الى ذلك كانت هناك ثلاث سنوات اخرى اشد عذاباً ومرارة مخبأة له. امضى الاثنان الاخران شهورا من الحرب القاسية، وكان مجموع تجربتهما سوف يستمر مدة خمسة عشر شهرا اخرى.

ان هؤلاء الرجال الثلاثة(فيصل ولورنس، ولجمن-المترجم)من الاموات الان. وفي الوقت الذي كان فيه العالم كله، خارج البلاد العربية، قد سمع باسم لورنس، فان من سخرية القدر ان لا يكون قد سمع باسم لجمن، سوى عدد ضئيل من العرب

في اليوم الرابع والعشرين من شهر ايار وصل لجمن الى (عدن) حيث توفر له وقت قصير لأن يبعث برسالة مختصرة الى اهله، يبرز فيها اشمئزازه واضحا بين سطورها.

«مضيت بعيدا في رحلة العودة، وكانت لي سفرة ممتعة في صفة رجل حرب. سوف اكون بعد اسبوع في الهند، لان لدي امورا اريد انجازها، ومن ثم اعود الى العراق، ويسرني كثيرا«ان اكون هناك،كم كنت اود ان لا اغادر العراق آمل بانني سوف اشفى من الضعف الذي احس به هناك، والذي لم اكن اعانيه من قبل. اخشى ان لا تكون هناك اية انباء افضي بها اليكم. ان تحركاتي واعمالي ليست مهمه للعامة. اتصور ان «جاك» لابد وان يكون في مصر، حسبما سمعت ذلك!.

بعد ان امضى لجمن وقتا قصيرا في الهند عاد الى العراق في اواسط شهر حزيران، فوصل بغداد في حدود اليوم الاول من تموز. وقد انطلق بزورقه عبر النهر لكي يجدد اتصالاته مع مختلف شيوخ العرب الذين كان يتعامل معهم خلال تلك الايام العصيبة التي كان يتعاون فيها مع القوات المحاربة. ومن بغداد كتب الى اهله في اليوم الخامس من شهر تموز يقول «واخيرا تروني في مدينتي المحبوبة. قمت بجوله مفرحة في قاربي، وكنت قد صممت على ان امثل ضابطا صغيرا في تلك المناسبة. لقد شاهدت عددا من الاصدقاء القدامى الطيبين، الذين كانوا يقولون «لقد فقدنا لجمن»ومع ذلك فانني اتوقع بانهم سيكونون سعداء تماما اذا ماراوني اجتاز بهم، وارفع يدي القاسية عن جيرانهم. وجدت بغداد قد تغيرت كثيرا، بالطرق الجديدة التي فتحت فيها، وبالناس المؤذين بصفة اكثر. كانت الطرق قد افتتحت قبل احتلالنا. اما ازدياد اذى الناس فكان نتيجة لذلك الاحتلال!

كان الامر الذي حدث بهيجا. لعلكم تتذكرون بانني، بعد معركة «طيسفون»فقدت حصاني الجميل. كنت اعرف الشخص الذي سرقه، وكان اول شخص قابلته هو ذلك السارق. كان متهيأ، وحين اشرت بانه قد جاء لكي يعيد جوادي اليّ، اقسم بانه ليست لديه اية فكرة عن ذلك الجواد، فعاقبته بما فيه الكفاية، قتلت سبعين من الافراد التابعين له. وكان هذا التصرف حقيقة واقعة، فقد اتصلت بالقائد «طونزند» لان يبعث ببعض الخيالة الى المخيم الذي لم يكن بعيدا ، واذ ذاك اقتصصنا منهم عقابا لهم. ومع ذلك فلم اكن صارما. وكانت نتيجة ذلك ان حصاني كان قد ظهر بعد يوم او يومين. كان مهملا بعد مكوثه مع الاعراب، لكنني لا استطيع اصلاحه. كان الطعم الوحيد في الدواء انني الححت على الحكومة تقديم تعويض مقداره خمسون باونا، مقابل ان اعيده، وذلك امر عسير في هذه الاوقات.

«كلفتني رحلتي الى مصر بعض الشئ، حيث قطعوا بعضا من مرتبي لقاء ذلك، على اساس انني زعمت بان السكن في فندق«شبرد» ارخص من العيش في الصحراء . وحين عدت الى هنا لم يكن يبدو عليهم بانهم سوف يتجاوبون معي على وجه التاكيد، ولذلك تقدمت اليهم بطلب في ان اسكن احد المنازل، فتمت تسوية هذا الامر على الفور، وفي اليوم الذي استقريت فيه في هذا المنزل، امروني بان اخرج الى الصحراء. والواقع انه من غير المحظوظ حقا، ان يتصوروا حدود قابلياتي للتجوال في الصحراء مع البدو، وان اسهم بدور فعال في العمليات العسكرية.

«انني ذاهب لكي ارى المزيد من اصدقائي القدامى. هل تتذكرون بانني، في مجرى الرحلة الاولى في الجزيرة العربية، قد حضرت قتالا واسعا، كان الجانب الذي كنت معه قد اندحر؟. انني ذاهب الى اولئك الناس الذين كانوا قد هزموا. لقد عاملني الشيخ المسن معاملة سيئة فيما مضى. وحين رأيته في هذه المرة، انحنى امامي، كما هي عادة العربي الفقير حين يطلب شيئا واذ ذاك سألته عما اذا لم يكن قد عرفني، وانني انا لجمن . حين ذاك ظننت بانه قد اختار الفرصة المواتية، واعتذر عن التصرف السيئ الذي ابداه نحوي، واقترح بان اعده بمعونة مالية، الى مئة باون في الشهر.

«آمل ان استطيع الوصول الى بغداد في الوقت المناسب، وذلك لان من العسير نوعا ما، حين تكون القوات تأكل الثمار الطيبة، وتشرب المشروبات المثلجة، ينبغي عليّ انا ان اعيش في الصحراء!...

اخشى ان لا اكون قادرا على ان اكتب لكم، بعض الوقت ، لانني سوف اكون خارج نطاق المدينة..

غادر لجمن على الفور الى مخيم«عنزة»الذي كان يقع عند هور«ابو دبس» في الطريق الى«شفاثة»على بعد اربعين ميلا غربي كربلاء، والتي جعلها الآن مقراً له. كان عليه ان يستأنف

العمل الشاق الذي كان يقوم به تماما قبل زيارته للقاهره.

لقد اصبح الآن يوالي نشاطه، بصفة اوسع، الى الشمال او الى الغرب ويمكن القول بكل صدق ان منطقة نشاطه غدت الان تشمل الصحراء برمتها حتى اسوار دمشق عند الغرب، والى اقصى الشمال حتى جبال سنجار

كان المطلوب من لجمن ان يجند حلفاء جدد للحفاظ على الهدوء في هذه المنطقة الواسعة. ذلك لان الاسلحة والذخيرة البريطانية كانت تنهال على الحجاز فالوف الالاف من البنادق، والملايين من صناديق الذخيرة التي زود بها (فيصل) لتسليح رجاله لمقاتلة الاتراك، كان قد تسرب قسم كبير منها الى العراق، فاصبحت الآن تستعمل في محاربة القوات البريطانية. ولقد ادى هذا الامر الى ان غدت مهمة الاحتلال البريطاني للعراق مهمة شاقة بصفة اكثر، وزادت من مسؤليات لجمن ولذلك يتقبل المساعدة من قبيلة«عنزه» والتي يستطيع ان يجند منها خمسة عشر الف مقاتل.

اما ماذا حدث بعد ان وصل لجمن الى مضارب «عنزة»، فان(فهد بك) (زعيم قبيلة عنزة- المترجم) هو الذي يحدثنا عنه، اذ يقول:-«حين عرضت خدماتي على الحكومة البريطانية، كان المرحوم الجنرال «مود» قد انتدب العقيد لجمن، لكي يمكث معنا في الصحراء، في سبيل ان يراقب الامور عن كثب، وان يتأكد من اخلاصنا للحكومة. وبعد مضي ثلاثة ايام على وصول لجمن الى مخيمنا، لم يتحدث معنا حتى ولو بكلمة واحدة. وكان غرضه هو ان يلاحظ خدماتنا ويراقبها. وفي ذات الوقت سمعنا بان قافلة احد التجار كانت قد غادرت كربلاء، وهي تحمل بضائع الى الاتراك. ولقد تمت مصادرة هذه القافلة برمتها، فافضينا بذلك الى لجمن، فادى ذلك، الى ان يطمئن فؤاده بشأن صداقتنا للحكومة البريطانية، ومنذ ذلك الوقت كنت انفذ واجبات مماثلة، حيث ضبط الكثير من الارساليات التي كانت ترسل الى الاتراك. وبعد ثلاثة ايام خرج لجمن على رأس ثلاثين رجلاً، يركبون الابل، وعشرة يمتطون الخيول، مع واحد من شيوخنا، فراحو يجوبون الصحراء لمدة اسبوعين، وكان لجمن نفسه يركب بعيراً. وعند عودته ذهب بمفرده الى مدينة النجف

قبل ان يغادر لجمن الى القاهرة كان قد اشتهر لدى الجيش البريطاني بلقب«الضابط الآمر للصحراء»(٦) ولقد كان«كاندلر» (٧) شاهد العيان الرسمي، هو الذي اطلق هذا اللقب على

---

(٦) O. C. DESRT واقول بهذه المناسبة ان كتابا شاملا لحياة لجمن ونشاطه، كان قد اصدره الكاتب الانكليزي «فرنك ونستون» في سنة ١٩٨٢ بعنوان «الضابط الآمر للصحراء» ولدينا نسخة منه

(٧) ادموند كاندلر: كان شاهد عيان للجيش البريطاني الذي زحف على العراق في الحرب العالمية الاولى، اذ كان يسير في مقدمة الجيش، وقد وضع عن حرب العراق تلك ادق واوسع كتاب، بعنوان «طريق طويل الى بغداد» يقع في مجلدين كبيرين وقد ترجمنا الجزء الاول من هذا الكتاب ونأمل ان يتوفر لنا الوقت لترجمة الجزء الثاني منه

لجمن. وهو الذي قال عنه بانه «واحد من اناس قليلين يستطيعون ان يجوسوا البلاد متنكرين في صفة اعراب»[٨]. كان للجمن اعداؤه طبعا، وعلى الاخص بين العرب. ما زلت اذكر، حين كنت استمتع في كربلاء، كيف انني تلقيت بالتكريم احد شيوخ العرب في الجنوب. وما ان انبأت لجمن عنه حتى قال «آه. اجل ذلك هو الشخص الذي اراد ان يقتلني، بان اطلق النار عليّ من مسافة عشر يردات. ومن الطبيعي ان هذا المخبول الشرس، كان قد اخطأني فلم يصبني!» كان هذا الشيخ الذي نسيت اسمه، لسوء الحظ لكنني ما زلت احتفظ بصورته، من المحترمين جدا من لدن الضباط السياسين في منطقته.

ولقد تحدث «خضر بن عباس» رفيق لجمن في رحلته الى الجزيره العربية في سنة ١٩١٠، وجاسوسه خلال الفترة ١٩١٧–١٩٢٠، عنه فقال «كان لجمن حاد المزاج بصفة خاصة ازاء اولئك الذين كانوا يظهرون ميولا معادية للبريطانيين، في حين كان ينظر بمنتهى الاحترام الى اولئك الذين كانوا اصدقاء لحكومته، ويتجاوز عن اخطائهم. على انه كان سرعان ما يعامل اولئك الذين يغضب عليهم، برقة. كان خبيرا بالخيول، لا يكل عن الركوب حتى ولو استمر ذلك اياما. وكان مغرما بركوب الجمال، وله معرفة واسعة بالاماكن القائمة في شبه الجزيرة العربية. وعند الضرورة هو الذي يستطيع ان يرشد الدليل الى الطريق الذي ينبغي له ان يسير فيه.

---

(٨) ورد ذكر لجمن في كتاب كاندلر في الجزء الثاني من كتابه والذي يقول عنه: كان لجمن «الضابط الأمر للصحراء» يجتاز مثلما يجتاز العرب، وكان واحداً منهم، ويقرأ ما يدور في افكارهم. مثلما يقلب المرء صفحات كتاب «كاندلر: طريق طويل الى بغداد ج ٢ ص ٢١٠)

«الفصل الثاني عشر»

الضابط الآمر للصحراء

«القسم الاول»

كان النقيب جالمرز[1] يجلس في الغرفة المسورة بالآجر في «سراي» الكوفة على نهر الفرات. وقد حدثت مناسبة منع فيها رجاله من قتل بعض الحمام خلافا لاوامر الجيش، لان هذه الطيور مقدسة لدى الشيعة[2]. ومن ثم خرج جالمرز الى ضفة النهر ليقيس حمولة بعض «المهيلات». واذ كان يلف شريط المقياس شاهد العقيد لجمن صاحب الجسم الفارع طوله، والضابط السياسي للصحراء، مقبلا نحوه، وقبعته في يده، ورأسه الذي يشبه رأس الجزر نوعا ما، وهو منحن في دراسة عميقة، ففاتحه قائلا «اقول لك ايها العقيد! انني اخشى ان يكون رجالي قد قتلوا هذه الحمائم اللعينة. فهذه المخلوقات البليدة تتكاثر بين اقدامهم، وانها تطلب - بكل بساطة - بان يكون قدر المطبخ هو مأواها! فالرفاق الذين يقتاتون على اللحوم المعلبة، «والبسكويت» الصلب دوما، لايستطيعون ان يصدوا شخصيتهم في كل دقيقة. وما خلا ذلك لماذا نجبرهم على ان ينفقوا بعض نقودهم التي يدفعونها لملاذهم، على حساب معدهم؟»

انطلقت ابتسامة هادئة على محيا لجمن، وسرعان ما امسك بذراع النقيب جالمرز وسحبه معه وهو يقول «هناك مقولة لدى العرب يعتقدون بصدقها تماما، وهذه المقولة تقول بان هذه الحمامات تنقل عقابها الى الكافر الذي يسلخها ويأكلها، ذلك لان لحومها مسمومة بصفة قاتلة!»

وهنا رد النقيب جالمرز يقول «ان كان هذا هو كل ماهنالك، فان لدي مجموعة من الكفار الذين سيبرهنون حالا بان هذه الاسطورة لاتقوم على اساس!». لم يرد عليه لجمن بكلمة واحدة ولكنه قاده الى داخل بيت احد الاعراب في جوار مقهى محلية صاخبة. كان ذلك البيت اشبه بدار استراحة لموظفين عزاب، وحينذاك اتخذ لجمن آمر الصحراء مكانه بينهم، وحين اسند ظهره الى الجدار، مد ساقيه على امتداد «مصطبة» خشبية، وهنا سأله جالمرز قائلا «هل عثرتم على كل

---

(١) CAP. CHALMERS وهو الذي نشر مقالة في «مجلة بلاك وود الانكليزية عن لجمن «الضابط الآمر للصحراء»

(٢) جميع الطيور التي تعشعش في الجوامع والمساجد والمزارات المقدسة لدى المسلمين بغض النظر عن مذاهبهم، تعتبر مقدسة، ولا يصح لاحد ان يمسها باذى او ان يخرجها من اوكارها بله ان يصطادها ويأكلها.

الشيوخ الذين اشتركوا في مقتل النقيب مارشال؟[٣] فرد لجمن يقول «اجل! اعتقد اننا عثرنا عليهم»

لكن جالمرز عاد يخاطب لجمن قائلا «لابد ان يكون من العسير عليك ان انت خرجت بملابسك الزرق لكي تقتنص الذين هربوا منهم؟» فرد لجمن على ذلك» اجل! اجل!. كان جالمرز يعرف ان لجمن لن يفضي اليه بكلمة واحدة عن تحرياته. اعاد جالمرز يقول «راجت هنا حكاية في يوم آخر تقول بان النار قد اطلقت عليك من قبل احد الاعراب الذي كان يختفي بين اشجار الرمان على مقربة من بلدة «المسيب»، وانك قد توجهت اليه في ذات الوقت الذي كان فيه يعد العدة لان يقتلك، وبعد ان صلمت اذنيه، اشبعته تقريعا؟»

ابتسم لجمن وقال «لو انك جئت بذلك الشخص الى هنا، لكان سيواجه ثلة تطلق النار عليه. اجاب جالمرز يقول «اجل! ان ذلك الشرير المسكين اتوقع له ان يكون قد انصلح!» قفز لجمن من كرسيه وقال «جوف» (لقب جالمرز- المترجم) لقد حصلت على شيئ من شراب «السايدر» ومن ثم راح يفتش صندوقه. تمتم جالمرز «سايدر؟ ياللسموات الحسنة؟ انني لم اسمع حتى بهذه الكلمة لسنوات! انك تحلم ياسيدي!»

وضع لجمن قنينتين على الطاولة وهو يقول «ماهذا؟» ومع ان الشراب كان اشبه بالسايدر، الا ان جالمرز لم يتأكد منه حقاً الا بعد ان شرب بعضا منه من قدح مزخرف ناوله اياه لجمن. اما لجمن نفسه فكان يشرب من القنينة رأسا. بعد قليل نهض جالمرز كي ينصرف وهو يقول «اشكرك على هذه الوليمة»، فرد لجمن «خذ شيئا ما معك» ومن ثم ادخل لجمن يده في الصندوق واخرج قنينتين اخريين وهو يقول «خذ هذان» فاجاب جالمرز» لا. شكرا ينبغي علي ان لا احرمك منها» ومن ثم نظر الى الصندوق صراحة فلم يجد فيه شيئا، فعاد يقول «لقد عرفت ذلك. لم يبق لك شيئ» فاجاب لجمن «هذا لايهم لانني ذاهب بعد دقائق الى داخل الصحراء».

اجاب جالمرز «سوف احتفظ بها ها هنا الى ان تعود ثانية» ولم يلبث جالمرز ان غادر والقنينتان تطقطقان في جيبه!. بعد مرور يومين على ذلك ابلغ احد العرب الاصدقاء، النقيب جالمرز بان احدى «المهيلات» المحملة بالنفط الابيض والبنزين قد شلهت وغرقت في النهر على مسافة عشرة اميال من الكوفة. كانت هذه واحدة من ارساليات اربع مهيلات، وكانت الثلاث الاخرى موسقة بالاطعمة.

اخذ جالمرز معه بعض الرجال في مهيلة وتوجه الى المكان الذي غرقت تلك المهيلة فيه. وحين

---

(٣) كان النقيب مارشال من ضباط الاستخبارات البريطانية وقد عاش في تكريت مدة طويلة قبل الحرب العالمية الاولى بصفة شيخ من شيوخ البدو الذين يتاجرون بالخيول العربية مع الهند، ويجمع اعواد «السوس» التي كانت تجمع من شواطئ الانهار وترسل الى بريطانيا لاستخلاص بعض المواد الطبية منها (انظر كتابنا «من قصص الجاسوسية في البلاد العربية الجزء الاول ١٩٨٦).

وصل اليها استلق على الضفة المقابلة لها، فلم ير سوى جزء ضئيل من انشوطتها ظاهرا فوق سطح الماء، بينما كان حراسها الثلاثة من البنجابيين، وملاحيها من العرب، يجلسون مغتمين على ضفة النهر، اما السفن الثلاث الاخرى فكانت تقف في خط واحد داخل النهر وكانت الاخيرة منها على مسافة حوالي ثلثمائة يرد.

في الوقت الذي كان فيه النقيب جالمرز منهمكا في عملية نقل الحمولة من السفينة المحطمة، ظهر على حين غرة، اعرابي يمتطي صهوة جواد رمادي اللون في اعلى ضفة النهر. لم يشاهده الرجال الا بعد ان اصبح فوقهم تماما واذ ذاك استطاع الاعرابي ان يراهم.

اسرع النقيب جالمرز يطلب الى مترجمه، وهو من المصريين، بان يدعو ذلك الرجل الى ان يترجل، وان يتقدم نحوهم، ولكن ما ان بلغ صوت المترجم ذلك الرجل الغريب، حتى ادار هذا رأس حصانه بسرعة، ولكزه على جنبيه واختفى

ركض القوم وراءه على ضفة النهر، وامطروه برشقة من رصاص البنادق عند البداية. وما ان رأى حراس المهيلات الاخرى ماحدث، حتى قفزوا الى ضفة النهر، وصوبوا نحو الرجل الهارب اطلاقات مباشرة. كانت تقوم امام راكب الجواد قناة عميقة جافة تنحني في اعلى الجدول باتجاه النهر. لم يستطع الرجل ان يفعل شيئا ماسوى ان يستدير نحو النهر، باتجاه مستوى الجدول. كان هذا يعني انه يريد ان ينطلق راكبا عبر جبهة واسعة نوعا ما، وذلك امر مستحيل في الوقت الحاضر، لان رصاص القوم كله كان ينطلق بيسر. استدار صاحب الحصان نحو اليمين فتوقف اطلاق النار عليه. واذ رفع يديه واتجه نحوهم، حتى ترجل عن حصانه.

هنا سأله النقيب جالمرز، عن طريق المترجم قائلا «لم لم تفعل هذا اول الامر؟» لم يرد الرجل بشيء. كان شخصا طويل القامه اسود البشرة كانه قدمن حجر، نحيل الجسم، يرتدي عباءة اجمل من تلك التي يرتديها العامل العربي، ويضع على رأسه كوفية بيضاء[٤] تتدلى على حاجبيه، وعقالا[٥] من شعر ملون، يتوج عادة رؤوس الصغار من الشيوخ. كانت لحيته وشارباه سود. وكانت عيناه، حين كان يحدق في النقيب جالمرز، تتلألأ فيهما لمحة مباهاة شديدة.

قال جالمرز للمترجم «سله عن اسمه؟. فجاءه الجواب «عبدول بن كريم من قبيلة «بني فيك»

- اين تقع خيام افراد قبيلتك؟
- على مقربة من المفرزة
- ان هذا الموقع يبعد مسيرة ثلاثة او اربعة ايام. مالذي تفعله هنا بمفردك؟

---

(٤) كتبها باللفظ العامي جفية CHEFEEA

(٥) كتبه بلفظه العامي عكال AKAL

– اني في زيارة الى الاضرحة المقدسة في النجف

– وهل لديك، باعتبارك زائرا، جواز مرور؟

راح الرجل يتحسس بارتباك، الحزام العريض المصنوع من الشعر الذي يلف به البعير، ذا الخيوط الذهبية الباهتة، والذي كان يتمنطق به داخل عباءته، فاخرج قطعة ورق ممزقة اقتطعت من دفتر صغير للجيب، كتبت عليها عبارة «يسمح لعبدول بن كريم شيخ قبيلة بني فيك «بالمرور من دون اعاقة!» وقد وقعت الورقة بتوقيع «العقيد لجمن الضابط الآمر للصحراء».

لم يكن النقيب جالمرز يعرف خط لجمن، ولم تساعده الحروف الاولى التي شخطت، على فهم ذلك. ولكن الكتابة باجمعها كانت كتابة لجمن دون شك، وقد جرى قطع الورقة من دفتر المذكرات، وبالصفة السريعة التي اعتادها لجمن. واذن فان رجلا يمتلك مثل هذه الوثيقة، يكون آمنا مثل فأر الكنيسة!. سأله جالمرز «لم لم تبرز هذه الورقة على الفور؟»

– كنت اخشى ان تأخذها مني وانا اريد ان اصل، بواسطتها، الى النجف حيث يكون جيشكم هناك متشددا جدا»

ويبدو بان هذا كان نصفا من الايضاح، على اية حالة. ذلك لانه بالنظر الى الاضطرابات الاخيرة التي حصلت في النجف[٦] قد فرضت رقابة شديدة على جميع الذين يدخلون المدينة او يخرجون منها، وان اي اعرابي مرتاب، يخشى ان يكون اول ضابط يواجهه، سوف يأخذ جواز المرور منه، ويمنعه من الوصول الى المكان الذي يقصده. ومع ان انصاف الايضاحات قد لاتكفي، فانها قد لاتتلاءم مع قيام حالة خاصة. ذلك لان جملة من حمولات اصدقائنا العرب وكذلك بعض مؤونات ذخيرتنا، قد يتم ايقافها من قبل احدى عصابات الاعراب المتجولين. وسرعان مايختفي امثال هؤلاء الاعراب بعد غاراتهم بسرعة، بحيث لايستطيع احد ان يلحق بهم. ومن المحتمل ان يكون هذا الرجل واحدا من حاشية تلك العصابة

واخيرا وصلت المؤونة سالمة لان الحراس وضعوها في المهيلات. ولكن كان المؤمل ان يتم صد المغيرين، واحلال الاستقرار في المنطقة، والعمل مع الحراس لانهم كانوا بقايا ملموسة للكتائب المختلفة التي سحبوا منها.

تطلع النقيب جالمرز الى التأ. يخ الذي دون في جواز المرور، لكنه لم يجد اي تأريخ يستطيع ان يتبينه، ولذلك خاطب الرجل قائلا لقد سرقت هذا الجواز من اعرابي آخر» ثم دس الجواز[٧] في جيبه وقال له «سوف تبقى اسيرا هنا!». سدد الرجل نظرة ساخطة الى جالمرز، فقام احد الجنود بتفتيش الرجل وعثر معه على مسدس قديم.

---

(٦) ثورة النجف ومقتل النقيب مارشال

(٧) ذكر كلمة الجواز باللغة الهندية جت CHITوجتى CHITTI

ما ان كمل تحويل الحمولة، حتى بدأت الجماعة تعد الشاي على شاطئ النهر، وتأكل بعض الطعام الذي جلبته معها. عرض جالمرز على اسيره بعض الطعام فاومأ بيديه رافضا عرضه هذا، والقى عليه نظرة فاحصة، ثم اخرج من طيات ثيابه الداخلية خبزا[٨] وفصا من جبنة ناعمة بيضاء اللون مصنوعة من لبن الماعز. وبعد ان تناول ذلك سأل المترجم ان يحصل له على اذن من جالمرز بان يتحرك من مكانه كيما يشرب الماء من النهر مباشرة. طلب اليه جالمرز ان يتناول شيئا من شراب. «السايدر» الذي قدمه له لجمن، لكن الرجل رفض ذلك بكل اعتزاز. خطا خطوات نحو النهر ثم انحنى يعب بعض الماء في فمه المكورة اشبه بالكوب.

اثار سلوك الرجل الشاذ، وعادته الخشنة، حنق النقيب جالمرز الذي حكم بانه كان واحدا من الشيعة المتطرفين، وبذلك كان يسره لان يسلم هذا الرجل الى الضابط السياسي في الكوفة. واذ انتهى العمل من تناول الطعام، حتى نشر قلع المهيلة، فاستدارت وابحرت عبر اليم. جلس بعض الاعراب عند مقدم السفينة، بينما امسك احدهم بذراع الدفة، في الوقت الذي كانت تجلس فيه، عند مهب الريح وعلى مايشبه ظهر السفينة، سيدة بيضاء اللون، ترتدي الزرق من الملابس الخفيفة. كانت هذه السيدة هي «المس غرترودبل» التي كانت قد انحدرت في النهر، فوصلت الى الجانب الذي كان القوم عنده، وقد سألت «هل حدث لكم اي حادث مزعج؟»

رد جالمرز يقول «لا. وانما احدى المهيلات قد غرقت ليس الا. لكنني اصبت صيدا عجيبا. في الوقت الذي كان يحمل فيه جواز مرور من العقيد لجمن، سارع بالفرار حين طلب اليه ان يتقدم، ولذلك اضطررت الى ان اعيده باطلاق نيران البنادق عليه. ناولها جالمرز الجواز الذي كتبه العقيد لجمن. وبعد ان قرأته قالت انه صحيح حقا راحت «المس بل» تتحدث الى الرجل بالعربية كان الرجل يجلس القرفصاء منذ ان تم اسره، ولكنه ما ان خاطبته حتى انتفض واقفا وان لم يكن قد رد عليها بشيء. تحدثت اليه مرة اخرى، لكنه لم يجب

وبعد ان حدقت فيه مفكرة، للحظة ما، قالت له «سوف اطلع على التواريخ القبلية للعرب، وان لدي قائمة تضم معظم القبائل احملها معي». مضت المس بل الى «قمرة» صغيرة صنعت لها مؤخرا بكل وضوح عند مقدم المهيلة، وعادت تقلب اوراق دفتر كبير، واخيرا قالت «لا. لم ار اية اشارة الى «بني فيك» وقد يكونون من عشيرة صغيرة طبعا، تحت حماية قبيلة اقوى، مثلما هو الامر بالنسبة الى «بني سعيد» او «المنتفق»

هنا قال جالمرز «آه! حسنا سوف آخذه معي الى الكوفة، فلربما يكون اكثر ميلا الى ان يتكلم حين يوجه «بلفور»[٩] نحوه عينه التي تغطيها نظارة واحدة!. آخرج جالمرز، قنينة «السايدر»

---

(٨) ذكر كلمة «خبز» باللفظ العربي هبز HUBOUS

(٩) CAP. BALFOUR الضابط السياسي الانكليزي في الكوفة

الباقية لديه. ثم خاطب المس بل قائلا «انه سايدر! هل تحبينه؟»، فردت عليه مندهشة تقول «بنفسه ! سايدر هنا؟» فاجاب «اجل ،وهو من احسن انواع مقاطعة ديفون». لقد حصلت عليه من خمس» ردت المس بل تسأل «العقيد لجمن؟ هل لديك اية فكرة اين هو الآن؟» فاجاب جالمرز يقول «لا. لقد مر خلال الكوفة قبل يومين، وانطلق في طريقه لابد ان تكوني قد علمت ذلك؟». رفضت المس بل الاجابة اول الامر، لكنها اعترفت بعد تأن قليل.

كانت المس تنتظر ان تصل الى «ابي صخير»[10] عند المغيب، ولذلك واصلت جولتها في النهر. لم يكن من العسير على حصان اي عربي ان يوصلها الى اي مضرب للعرب، حيث يمكن الحصول على مثل ذلك الحصان فورا ، والاعتناء بها. ولكن النقيب جالمرز كان متلهفا لان يأخذ حصان الاسير معه كما اشار الى ذلك، وان يبرهن عن طريق ذلك على صحة ادعاءات «عبدول بن كريم» او يفندها. وما ان حل الظلام حتى قيدت يدا الرجل بحبل عرضاً. كان هذا الاجراء لكي يمنع الرجل من القفز الى النهر والسباحة، والهرب تحت جنح الظلام. ذلك لان هناك وقائع قد اكدت على ان الاقوياء من العرب، حتى وان كانت ايديهم قد قيدت، ينالون حريتهم بالقفز الى النهر والسباحة فيه

بعد اربع ساعات من العمل الشاق للصمود عند ضفة النهر، من التيار، اعطيت للبحارة العرب العشرة في السفن، فرصة استراحة. كان البحارة الذين لم يقر لهم قرار، بسبب عدم التدخين، قد استفادوا من هذا الوقت فاسرعوا نحو الشاطئ، لم يبق في السفينة سوى الحارس البنجابي، في الفراغ المعدله عند الدقة، كان يضع بندقيته عبر ركبتيه، وقد ثبت عينيه على الاسير.

تعقب جالمرز مافعله الرجال، فنهض من مكانه، وراح يبحث في جيبه عن غليونه وتبغه وهو يهم بالوصول الى الشاطئ الجاف الذي كان الاسير يقبع فيه. واذ ذاك قال الاسير يخاطب جالمرز «اقول ايها الشيخ؟ ينبغي لك ان تدعني امضي!» تطلع جالمرز الى اسفل دهشا، لانه وجد ان لهجة الاسير العربية الحادة المشوشة، قد تحولت لهجة انكليزية مهذبة ورقيقة. حدق جالمرز في وجه الاسير وهتف مشدوها «ياللشيطان! من انت؟» فرد الاسير يقول «لجمن»! فكرر جالمرز دهشا يقول «لجمن؟ يالحسن السماء! اجل: ولكن لسانك هو وحده الذي اطلق سراحك. ماهي اللعبة! رد لجمن بصوت خفيف يقول «همسا ايها الرجل! اقع وازعم بانك تريد ان تتأكد بان الحبل الذي اوثقتني به ليست له مرساة. لقد كنت اتعقب البدو الذين استولوا على الارساليات، ذلك ان نيران بنادقكم التي اطلقتموها علي، قد جعلتهم يهربون

– وهل علموا بانني قد القيت القبض عليك؟

---

(١٠) كتب كلمة ابي صخير باسم ابو سكر ABUSAKAR

– لقد ظنوا بانه تم القاء القبض على واحد من رجالهم، لانني خرجت من حشدهم للاستطلاع، وان لم اكن اتوقع ان اجدك. انهم جميعا خليط من عشائر مختلفة، يتزعمهم احد الشيوخ الناقمين. ينبغي علي ان انصرف توا، لان هناك حديثا عن نهب ارسالية ابل عربية متجهة من كربلاء الى النجف. اود ان اتصل ببعض الاصدقاء من افراد العشائر العرب، وان اساوقهم في ذات الوقت لكي احزر لعبتهم. لاتدع اي انسان يعلم بانك قد رأيتني، ذلك لان الاخبار تنتقل عبر الصحراء اشبه بالنار الهائجة، واذا ماعرف المغيرون بانني في المنطقة، فلسوف اضيع فرصتي في الامساك بهم»

وجه لجمن سؤاله الى جالمرز قائلا: كيف خرجت في سبيل هذا العمل المرهق؟ «فرد جالمرز» اشكرك كثيرا انني استطيع ان اتمون دوما. استطيع ان افعل ذلك ولو بقليل من قنينة «السايدر» التي قدمتها الى «المس بل!». واذ تأمل جالمرز في معاملته الناقمة ازاء العروض التي عرضها لجمن، تبسم وقال يخاطبه «انك ممثل ماهر!» فرد لجمن يقول «لست متأكدا من ذلك. هنالك على الدوام خوف من فقدان نفس ما». فرد جالمرز «لم استطع ان اطلق النار عليك. اردت ان ادع العرب يعرفون بانني قد القيت القبض عليك لكي يفهموا بانني اقصد العمل». وهنا قال لجمن «لا تقلق بشأن ذلك، لقد كنت اتجنب الرصاص من ناحيتي حتى قبل ذلك. اما الآن فينبغي لي ان انصرف، وان لااترك ورائي اي شك سوى انني عربي اصيل».

استدعى النقيب جالمرز مترجمه واحد الجنود وخاطبهما قائلا «انزعا وثاق هذا الرجل!». بعد دقيقة من ذلك كان لجمن قد نهض مهتزا ثم عدل قامته. واذ ذاك تحول جالمرز نحو المترجم وقال له «بلغ عبدول بن كريم شيخ بني فيك، بانني كنت اراقبه من قبل، وقد تذكرت الآن بانني كنت قد رأيته قبلا، وقد اعلن ولاءه للحكم البريطاني واطمئنانه اليه امام (النقيب بلفور) الضابط السياسي في الكوفة، وحين تبلغه بذلك سله متى حدث ذلك؟» ولقد ترجم المترجم ماجاب به الشيخ وهو «قبل يومين فاكد جالمرز يقول «اجل ذلك صحيح والآن ابلغه اذا ماامره في المرة القادمة احد الضباط البريطانيين بان يقترب منه، فعليه ان يفعل ذلك فورا».

فعل المترجم ما امره به النقيب جالمرز، واذ ذاك خاطب جالمرز المترجم قل له «ولما كان في زيارة الى النجف انبئه بان يكون ممتنامنا لاننا اوصلناه الى قدر مناسب من الطريق الذي يوصله الى هناك، وارحناه هو وحصانه». وبعد ذلك نقل المترجم الى جالمرز امتنان الشيخ منه، واذ ذاك اعاد اليه جالمرز المسدس ذا الخرطوم الطويل ثم قال للمترجم «حسنا دعه يذهب». حرك المترجم يده باتجاه الشاطئ وحينذاك امسك لجمن بعنان حصانه، وقفز على ظهره، وتسلق قمة الضفة راكبا، وبدأ رحيله خببا وكانت عباءته ترفرف وسرعان مااختفى في لجة الظلام!.

الفصل الثالث عشر
لجمن الضابط الآمر للصحراء

«القسم الثاني»

قد تكون عين احد المترصدين غير المعروفين لدى لجمن، قد شاهدته اثناء العمل، مثلما حدث ذلك، بالنسبة الى المقدم جي.ئي.تنانت»[1] الذي اورد هذه الاشارة عنه في كتابه المعنون «سحب فوق بغداد»[2] قال تنانت «كان من حسن حظي ذات مرة ان اشهد من الجو معركة بين احدى القبائل واخرى غيرها الى الشمال من هور «الشويجة»[3] وفي جانب يظهر على حدة تماما من مواقع الاتراك اوالبريطانيين. لكن الذي كان يتزعم احد الفريقين المتحاربين انكليزيا، اجل انكليزي ومع ذلك فقد لا توجد في تأريخ العالم قصة تعادل هذه!» كان ذلك الانكليزي هو لجمن «الذي كان يعيش في الصحراء من شهر كانون الثاني حتى شهر كانون الاول وهو يرتدي الملابس العربية ويتجول مع خادمه «حبسن» بين القبائل وربما حتى فيما وراء خطوط الاتراك ينظم ويقاوم ويحصل على معلومات لا قيمة لها. وضعت جائزة لرأسه وعلى ذلك كان يحيا وحياته في يديه، لكنه كان مع ذلك يستطيع ان يطلق النار على أحد افراد قبيلة ويرديه قتيلا لما ارتكبه القتيل من سيئاتٍ امام القبيلة ومن دون ان ترتفع يد ضده: ومع ان حياة لجمن قد دونت فان الشئ الذي ادعيه بشأن ذلك هو ان هذا التدوين لم يكن كاملا ولا وافيا.

كتب الشيخ فهد قبل وفاته بحثا موجزا عن مغامرات لجمن مع قبيلته ننشر هنا مقطعا منه. ومع ان لجمن بذل الجهود الكبيرة تجاه قبيلة «عنزة» الا ان افراد هذه القبيلة كانوا اهم الاصدقاء الوحيدين الذين كان يستخدمهم. والواقع ان لجمن كان قد استخدم قبيلة «عنزة» في الصحراء الاصلية وبصفة اساسية كيما يتعامل مع القبائل البدوية الاخرى من امثال قبيلة «شمر»: نعود الآن الى تقدير «فهدبك» فنجده يقول مايلي: - «بعد ان مكث لجمن فترة ما في بغداد، عاد

---

(١) LIEU. COL. J. E. TENNANT

(٢) CLOUDSABOVE BAGHDAD

(٣) هور الشويجه سماه المؤلف هور السويقية وهو يمتد من شمالي العزيزية الى جنوب الكوت ويقطع الطريق الذي يمر جنوبي العزيزية الى جصان وبدرة وزرباطية فالحدود العراقية الايرانية.

فاصطحب معه مائة وعشرين من فرساننا يقودهم احد ابنائي وتوجهوا الى «اللطف» وهووادي الصحراء على مسيرة يومين من النجف. وهناك جوبهوا بقافلة من رجال «عقيل» كانت تحمل سلعا الى الاتراك من «السماوة». هاجم لجمن القافلة على رأس فرساننا ونجح في القبض عليهم مع سلعهم ومن ثم عاد الى بغداد مسرورا. وبعد مرور بعض الوقت ثار «عطية ابو كلل» شيخ النجف وقتل الضابط السياسي في النجف [٤] وهرب الى «الشاوية»[٥] فاثارهم وحملهم على معارضة الحكومة. امر العقيد لجمن ولدي «متعب» بان يهاجم الثوار كان ولدنا يرأس عشرة الآف رجل يصحبهم العقيد لجمن فلذلك هاجمهم ودحرهم وقتل ستمائة رجل من رجالهم كل ذلك بفضل قيادة لجمن الشخصية.

وما ان رأى «عطية» بان القتال صار ضده حتى هرب على ظهر جواده وتطلع الى حماية الضابط السياسي في «الشنافية» ولقد توجه لجمن بعد الغارة الى بغداد. فقال اثناء عودته بانه يرغب في ان يهاجم «عجمي السعدون» شيخ المنتفق القوي القدير والذي كان شوكة في جنب القوات البريطانية لانه كان معاديا للبريطانيين بصفة مطلقة والذي كان شديد العداوة معه. لقد كان عجمي سبباً مستمراً لاضطراب خطير.

تألفت حملة عدتها عشرة الآف رجل من رجالنا المقاتلين من «عنزة» قادها كل من العقيد لجمن وولدي «متعب» خرجت لمهاجمة «عجمي» والقاء القبض عليه، حيث هرب ودخل جبل سنجار. اضر الحرب والتعب ابلنا وخيولنا، وبقيت الحملة تتعقب آثار «عجمي» لاكثر من شهر غير ان لجمن لم يستطع اسره، واخيرا اضطر، نتيجة التعب والارهاق، ان يتخلى عن مطاردة «عجمي» الذي عبر النهر[٦] والتحق بالاتراك لكن حيل بينه وبين العودة الى العراق في الوقت الذي تواصلت الحرب فيه.

بعد تلك الغارات عين لجمن ضابطا سياسيا للواء الدليم، فقام مرة اخرى باصدار الاوامر الى ولدي «متعب» بان يغير على قبيلة «شمر» التي كانت تساند الاتراك حيث نجح في ذلك وقتل عددا من رجالها [٧]

توفي ولدي «متعب» بعد ذلك الحادث حالا في حين انتقل العقيد لجمن الى محافظة الموصل.

---

(٤) هو النقيب مارشال الذي مرت الاشارة الى مصرعه اثناء ثورة النجف في سنة ١٩١٩

(٥) يقصد بهم «الشاويين» رؤساء قبيلة العبيد الذين يقطنون «الحويجة» بين كركوك ودجلة قبالة بيجي

(٦) المقصود به القسم الشمالي من نهر الفرات

(٧) المقصود بقبيلة شمر هنا هي شمر «الجربا» التي انفصلت عن شمر الاصلية في نجد ودخلت العراق باعداد كبيرة قبل الحرب العالمية الاولى بسنوات عديدة واستوطنت ليس سنجار وماحواليه حسب وانما مناطق ماردين ودياربكر والشرقاط ايضا.

ولقد وصلت الاوامر من لدنه الى ولدي «محروت» بان يهاجم شمر. وفعلا قام «محروت» بالاغارة على شمر وعبر النهر على مقربة من «دير الزور» التي كانت آنذاك في قبضة البريطانيين. وحين كان «محروت» يتعقب مسيرة لجمن الذي كان يستطلع الاوضاع في احدى الطيارات وجد ان شمر كلها كانت تمضي هاربة الى ان دخلت المنطقة التركية، واذ ذاك امر لجمن ولدي «محروت» بان يعود الى موقعه.

* * *

كنت اجلس ذات صباح في مكتبي بكربلاء، حين اندفع لجمن نحوي من دون احتفال، وانفجر ساخطا يقول «لماذا ؟ ياللجحيم! لا تستطيع ان تحكم مدينتك بصورة صحيحة؟» فسألته «ماذا حدث؟» فاجاب لقد عدت مرهقاً! حاولت ان أنام لكنني بقيت مسهدا بسبب الضوضاء الضاربة اطنابها خلال الشارع. انه ذلك الشاب «القواد»... كانت لديه مجموعة من النساء النائحات هناك... انه الوقت الذي ولى فيه ذلك المخلوق القذر. اما الآن فقد حان خروجي مرة اخرى ولذلك فانني لم انعم بالراحة!».

اذ ذاك قلت له «سوف انظر في الامر» فرد علي «آمل بانك سوف «تسلق» ذلك الشاب»، ومن ثم غادر غرفتي على التو. قمت بتحريات دقيقة، عن طريق ضابط الشرطة لدي، فتوصلت الى حقيقة مؤداها ان ماوقع كان من اسوأ نوع وان مثل ذلك السلوك لا يمكن التسامح ازاءه، ولذلك سجنت ذلك الشاب لمدة اسبوعين وبعد عشرة ايام وجدت لجمن يندفع الى غرفتي هائجا منفعلا وهو يقول «انك شديد القسوة!» فسالته «لماذا؟ وماذا فعلت؟» فاجاب «سمعت بانك قد سجنتَ ذلك الشاب الذي اقلق راحتي في تلك الليلة واحدث الجلبة في الشارع يسوؤني لانني سببت له المتاعب. ماذا عن اطلاق سراحه؟» عاد لجمن الي في اقل من ساعة، بعد ان قام على الفور في التحقيق عن تأثير شكواه. ولقد ابلغ بنتيجة التحقيق، فاعلن اسفه لسخطه.

بعد ذلك بوقت قصير انتقل لجمن الى الموصل، غير انه بقي يحتفظ بالسيطرة القوية على البدو في غربي الجزيرة ولقد وجد هؤلاء البدو بأن لجمن وان كان قد ابتعد عنهم مئات الاميال الا ان جناياتهم ما تزال تلقى المراقبة والعقوبة مثلما حدث ذلك للشيخ «جزع» من فرقة «العمارات» من قبيلة «عنزة»

ترتبط كربلاء والنجف بطرق مترب يسير في صفة خط مستقيم طيلة الاربعين ميلا، التي تفصل بين المدينتين. وهذه الطريق تؤشر الحدود بين الصحراء والاراضي المزروعة. فتكون الصحراء هنا من ناحيتها الغربية مغطاة باشجار خفيفة تختلط بالاشواك التي تقضمها الابل، وتمتد حتى الافق

البعيد في تموجات متعرجة وكثيفة. اما من حافتها الشرقية فتمتد حقول غنية من الحنطة والشعير، ومراعي واسعة تغطي السهل، وتتقاطعها القنوات، التي تبدو عن بعد، اشبه بحوافي التلال المتهدمة. وتتلألأ خيام الاعراب المستوطنين بحرية وسط حقول القمح، لتؤكد امتداد نظام قنوات الري، وغنى التربة.

عند ذلك يصبح الطريق حدا بين البدو الرحل، الذين يحيون حياتهم الشاقة والحاجة والخطر، وبين اشقائهم المحظوظين «بني حسن» الذين تخلوا عن حياة التشرد، واخلدوا الآن الى الراحة والاستقرار. تتحرك القبائل البدوية الى مختلف المراعي طبقاً لموسم السنة، والى حالة الرعي في مختلف الاماكن. ولذلك كانت خيام «عنزة» السود تصاقب الطريق الآن.

كان لجمن قد اصدر اوامره بان على هذه القبائل البدوية ان لا تعبر تلك القطعة الضيقة من الارض. ولغرض ان يتحقق بان اوامره تلك تمت اطاعتها، كان لديه عدد من رجال «الشبانة» يقومون بمراقبة ذلك الطريق. وبعد ان رتب لجمن ذلك الاجراء، عاد الى الموصل، وامرني بأن ابلغه بكل ما يحدث.

ولقد حدث ذات يوم ان كان احد رعاة بني حسن يرعى معيزه عند حافة الطريق، حين اغريت احدى المعزات بغزارة العشب على الجانب الثاني من الطريق فعبرته لكي تتناول ذلك العشب ولكنها سرعان ما اصطيدت من قبل احد افراد العشائر. اثار هذا العمل انتباه الراعي فاندفع الى ذلك البدوي، ورفع عصاه وصرخ في وجهه، بان يطلق سراح المعزة. لكن البدوي رفس المعزة باحدى قدميه ثم صاح «والله ان كان ماعلى الجانب الآخر يعود اليك، فان مايكون عند هذا الجانب يعود لنا!» ثم دعى البدوي بعضا من افراد عشيرته ليشهدوا ماحدث، وسرعان ما خرج هؤلاء من خيامهم، وهبوا لنجدته فحمل البعض منهم بنادقهم في ذات الوقت الذي ثبت فيه الآخرون خناجرهم في احزمتهم وجد الراعي نفسه خلوا من القوة لاسترجاع مايملكه، في وجه هذا الحشد المنذر بالخطر من هؤلاء الذئاب، فراح يتلفت حواليه يطلب العون يائسا. ولقد حدث ان كان احد رجال الشبانة في تلك اللحظة يجتاز الطريق، فشكا الراعي اليه ماحدث وباسم الحكومة امر رجل الشبانة بكل صرامة بان تعاد المعزة الى مالكها، غير انه قوبل بالسخرية والشتائم فلم يكن امامه الا ان يلكز حصانه بكعبيه ليحثه على المضي الى امام لتفريق الحشد، وما ان تقدم الحيوان خطوة حتى رفع احد افراد العشائر بندقيته واطلق النار على رجل الشبانة فارداً قتيلا.

ولقد شاهدت، بعد مرور حوالي ساعة جثة ذلك القتيل ممدة على قارعة الطريق المترب مثلما كان قد سقط هناك من دون ان تمسسه يد انسان. قمت بتحرياتي فوجدت ان هذا الجزء من مخيم الاعراب هناك كان يتألف من قسم من قبيلة «عنزة» تحت زعامة الشيخ (جزع) وهو رجل ممتلئ

الجسم، ملتح في اواسط العمر، وذو مظهر فظ طلبت اليه ان يسلم القاتل فاجاب بان الحكم في يد «فهد بك» رئيسه الاكبر لكنني علمت مؤخرا بان القاتل قد هرب. اذ ذاك عدت الى كربلاء وبعثت برقية الى لجمن تتضمن تفاصيل الحادث فتلقيت منه الجواب القاطع على الفور «بلغ (جزع) بان ينقل عشيرته على بعد مدى سبعة ايام الى داخل الصحراء!»

ابلغت هذا الامر الى (جزع) الذي رد عليه بسرعة بقوله «باسم الله الرحمن الرحيم!» انني اعرف «فهد بك» فمن يكون لجمن هذا؟. ابرقت بهذا الجواب الى لجمن واذا لم اكن اعرف صاحبي فان (جزع) سيكون في بلاء وكان يتطلع الى ان يعرف كيف سيعالج لجمن هذه الحالة. وصلني جواب لجمن الذي يقول فيه «بلغ «جزع» بانه اذا لم يرحل في الساعة السادسة من صباح اليوم التالي فلسوف ابعث بطائرة تقصفه بالقنابل». ومرة ثانية خرج رسولي الى (جزع) ليعود منه بجواب اكثر ايجازا من الجواب السابق يقول فيه «انني اعرف «ابن هذال» [8] ولا اعرف لجمن» وفي ساعات قلائل كان هذا الجواب في يد لجمن الذي ابرق الي بعد الظهر مباشرة يقول «مهلا ياجزع!.. انا واصل اليك قبل فجر غد بست سيارات مدرعة. ارجو ان تهيئ الفطور لسائقي السيارات».

ركبت انا و «امين بك» بعد ظهر ذلك اليوم واختفينا وراء الاشجار، ورحنا نراقب مخيم «جزع» بنواظيرنا. ولقد أصابتنا الدهشة كيف سيعالج لجمن الامر من دون ان يمسك بالمجرم وحين اقتربنا من المخيم القيناه هادئا ولذلك مكثنا في امكاننا حتى غروب الشمس. وعلى حين غرة حصلت جلبة في المخيم فقد سيقت الابل وقوضت الخيام، ورحنا نشاهد النساء يمارسن اعمالهن في جنح الظلام.

لقد تحطمت اعصاب «جزع» فهو يهرب الآن من الرجل الذي قال عنه بانه لا يعرفه وفي وقت قصير جدا كانت العشيرة متهيأة للرحيل. امتطينا خيولنا انا وامين بك «فقمنا بجولة واسعة وبقينا تراقب القوم بمشقة طيلة الوقت الذي مر بين سدول الظلام واشتداد العتمة ثم واصلنا تحركنا الى ان بلغنا احد التلال المطلة على الطريق الى شفاثة واذ ذاك عدنا شرقا باتجاه كربلاء، ونحن نتحدث همسا اثناء السير في الساعة الخامسة وصل لجمن الى كربلاء بسيارته من طراز (ادوج) [9] ومعه ست سيارات من طراز «رولزرايز» [10] مدرعة وسيارة مسكن من طراز (فورد) في اعقابه كانت المدينة ماتزال غارقة في النوم وبعد فطور سريع طلب الي لجمن ان اصحبه في سيارته فبدأنا مسيرتنا الى مخيم (جزع). احدثنا جلبة وقرقعة حين عبرنا الجسر الحجري الطويل في

---

(٨) فهد بك رئيس عشائر عنزة

(٩) DODGE

(١٠) ROLLS RYES

ضواحي كربلاء وخلال السير في الصحراء ذاتها ولذلك خامرني الشك في ان يكون (جزع) قد استعد لملاقاتنا او أنه قد هرب

وفي منتصف الطريق اعترضنا عارض ما. ذلك ان واديا واسعا مليئا بالرمال الطافية كان يقوم امامنا. وعلى الرغم من كل جهودنا، فان اربعا من السيارات الست المدرعة قد توقفت عن السير. كان الوقت يؤلف اهمية حيوية بالنسبة لنا، ولذلك اندفع لجمن بالسيارتين الباقيتين قدما الى امام، وباسرع مايمكن. كان قد حدد وقت المغامرة لانه ما ان بدأ الفجر حتى شاهدنا مخيم «جزع» على التل امامنا. مضى لجمن بسيارته الخاصة بمنتهى السرعة باتجاه المخيم حتى اذا ماصبح ضمن عشرين يردا منه امر ضابط السيارات المدرعة بان يطلق عياراته النارية بكل سرعة. وما ان تم ايقاف الطلقات حتى وجدنا المخيم ساكنا لاحداث فيه الى درجة خيل الينا فيها بانه كان خالياً من البشر. قفز لجمن من سيارته وقال لاحد افراد العشيرة الذي كان معه في السيارة اذهب وابحث عن (جزع) وانبئه بانه اذا لم يأت الى هنا في غضون دقيقة ونصف الدقيقة فلسوف افتح النار عليه من رشاشاتي».

في ذلك الوقت كله كانت الخيام السود خالية من الحياة وكان الصمت القاتل يلف كل شيْ في كل مكان. تطلعت الى لجمن فوجدته يقف بلا حراك وقد حمل خلف ظهره عصا غليظة وثبت انظاره الى المخيم. راودني الشك فيما اذا كان (جزع) سوف يقدم الينا من بين خمسمائة من اتباعه المسلحين! وبعد ثوان لاحظت شخصاً بادي الاضطراب يدور داخل الخيام وخارجها ثم يتوجه مضطربا متوفز الاعصاب نحونا. وما ان اصبح على مسافة بضعة اقدام من لجمن حتى هتف متضرعاً «دخيلك! دخيلك! نظر لجمن اليه اشبه بالقط الوحشي، ثم امسك به من رسغيه وراح يضربه على قدميه بالعصا قائلا «تقول من لجمن؟» في ذات الوقت الذي كان فيه (جزع) يصرخ «دخيلك! دخيلك!» واذ ذاك قال لي لجمن اوثقه واصعد به الى داخل السيارة وما ان اوثقناه حتى اخذناه معنا الى السيارات المدرعة.

شد وثاق (جزع) واودع في سيارة المسكن (فورد) مع جنديين بريطانيين يقومان على حراسته وقد ابلغ سائق السيارة بان يمضي الى بغداد رأساً. لم تطلق ولا اطلاقة واحدة من قومه دفاعا عنه اما لجمن فانه قد ركب سيارته وانطلق بها نحو الجنوب الى المخيم الرئيس لقبيلة «عنزة». كان. لجمن يعرف الخيمة التي يوجد فيها نائب «فهد بك،» ولذلك توقف على بضع خطوات منها وبعث برسوله الى الشيخ لاحضاره امامه. كانت ثلاثون ثانية كافية لاحضاره واذ ذاك امره بكل شدة بان يلزم عشيرته كلها بالانسحاب حالا الى داخل الصحراء. غير ان الشيخ مالبث ان رفض ذلك بعناد، فخاطبه لجمن يقول «امنحك ربع ساعة لكي تقول لقومك «رحلة» ثم انبأه بما فعله مع (جزع) وانذره بانه اذا لم يطع الاوامر فلسوف يشارك «جزع» في ذات المصير، فرد الشيخ

الله كريم! فاجابه لجمن بحدة «امهلك ربع ساعة لكي تطيع الامر فاذا لم تناد خلال ذلك الوقت رحلة فلسوف اطلق النار على مخيمك!» ولكن الشيخ مالبث ان قال «لا والله!» طلب الي لجمن بان امسك به واجلسه في ارضية سيارته اخذت مكاني بجانبه وسط غبار الطريق. كان الشيخ قد احنى رأسه على صدره وراحت اصابعه تعبث في ركبتيه. مضت بنا السيارة بعيدا وحينذاك التفت لجمن الي وسأل «كم مضى من الوقت؟» فاجبته « «احدى عشر دقيقة واخير اوقف عند رأس الشيخ وقال «بقيت اربع دقائق واذا مامضت هذه الدقائق من دون ان تطيع فلسوف افتح النار. ومن ثم صرخ في وجهه «قل رحلة!» [11] ومع ذلك فلم تبق امام الشيخ سوى دقيقتين واخيرا وفي غضون الثواني الباقية نطق الشيخ بكلمة رحلة وراح يرددها بصوت خفيض. وفي غضون عشرين دقيقة كانت الابل السائرة تشاهد في كل مكان والخيام السود تتهاوى بتعاقب سريع.

* * *

تبعد الموصل مائتين وثمانين ميلا عن كربلاء ولم تكن رسالة جزع قد وصلت لجمن الا بعد ظهر اليوم السابق ومع ذلك فان لجمن كان عند الساعة الخامسة صباحا في كربلاء. وفي الساعة العاشرة والنصف من ذلك الصباح رحل خمسة عشر الف رجل مسلح من دون ارادتهم تنفيذا لاوامره! واخيرا بعثت اليه بصورته وهو يقف امام خيام «عنزة» مادا ذراعه باتجاه الصحراء حين كان قد امر القوم بالرحيل. وما ان اطلع على الصورة حتى كتب الي يقول «ماافظع ذلك!! لماذا ابدو اشبه بالقس يخاطب قومه؟!».

---

(۱۱) كتبها باللفظ العربي QUL RAHLA

«الفصل الرابع عشر»

احتلال شفاثة والاستيلاء على كربلاء

بالقرب من كربلاء، وعلى بعد اربعين ميلا عنها، وفوق سهل منبسط، تقوم واحة تضم ثلثمائة الف نخلة، احصيت بهذا العدد لاغراض الضريبة. كانت تنتثر وسط هذه الواحة اعداد من الاكواخ الطينية التي يسكنها العرب. اما في اقصى الجنوب فكانت تقوم بلدة «شفاثة» الصغيرة، وقد بنيت هذه البلدة حول ينابيع تتفجر من داخل الارض ليتألف منها جدول ماء يجري بسرعة

تقع «شفاثة» على طرق القوافل بين دمشق وكربلاء، حيث تستريح القوافل، في ايام السلم، هنا ليلا، اذ كانت ساحة البلدة توفر ساحة واسعة، يمكن اراحة الابل فيها، وانزال حمولتها واطعامها في حين تقوم حول هذه الساحة بيوت لسكنى المسافرين والتجار، وتوفير الطعام لهم.

تلقى مقر الجيش البريطاني معلومات بان شفاثة كانت تستخدم من لدن الاتراك بمثابة مستودع، تتزود منه القبائل المعادية للبريطانيين بالسلاح، ومركز يستطيع منه جواسيسهم ارسال مختلف الانباء والمعلومات. كانت تحكم شفاثة جماعة موالية للاتراك، ومناهضة بصفة مطلقة للبريطانيين، وتقوم بهذه الفعاليات المعادية. وبذلك كانت (شفاثة) تؤلف شوكة في جنبنا، ومركزا قويا للقضية التركية، حيث كان يؤمل ان تظل خارج نطاق التدخل البريطاني، كما كان مقر الجيش البريطاني في الوقت ذاته يعاني مشكلة الكيفية التي يعالج بها الوضع هناك، ولذلك طلب المقر قدوم لجمن، والاستماع الى نصحه.

وافق لجمن على قرار بارسال حملة الى (شفاثة) اذا كان مستطاعا توفير الرجال والسلاح والسيارات والمدافع. وعلى هذا الاساس قال لجمن للمقر بانه سوف يرى مايمكن عمله، ويبعث بتقرير عنه . غادر لجمن مقر الجيش وتوجه رأسا الى كربلاء، ومن هناك التقط خادمه «حسن»، واستقل معه احدى السيارات متجهين عبر الصحراء. وما ان وصلا الى (شفاثة) حتى قوبلا بنيران حامية كانت تطلق عليهما من فوق سطوح المنازل، ولذلك تخلى لجمن عن السيارة ، وطلب الى حسن ان يظل فيها، ثم اقترب من المدينة بمفرده سيرا على الاقدام.

واصل القوم اطلاق النار عليه فلم يصب الى ان وصل ودخل البلدة سالما باعجوبة. كان احد الشبان على سطح احد المنازل قد انحنى منه وسارع في اطلاق النار على لجمن، الذي مد يده الى جيبه ليخرج منها قنبلة يدوية من طراز «ملز»، ففتح زنادها والقى بها على سطح ذلك المنزل، فاحدثت انفجارا شديدا اوقف كل مقاومة في البلدة، لان ايا من سكانها لا يعرف عدد القنابل التي يمتلكها لجمن، ولم تكن لهم اية معرفة باستعمال هذا النوع من السلاح

توجه لجمن بعد ذلك الى الساحة الرئيسة في البلدة، وهتف بصوت عال يطالب بانعقاد المجلس البلدي على الفور. وحين اجتمع اعضاء هذا المجلس امرهم بان يجلسوا على الارض، وذلك امر لم يتعودوه قبلا. وفي الوقت ذاته تجمع اهل البلدة حول الساحة وهم ينظرون بدهشة الى الوضع الذي كان فيهم حكامهم.

ذكر لجمن اسمي اثنين من اصدقائه اللذين كان قد التقى بهم في السنوات السابقة، فاسرعا الى نجدته بعد ان تحققا من قامته النحيلة. وحينذاك اتجه الى الاعضاء الجالسين على الارض فابلغهم بانهم مطرودون من البلدية، والتفت الى صديقيه فعين احدهما رئيسا للبلدية[1]، وعين الثاني مساعدا له، وابلغهما بان يؤلفا على الفور مجلسا بلديا جديدا للبلدة من اتباعهما، وفي غضون عشرين دقيقة تم تأليف المجلس المطلوب، فابلغ اعضاءه بان الواجب الاول الملقى على عواتقهم هو ان يجمعوا كل انواع السلاح الموجود لدى اهل البلدة، وان يأتوا به الى الساحة، وبهذه الصورة اعاد توزيع ذلك السلاح على الافراد الذين تحقق من صداقاتهم، ومن ثم امر باعتقال كل اولئك الذين عرفوا بانهم كانوا من انصار الاتراك

امر لجمن الجميع بان يغادروا المكان الذي كانوا محتشدين فيه، وبقي في شفاثة الى ان تم ضمان حماية المصالح البريطانية، ومن ثم غادرها بهدوء، وابلغ مقر الجيش البريطاني بان (شفاثة) لن تكون موالية للاتراك بعد الآن

في احدى زياراته لكربلاء، حاول لجمن ان يتوجه الى «شفاثة» على الاخص بعد ان نما اليه بان مكائد الاتراك قد تحركت مرة اخرى لاثارة الاضطراب هناك، ولذلك طلب الي ان اصحبه في هذه الزيارة. وما ان وصلنا (شفاثة)، وكنا متجهين نحو ساحتها، حتى ظهرت عجوز شمطاء على حين غرة من جانب الطريق. واذ رأت لجمن حتى تبعتنا، وهي ترفع ذراعيها نحو السماء معولة. سألت لجمن «ماهي قضية هذه العجوز؟» فاجاب «اوه! انها مجنونة، وهي تشتمني الآن!». لكن لجمن نسي بانني كنت اعرف العربية. لم تكن تلك العجوز تشتمه، وانما كانت تشكره!.

---

(١) كتبها باللفظ العربي RAIS AL - BALADIYAH

وحين مضى لجمن لتأدية واجباته، قمت بتحرياتي الخاصة عن تلك العجوزة، فعلمت بانها كانت والدة الشاب الصغير الذي اطلق النار على لجمن حين استولى على (شفاثة) والذي مزقته القنبلة اليدوية التي اطلقها لجمن على الدار التي كان ذلك الشاب يقف على سطحها، واستطاع بها لجمن ان ينقذ حياته، ويكمل استيلاءه على البلدة. كانت تلك العجوز قد شكت الى لجمن فيما بعد، الخسارة التي اصابتها، اذ كانت ارملة لامعين لها سوى ذلك الشاب الذي قتل، ولهذا كان لجمن يعوضها من مرتبه الخاص، ولا يزور (شفاثة) في اية مرة الا ويجلب لها هدية ما. واذكر بهذه المناسبة انني اكتشفت في سيارة «الفورد» التي كان لجمن يستعملها، رزمة تضم بطانيتين كان قد جلبها لتلك العجوز!

بعد ان استطاع لجمن السيطرة على (شفاثة) استطاع ايضا انقاذ كربلاء، بعد ان تعرض الى مخاطر كثيرة. كانت تقوم بين الاعراب المتوطنين في كربلاء وسكانها كراهية ظاهرة. ذلك ان المتوطنين من الاعراب لم يكونوا يأبهون بسكان المدينة الاصليين، ويعتبرونهم من الذين لايستحقون التقدير، في الوقت الذي كان فيه سكان المدينة ينظرون الى الاعراب المستوطنين نظرتهم الى البدو غير المثقفين او المتحضرين.

كانت كربلاء احدى المدن المقدسة لدى الشيعة، والتي تشتهر بالكنوز الكثيرة في مراقدها، وباسواقها التي تغص بالسلع والحاجيات، والكثيرين من المواطنين الاغنياء. وكانت تعيش منعزلة عن المدن الاخرى، ويحيط بها بحر من ابناء العشائر الذين تمتد عيونهم بشراهة الى الاثرياء من سكان المدينة. وكانت الحكومة العثمانية تحتفظ بلواء من الخيالة، وببطرية من المدفعية في المدينة للحيلولة دون حدوث اية اعتداءات من ابناء العشائر على اهل المدينة. وحين بدأ مد الجيش التركي ينحسر نحو الشمال، والشمال الغربي، بقيت كربلاء لوحدها، ولم تقدم اية قوة للسيطرة على الامن فيها، واذ ذاك استغل الاعراب المتوطنون هذه الفرصة، للقيام ببعض اعمال النهب.

كان لجمن انذاك على مقربة من «المسيب» حين وصلت اليه هذه الانباء. كان الوضع في اشد حالات الاحراج. فقد كان الوقت قصيرا، ولا توجد قوات يمكن جلبها على الفور لانقاذ المدينة. ومع ذلك فقد اصطحب لجمن معه خادمه «حسن»، واسرع بالذهاب الى مسرح الاحداث. وما ان اقترب من المدينة حتى اخذ يسمع بوضوح جلبة اطلاق النيران، والتي كانت تدلل على مهاجمة المدينة من قبل رجال العشائر. مضى لجمن الى بساتين النخيل التي اختفى المهاجمون فيها. وما ان اقترب منهم حتى طلب الرجل البارز بينهم والذي كان يتولى قيادة المهاجمين. لكن ذلك الرجل مالبث ان استدار نحو لجمن فقذفه بوابل شديد من النار من وراء السداد القائمة، ثم واصل اطلاق النار على المدينة.

واجه لجمن ذلك الرجل بتحد صارم كانت له نتائجه الفعالة، فلم يلبث ذلك الرجل ان قاده الى الشخص الذي كان منهمكا تماما في اطلاق النيران. وخزه لجمن بعصا البولو التي كان لايحمل سواها. وامره بان يتوقف عن اطلاق النار، وان يأمر اتباعه بان يحذوا حذوه، وان ينسحبوا من البساتين، ويعودوا الى قراهم. رفض الرجل الامتثال الى هذه الاوامر، واذ ذاك اشار لجمن الى خادمه حسن الذي قفز على ذلك الرجل فطرحه ارضا، وجلس على كتفيه. بدأ لجمن يلهب قدمي ذلك الرجل، وهو شيخ القوم، بعصاه، ويصرخ في وجهه آمراً اياه بان يأمر رجاله بايقاف النار والانسحاب.

لم يعد امام ذلك الشيخ الا الخضوع لما طلبه لجمن منه، حيث اعطى اوامره الى اتباعه بوقف اطلاق النار، والعودة الى قراهم، وهكذا سحب ذلك الشيخ اتباعه من البساتين، واتجهوا نحو السهل المكشوف. ولقد ذكر «خضر بن عباس» خادم لجمن، بان اولئك المعتدين كانوا من عشائر بني حسن وقريط، والمسعود، والياسين، وسادات العوم، وآل دعوم.

* * *

تضمنت سبع رسائل من لجمن، عن الفترة التي مرت بين شهر تموز سنة ١٩١٧، وتموز سنة ١٩١٨، مقارنة مهمة بين ماوقع، وما اتى هو نفسه على وصفه. ففي رسالة من كربلاء مؤرخة في اليوم الثالث من شهر تموز سنة ١٩١٧، كتب يقول:- تلقيت ضربة سيئة من بغداد!. لم اكن هناك، منذ خمسة اسابيع، لكن خيل الى السلطات بانها تود ان تراني. كنت قد دخلت المدينة، وقمت باعمال شاقة، وخططت لان اهرب باسرع مايمكن.

وما ان خرجت الى مسافة ثمانية اميال حتى ظن القوم بان لديهم المزيد مما يريدون ان يقولوه لي، ولذلك استدعوني اليهم، ثم انكببت على العمل الشاق مرة اخرى، الى ان وجدت بانهم قد نسوا ماارادوا ان يقولوه لي. تحملت كل ذلك باتزاني المعتاد!

كل الناس الذين كانوا يجلسون في الدوائر، ويشربون المشروبات المثلجة، كانوا يستمتعون بقوائم المكافآت. كان كل واحد منهم قد اصاب شيئا. فاذا لم يكن ذلك الشيء وساما من طراز «نوط الخدمة الممتازة»، كان وساما ابيض، وشيئا ما، وآخر من طراز وسام «صوبيا»!

بغداد في ٢٢-٧- ١٩١٧

«عدت الآن من الصحراء، وما زلت مهتاجا من تأثير العيش في نوع من افران النار طيلة الايام العشرة الاخيرة. ولقد كان من سوء الحظ، ان كان هذا الوقت من اشد الاوقات حرارة مما عانيته في هذه البلاد طيلة عدة سنوات. كان الحر يسري في كل شيء. فحتى الابل لم تعد تتناول اي طعام، وانما كانت تضطجع على الارض، وتحاول ان تنجو من العاصفة الترابية التي كانت تهب ليل نهار.

وعلى الرغم من كل ذلك كان لدي وقت مهم لانني كنت اول الفاتحين الذين دخلوا مدن ذلك القسم. كان السكان ودودين بصفة استثنائية لانهم عانوا السوء على ايدي الاتراك. سوف امضي الى الخارج خلال يوم او يومين. لقد مللت من عملي في دائرة الضباط السياسيين. انها لم تعد اطلاقا، تشبه ما كانت عليه في الايام الخوالي، حين كان المرء يستطيع ان يعمل تماما مثلما يجب ان يفعل ذلك، ومن دون ان يشير الى احد ما.

لدينا الآن اصناف من شبان اكسفورد الذين لم يغادروا كراسي الوظيفة، والذين يضايقون الناس غير المحظوظين من امثالي، الذين يحيون حياة صارمة، ولكنهم بفضل طيبتهم وجودتهم، ليس لديهم الوقت ولا الميل الى ان يؤدوا المزيد من اعمال الدوائر. فلا توجد سوى اشياء قليلة تعيدني الى الدائرة الآن، ولسوف اكون اكثر سعادة!».

كربلاء في ٦-١-١٩١٨

«عدت الآن من رحلة استغرقت عدة ايام، وامضيت معظمها تحت وابل المطر!. انها اختبارات مثيرة؟ اليس كذلك؟ غير انها لم تكن بهيجة بصفة مطلقة. لكنها جعلتني استمتع، لان الامطار سوف توفر العشب لجماعتي من البدو، الذين يؤلفون الموضوعات الرئيسة لدي، والتي انا مغرم جدا بها!.

واتنني الجرأة أن ادخل الى داخل بغداد، لست مغرما بالموقع بل بالاحرى بالناس الذين يقيمون فيه. ومع ذلك فانني احس بان واجبي يدعوني الى دخوله في وقت ما، او ان اغوص في حالة من التشرد. مايزال شعري طويلا ينبغي قصه، وتلك عملية لاتتم الا هناك!.»

كربلاء ٢٣- ١ - ١٩١٨

«ليس لدي المزيد مما اقصه عليكم. انني الآن ذاهب في زيارة طويلة الى بغداد لمدة اربعة ايام، وهي اطول مدة اصبتها هناك... لقد رأيت كثيرا من الاصدقاء القدامى، وتناولنا عشاءنا فيما بعد ولفترة طويلة. قدم «رادول[٢] ومكث معي، ومن ثم عاد معي الى كربلاء، لكن زيارته كانت قصيرة لانها قطعت بسبب استدعائه، ولانني مرغم على ان اغادر لاتعقب بعض القساة المتوحشين.

كان رادول مبتهجا. انني لم ار انسانا كسولا لايحب النوم، اعتقد بانه ينظر الي كما لوكنت

(٢) RADWELL

مجنونا، ولا يفهم الامر المسعور حين ينطلق المرء بمنتهى السرعة لان عليه ان يدع الامور تتحرك. نجيم التجمد مثل اي شيء آخر في الوقت الحاضر ليلا. ولقد عانيت قضاء ليال شديدة البرد في الصحراء وبكل قسوته. فالذي اعتقده هو انني افضل الجو الحار، ماخلا ذلك الجو الذي تطغى عليه البرودة. اشعر وكأنني في السادسة عشرة، وانني متأكد بان شعري قد اخذ ينمو ثانية!

ان الاضطراب الوحيد الذي اعانيه في الوقت الحاضر هو ان خادمي الذي كنت احتفظ به لوقت طويل، قد اختفى الآن. اخشى ان يكون قد اكتشف مسارح الانس في بغداد. لقد غدا ذا طبيعة مأخوذة فلم يستطع ان يحرر نفسه منها. انه سوف يعود في وقت ما، لكنني لست ادري ما اذا سوف احتفظ به مرة اخرى، ذلك لان الاعراب حين يصابون بمثل هذه المؤثرات، يصبحون مزعجين، ويكونون غير مسؤلين حقا عن تصرفاتهم. انه لامر مؤسف لان هذا الخادم جيد!».

كربلاء ١٦-٢ -١٩١٨

«لم تتوفر لدي فرصة الكتابة اخيرا لانني كنت في التيه! اصبح الجو اكثر ملاءمة، لأن يضطجع المرء من دون اغطية، ومع ذلك مايزال هناك متسع للتحسن. غدا الجو شديد البرودة بعد الامطار الغزيرة التي سقطت في هذه السنة.

انحدرت الى انحاء العراق، حيث القنوات القديمة ماتزال قائمة، وهي خصبة بصفة مدهشة. كنا نقوم بحفر القنوات، ونخضع البلاد كلها للزراعة التي يشارك فيها قسم كبير من السكان. قبل ثماني سنوات كنت قد قدمت الى هذه البلاد ذاتها على ظهر بعير، فلم اشاهد نبتة عشب واحدة، ولم ار نفسا واحدة تعيش هناك، بل الواقع انه لايوجد ماء تشربه. ومن المؤكد بان التركي كان بغيضا جدا في هذا البلد.

حصلت زيارة اخرى الى بغداد. فلقد تلقيت امرا قاسيا بالذهاب الى الاقسام الداخلية من البلاد. وما ان رحلت الى هناك بعد رحلة قطعت فيها خمسة وسبعين ميلا، قالوا انهم كانوا مستائين لما حصل، لكنهم ليسوا في حاجة الي، واذ لم اكن من عشاق بغداد، فقد تضايقت بعض الشيء.

يبذل (ولسون) (سر ارنولد ولسون) عملا شاقا جدا، وهو نموذج عظيم في ذلك. انه لشخص مدهش حقا، وهو فوق ذلك لطيف جدا. وعلى الرغم من العمل الشاق الذي ينهض به، فانه شديد التفكير جدا في غير المحظوظين من امثالي، والذين يمثلون نوعا من القردة!!

كربلاء في ٤- ٧- ١٩١٨

«مرت بنا اوقات عسيرة نوعا ما مؤخرا، فاضطررت الى ان اضرب في الريف، في طريق مقفر موحش. كانت الامطار غزيرة، بحيث لاتصلح السيارة للاستعمال خلالها. انني اعتقد، بصفة عامة، بان ركوب الحيوانات افضل كثيرا، بالنسبة الي من استعمال السيارة. كما ان المرء

يستطيع ان يكون على اتصال مع الناس بصفة افضل ، من ان يندفع في سيارة. يذهب الوقت سدى ، وانني اعاني الآن من تلك «الشكوى المؤلمة غير الشاملة» التي اعانيها لاول مرة في حياتي ، والتي لاتضيف المزيد الى متعة الحياة التي يقضيها المرء راكبا.

هناك سبب آخر من اسباب معاناتي يتمثل في عدم قدرتي على النوم. لست اتذكر بانني كنت انام حقا قبل انبثاق الفجر، اذ انني ابقى يقظا دوما، واظن ان ذلك ناشئ عن استمرار تحركي في مبكر الفجر طيلة السنوات الثلاث الاخيرة. سوف اكون مصدر اذى لربة البيت اذا ماعدت الى الوطن. اننا ننتظر الانباء من الوطن بقلق عظيم، ولكن بفضل الآلهة، يبدو بان الامور تسير سيرا حسنا».

كربلاء في ٣ -١١- ١٩١٨

«عدت الآن على الفور من اشق رحلة كنت اقوم بها. يبدو بان القوم[3] يطلبون مني ان اقوم بامور اشد مصاعب، واعظم استحالة، في كل يوم. انني لم انجح في اي شيء في الوقت الحاضر. واسوأ من ذلك انني بدأت العمل وانا عارف بأنني لن انجح فيه!. انني ، كما يقال عني بكل ادب، «ضجر ومتبرم» لقد بعثوا الي بسيارة فخمة!. اظن بان براذيني لابد وان تفرح اذ ترى هذه السيارة! ياللحيوانات المسكينة. لقد عانت اوقاتا عصيبة!.

حدثت لنا، تمثيلية ناجحة في «الرمادي» شاركت فيها قليلا من مسافة بعيدة. كنت اشبه بالساقي في المسرح الذي يسير فيه، ويذيع اسم شخص ما. كان تعبي في التمثيلية ذا اهمية نوعا ما. فلقد تلقيت رسالة مدهشة من عريف قديم في المطعم يقول فيها «انه ليسوؤك ان تسمع بان الضباط الجدد لايتمسكون بالعادات القديمة. اود ان تعود ياسيدي، وان تعود الكتيبة معك!».

* * *

اشار لجمن في الرسالة الاخيرة الى العمليات الناجحة التي قام بها «الجنرال السر هاري بروكنغ»[4] في مناطق الفرات. فقد كان من نتائج صد الاتراك، ان اصبحت منطقة الدليم برمتها، وبقبائلها القوية، تحت سيطرة البريطانيين. وكان قد تم ارسال لجمن ليوطد اتصالاته مع الشيوخ البارزين في المنطقة، وليدشن الادارة المدنية هناك، حيث ادى هذه المهمة بكل نجاح، وعهد اليه بالاشراف على المنطقة لبعض الوقت.

كذلك يشير لجمن الى المحاولة الفاشلة التي اريد من ورائها القاء القبض على «عجمي السعدون» الذي مرت الاشارة اليه. كتب رئيس استخبارات مقر القوة الجوية عن لجمن يقول

---

(٣) نود ان يفهم القارئ ان المقصود من كلمة (القوم) اينما ذكرت يقصد بها ادارة الجيش البريطاني او الحكومة البريطانية

(٤) GENERAL SIR HARRY BROOKING

«كان الهدف من مكوث لجمن مع «فهد بك» ان يحول دون مرور اية عصابات معادية، او جواسيس عبر الصحراء . وكذلك لكي يراقب مراقبة دقيقة، الجناح الغربي للجيش، وقبائل الصحراء، والمدن المقدسة (حيث كانت ،الدعاية التركية تحاول ان تحصل على موطن قدم لها هناك)، ولاطباق الحصار على الطرق الخارجية لمنع وصول الامدادات الغذائية، والمواد التجارية الاخرى ذات القيمة العسكرية الى الاتراك.

مرت الاشارة قبلا الى الرحالة الجيكوسلوفاكي الواموتسل»الذي كان بين آخرين من الجواسيس الالمان والنمسويين الذين كانوا يعدون العدة للسيطرة على الصحراء وقت الحرب. كان لجمن بمفردة يقاوم اولئك الجواسيس المزودين تزويدا حسنا، بكل الوسائل والاموال التي لاتنضب، اضافة الى مساعدة الجيوش التركية لهم.

في اليوم الخامس والعشرين من شهر اذار سنة ١٩١٨، اندحر الاتراك اندحارا شنيعا ونهائيا على يد «الجنرال هاري بروكنغ» على مقربة من (خان البغدادي)(٥) ولقد راحت السيارات المدرعة تحت امرة النقيب «تود» تتعقب الاتراك الى نقطة تبعد ثلاثة وسبعين ميلا فيما وراء «عانة» حيث تم اسر جملة من الالمان كان من بينهم الجاسوس الالماني المشهور «الهربروسر»، رئيس البعثة الالمانية في الفرات، والذي كان يحمل معه وثائق مهمة، بالاضافة الى دفتر يوميات. لقد استولى البريطانيون على كل هذه الوثائق واليوميات.

لقد ورد في يوميات «الهربروسر» قوله «لم تستطع كل تملقات الاتراك، وكل الذهب الذي وزعوه، واي جهد الماني آخر، ان تقوض النفوذ الذي اصابه بين العشائر رجل واحد هو «لجمن». وحين تقابل (بروسر) مؤخرا مع «لجمن» مالبث ان قفز واقفا على قدميه، وحياه، وطلب ان يصافحه. كان لجمن ابن بجدتها، يعاونه في ذلك «فهد بك» الذي يحكم قبيلة «عنزة». ولقد صرح فهد بان افراد العشائر يعتبرون لجمن واحدا من شيوخهم، فكانوا يتجمعون حواليه مثلما يتجمع فتيات المدارس حول المعلم المفضل لديهم.

---

(٥) خان البغدادي: بقايا خان من العهد العثماني يقع على الضفة الغربية من الفرات وعلى بعد خمسة وعشرين كيلو مترا من هيت، توجد عنده بقايا سد وجسر مشيد بالآجر والنورة وفي ناحية الشرق منه آثار نهر كان يأخذ ماءه من الفرات في اعلى السد (المرشد الى مواطن الاثار: طه باقر وفؤاد سفر الاولى ص ١٢-١٧

تقرر في شهر تشرين الاول سنة ١٩١٨ شن هجوم ضد الاتراك والاستيلاء على الموصل. ولقد صدرت الاوامر الى لجمن بان يقوم بمهمة الضابط السياسي للقوات المهاجمة. لقد كان لجمن يعرف مدينة الموصل معرفة جيدة، كما كان يعرف الطرق التي سوف تسلكها القوات الزاحفة نحو الموصل(٦)

---

(٦) تحدث رجل مسيحي كبير السن يعمل اسكافيا، قدم من الموصل الى «بيجي» اثناء العمل بمد اول خط ينقل نفط العراق من كركوك الى ساحل البحر المتوسط في سنة ١٩٣١، الى المرحوم العم ملا محمود الذي كان يعمل في ذات القرية وكيلا لاحدى شركات النقل الكبرى في العراق في ذلك الوقت. قال ذلك الاسكافي ويدعى «عبد الاحد». كنت في احد الايام ازاول عملي في احد الخانات وكنت اخفي في طيات ملابسي رغيفا من الخبز و«كباية» واذ فرغ الخان من الموجودين فيه اخرجت «الكباية» ولففتها برغيف الخبز ورحت اقطمها مخافة ان يراني احدهم فينهبها مني وعلى حين غرة لمحت اعرابيا مقعيا قبالتي وهو يراقبني، فراح يتضرع الي بان اعطيه ولو لقمة واحدة مما كنت اتناوله وهو يقول.. الله يخليك لقمة واحدة وحق الله العظيم لم اذق شيئا منذ ثلاثة ايام بلياليها» رق قلبي لتوسلاته وتضرعاته، فاقتطعت له جزءا من «الكباية» والخبز فالتهما وراح يسألني عن اسمي، و لم يلبث ان نهض وغادر المكان»

«قامت الحرب ووصلت الجيوش الانكليزية الى الموصل واحتلتها واعلنت الهدنة وعين ضابط انكليزي حاكما للموصل. وفي احد الايام واذ كنت كعادتي السابقة ازاول عملي في الخان ذاته اقبل شرطيان علي فسآلاني عن اسمي واذ عرفاه قالا لي قم معنا الى الحاكم السياسي. تولاني الخوف فلم استطع النطق بشيء ولا استطاعت قدماي ان تحملاني من شدة الخوف واذ دخلت الى الغرفة التي كان الحاكم السياسي يجلس فيها، نهض ضابط انكليزي من مقعده وقال للشرطي الذي يقف في باب غرفته «هات كرسي وأت بالرجل ليقعد عليه» جلست على الكرسي وانا ارتجف من شدة الخوف حتى لاكاد ان اسقط عن الكرسي كلمني الحاكم بلغة عربية يقول «ماخطبك ياعبد الاحد! انظر الي الست تعرفني؟» فغمغمت قائلا.. لا والله ياصاحب!، فرد يقول «هل نسيت ذلك الاعرابي في الخان الذي تعمل فيه واعطيته قطعة من الكبة ولقمة من الخبز؟» «فأجبت» لا والله ياصاحب» ولم يلبث ان فتح احد الادراج في المنضدة التي كانت امامه وناولني ثلاثين روبية واعادني الى الخان معززا».

«الفصل الخامس عشر»
لجمن حاكم الموصل
تشرين الاول ١٩١٨ - كانون الثاني ١٩٢٠

في اليوم الثاني من شهر تشرين الاول سنة ١٩١٨، ابلغ «الجنرال مارشال»[١] قائد القوات الانكليزية العام، والذي كان قد عاد من اجازة امضاها في انكلترا، من قبل وزارة الحربية البريطانية ، بان خروج (بلغاريا) من الحرب، ونجاح القوات الانكليزية في فلسطين وسوريا، قد جعل الاتراك على وشك ان يطلبوا الهدنة ويعتبروها امرا مرغوبا فيه.

وفي ضوء هذا الاحتمال، قررت السلطات العسكرية والمدنية في العراق، ان تبذل جهدا كبيرا لاحتلال المزيد مما يمكن احتلاله من القسم الشمالي للعراق، ولذلك اصبح الاستيلاء على ولاية الموصل، واحتلال مدينة الموصل ذاتها، من بين الاهداف المطلوب تحقيقها. وفي اليوم الثاني والعشرين من شهر تشرين الاول كملت كل الاستعدادات لتقدم الزحف البريطاني في ذلك الاتجاه.

كانت تتاخم الطريق الممتد الى الموصل قوتان تركيتان: الاولى منهما عند نهر الزاب الصغير، وقد حفرت لها خنادق قوية على جانبي نهر دجلة، عند «عين الدبس»[٢]. وكانت هذه القوة تتألف من حوالي خمسة آلاف وخمسمائة رجل من حملة البنادق ،اضافة الى اثنين واربعين مدفعاً اما القوة الثانية فقد اتخذت مواقعها عند «التون كوبري» وحواليها، وعلى بعد اربعة وخمسين ميلا شمالي مؤخرة الجيش التركي الرئيسة، وفي كركوك على مسافة مماثلة باتجاه الشرق. وكان الموقعان التركيان يكتنفان الطريق الممتد الى الموصل عبر اربيل.

كانت القوات البريطانية التي يقو ها الجنرال «كوب»[٣] مؤلفة من الفرقة الثامنة عشرة تحت

---

(١) تسلم القيادة العامة للقوات الانكليزية في العراق في اليوم الثامن عشر من شهر تشرين الثاني سنة ١٩١٧ على اثر وفاة الجنرال مود بالكوليرا في بغداد.

(٢) اخطأ المؤلف فكتبها باسم «عين الدبل AIN DIBIL» وهي تقع على بعد حوالي اربعة وثلاثين كيلو مترا شمالي قضاء بيجي وكانت مجرد محطة على سكة الحديد الممتدة من بغداد الى الموصل لكن اصبحت الآن ناحية تابعة الى بيجي.

(٣) GEN. COBBE

امرة «الميجر جنرال فانشاو»[٤]، والفرقة السابعة عشرة تحت امرة الميجر جنرال لسلي[٥] واللتين كانتا تتحركان بالتتابع على الضفتين اليمنى واليسرى لنهر دجلة. وكان هناك لواءان من الخيالة، هما اللواء السابع، واللواء الحادي عشر تحت امرة الجنرال كاسلز[٦] يقفان على الضفة اليسرى، في حين كان لواء المدرعات الذي ينتمي لجمن اليه، قد عهد اليه بمهمة خاصة

كانت هذه المهمة الخاصة واحدة من المهام التي ادخلت السرور العظيم الى قلب لجمن، اذ كانت تلاءم طبيعته بشكل مدهش. ذلك ان لجمن في الوقت الذي كان يعمل فيه وفقا لتعليمات القيادة العامة للجيش، وفي تعاون وثيق مع القوات المحاربة، كان يقوم بمهمة مستقلة. كان الهدف من وراء هذه المهمة هو تطويق الجناح الايمن من الموضع التركي تطويقا جيدا يشمل حتى المؤخرة، ومن ثم الاتصال مع قوات الخيالة، حيث تمركز لجمن وزمرته عند خط تراجع القوات التركية واجبارها على العودة الى مواقعها، الى ان تستطيع القوات البريطانية التي كانت تتحرك، من تطويقها واسرها.

كانت القوة التي يقودها لجمن والتي عرفت باسم «اللواء المدرع الاول الخفيف» تتألف من افراد تم انتقاؤهم، ولم يكونوا كلهم من البريطانيين.

فقد كان من بينهم «كرمت روزفلت»[٧] الذي بقي مع اللواء المدرع الاول الخفيف، الى ان تم استدعاؤه لكي يقود بطرية من ابناء بلاده في فرنسا. ولقد نال كرمت روزفلت وسامين، احدهما وسام الخدمة الممتازة، لقاء خدماته في العراق، وقد تعلم اللغة العربية وراح يتحدث بها بصفة جيدة

كذلك كان من غير البريطانيين في هذه القوة ايضا «جاك سمرز» الامريكي، و«ملسون السويسري، ذلك الرجل الضئيل اللطيف الذي كان يتحدث بانكليزية مكسرة، لكنه كان يستطيع ان يمتطي دراجته البخارية بصفة جيدة. ويحدثنا «كرمت روزفلت» في الوقت الذي لايستطيع فيه احد ان يفعل ذلك فيقول «لم يكن هناك رجل اكثر برودة او تجمعا تحت وابل النيران. هنالك قلة من الرجال الذين استطاعوا، مع رفاقهم البريطانيين، ان يؤلفوا اخوة رجال شجعان، وكانت المهمة التي عهدت اليهم من المهام التي تم الحفاظ عليها تماما، وكذلك

---

(٤) MAJ. GEN. FANSHAWE

(٥) MAJ.GEN. LESLIe

(٦) GEN. CASSELS

(٧) KERMIT ROOSEVELT من مشاهير الصحفيين الامريكيين الذين شاركوا في الحرب العالمية الثانية، والذي خدم مع القوات الانكليزية في العراق، ثم التحق بمنظمة المخابرات الامريكية C. I. A وخدمها خدمة واسعة امتدت ليس طيلة ايام الحرب العالمية الثانية حسب، بل حتى سني الخمسينات والستينات من القرن الحالي. اصدر بعد الحرب الثانية كتابا مهما عن الشرق الاوسط بعنوان «العرب والنفط والتاريخ» تحدث في بعض فصوله عن العراق

الاحتفاظ بشهرتهم وقابلياتهم». وكان لجمن قد انضم برضاه التام الى هذه الزمرة المختارة حيث قال «لقد اخترت العمل الذي اختاره الجميع».

بدأ الهجوم البريطاني في اليوم الثالث والعشرين من شهر تشرين الاول. وفي اليوم الخامس والعشرين منه كان اللواء الاول المدرع الخفيف الذي يعمل لجمن معه قد تمركز على طريق تراجع الاتراك شمالي «الشرقاط» تماما، حيث سبق لقوة مؤلفة من الف رجل مزودين بالمدافع ان احتلته.

كانت التعليمات الصادرة الى اللواء المدرع الاول الخفيف، تقضي بوجوب تأخير تراجع الاتراك باي ثمن كان. ذلك لان البريطانيين لم يكونوا يأملون الأطباق على الجيش التركي كله اذا ماتراجع. ولذلك راحت الآليات البريطانية تخبط بالاجنحة التركية. وكانت كل ساعة يمكن تأخير تراجع الاتراك فيها، لها فائدة لاتقدر باي ثمن. وعلى هذا الاساس مضى اللواء المدرع الاول الخفيف، يتشبث باي شبر من الارض بعناد عجيب، ويحافظ على موضعه ضد الهجمات المتكررة عليه، والاطباق على الاتراك اطباقا تاما تقريبا.

وفي الوقت ذاته استطاع الجنرال كاسلز، ان يعبر بقسم من لواء الخيالة الحادي عشر، نهر دجلة بمشقة ملموسة، وان يتخذ له موقعا قويا عند «الحويش»[8]. ومع ذلك فلم تكن الخيالة والسيارات المدرعة كافية لوقف الصولة العامة. فلو ان الاتراك كانوا قد تراجعوا اثناء الليل، لكان من المشكوك فيه ان تستطيع مثل هذه القوة الصغيرة ان تصدهم. وفي صباح اليوم التالي كان موقع الجنرال كاسلز غير مستقر، لكنه كان يشعر بالثقة في امكانيته ايقاف العدو الى ان يتطور هجوم الفرقة السابعة عشرة.

في تلك الليلة استطاع لواء الخيالة السابع، بعد مسيرة فاخرة على امتداد خمسة واربعين ميلا، ان يعبر نهر دجلة ليلا، وان ينضم الى قوات الجنرال كاسلز. فأصبح خط الجنرال كاسلز الآن يمتد مسافة اربعة اميال من نهر دجلة الى الارض الخلاء الواقعة في جناحه الايمن، والتي انتشرت فيها قوات اللواء المدرع الاول الخفيف.

ومنذ الظهيرة حتى حلول الغسق تعرض «كاسلز» لهجوم متواصل عليه من قبل قوات المشاة الاتراك، تعززه المدافع، حيث اراد الاتراك اختراق المواقع الانكليزية هناك. وعن طريق القتال الفاخر استطاع الجنرال كاسلز ان يحتفظ بموقعه، وكانت نتيجة ذلك ان استطاع الهجوم البريطاني الرئيس ان يتطور. وفي صباح اليوم الثلاثين من شهر تشرين الاول ١٩١٨، كانت القوة التركية قد استسلمت بكاملها.

---

(٨) حاوي الحويش: يقع في الجزء الجنوبي من قضاء الشرقاط وعلى الضفة اليمنى من نهر دجلة ولقد اخطأ بعض العسكريين العراقيين الذين ارخوا معارك الحرب العالمية الاولى في العراق بين الانكليز والاتراك ومنهم المرحوم امين العمري فسموا حاوي الحويش باسم «حاوي الهويش» حسب اللفظ الانكليزي للكلمة.

كان لجمن وبعض رجاله يعملون في مؤخرة الجيش التركي في المراحل الاولية للعمليات الحربية. وعند الفجر وصل لجمن ونائب العريف «سمرز» الى احد المطارات التركية. اما ماحدث بعد ذلك فيرويه نائب العريف (سمرز) نفسه فيقول «لم اكن اصدق ان هذه يمكن ان تتكرر على هذه الجبهة، او اية جبهة اخرى. لقد اندفعنا الى داخل المطار التركي حين طلعت الشمس، فاطلقنا حوالي عشر دورات من الاطلاقات على مجموعة الادوات الميكانيكية، وربطنا ذيل الماكنة (يقصد بها الطائرة) بسيارتنا المدرعة، واستدرنا عائدين بها الى المعسكر.

امضى لجمن سبع عشرة سنة لكي يحصل على وسام الاستحقاق الممتاز. كنت قبل ذلك الحادث بستة اشهر اجلس معه في احدى الليالي بمنزله في كربلاء حين ابلغني بانه يعتقد انه قد فقد اعصابه «لا استطيع ان اكون متشدداً مع العرب مثلما احتاج الى ان اكون كذلك فاذا لم استطع ان اضغط عليهم بما فيه الكفاية فانهم سوف يقتلوني. غير انني اود ان احصل على وسام الاستحقاق قبل ان يغتالوني!».

كان لجمن يشعر على الدوام بانه سوف يفقد حياته غيلة ان عاجلا ام آجلا ولقد كتب الى اهله يقول لهم «لقد كنت منذ ايام افريقيا الجنوبية آمل ان انال هذا الامتياز. اما الآن فانني استطيع ان اموت وانا سعيدا». في صباح اليوم الثاني من شهر تشرين الثاني (١٩١٨–المترجم) غادر لجمن راكباً سيارته من طراز (دوج» متوجها الى الموصل يحمل رسالة من الجنرال «كاسلز» الى «علي احسان باشا» يطلب فيها اليه بان يسحب قواته من الموصل الى حدود خمسة اميال على الاقل، وان يترك الحرس الكافي فيها لمنع الاخلال بالنظام الى ان تتم نجدة المدينة.

شدد لجمن بكل قواه على آرائه التي ادلى بها الى القائد التركي العام، لكنه ارغم عند الظهر على ان يبلغ مقر القوة البريطانية بان «علي احسان باشا» لن يتخلى عن الموصل، ولكنه يوافق على اخلاء التلال المحيطة بها والتي تسيطر عليها، حيث قال بان في مقدور الجنرال كاسلز ان يحتل تلك التلال اذا مارغب في ذلك. عاد لجمن الى الموصل في صباح اليوم التالي، وجلب (علي احسان باشا) معه للتباحث مع الجنرال كاسلز. وبعد ايام قليلة من المحادثات استسلمت الموصل الى البريطانيين في اليوم السابع من شهر تشرين الثاني

عين لجمن على الفور حاكما عسكريا على مدينة الموصل، وضابطا سياسيا لولاية الموصل برمتها. ولم يضع شيئا من الوقت لكي يتسلم حكم المدينة من القاضي الذي كان يحكمها. يقول السر ارنولد ولسون الذي كان لجمن يعمل في معيته مايلي «بعد ان وقع على احسان باشا على شروط الاستسلام باربع وعشرين ساعة، كانت الاعلام التركية ماتزال ترفرف فوق اية دائرة عامة، وكان الضباط الاتراك مايزالون منهمكين في بيع المخازن العسكرية، والموظفون الاتراك الكبار منهم والصغار يعملون على اخفاء السجلات المدنية التركية او احراقها، في حين كان موظفو

الشرطة المدنية التركية يذكرون بانهم سوف يحركون الفيالق غير النظامية لمقاومة توسيع نفوذنا في الولاية. لم يضع لجمن لحظة واحدة من الوقت لكي يسرع الى اصدار البيانات، واعطاء الاوامر الى الجميع، والى الانذار بان كل من يعثر عليه خارج بيته بعد حلول الظلام سوف تطلق النار عليه عند رؤيته.

وبمساعدة من الضباط الذين اعارهم اليه الجنرال كاسلز، قام لجمن بغارات على بيوت الموظفين الاتراك وعلى دوائرهم ايضاً يضع يده على السجلات، ويعتقل اولئك الذين يشتبه فيهم بانهم من اللصوص والعابثين بالامن ثم قتل افراداً قلائل من الذين ساهموا في اعمال النهب، بينا عين البعض من الوجهاء المحليين، موظفين في الدوائر الرسمية وبمرتبات جيدة، وطلب اليهم بان يوفروا الشرطة المحلية الى ان يتم اتخاذ الاجراءات الدائمة. وكانت نتيجة تلك الاعمال انها كانت مرضية لكل من كان يهمه الامر».

كان لجمن يعرف اولئك الذين يثق بانهم يتعاونون معه باخلاص، ولم تكن احكامه في ذلك خاطئة. ولقد استطاع بعمله المتواصل ان يوطد اسس الرخاء الذي تنعم به مدينة الموصل في الوقت الحاضر [٩] ولقد حظي لجمن حين عين حاكما لمدينة الموصل وللولاية برمتها، بمجموعة نادرة من الضباط السياسيين الذين تعب السر ارنولد ولسون كثيرا في اختيارهم وفي توفيرهم. كان من بينهم الرائد بولارد [١٠] والعميد نادلر [١١] والنقيب براد شاو [١٢] الذي كان يرأس جماعة من الرجال القادرين النشطين. لقد وجد الاتراك ان ادارة ولاية الموصل كانت مهمة شاقة. فعلى الشمال من الموصل وشماليها الشرقي تقع جبال الاكراد، وهم عنصر مشهور بسبب اعمال الاضطراب التي كانوا يقومون بها.

اما الى الجنوب من الموصل والى الغرب منها، فتجوبه «شمر» احدى القبائل البدوية القوية التي لم تكن قبلا تثير حتى القليل من الاضطراب، لكنها تعد من القبائل التي تعتبر السلب امرا مشروعاً!.

والى الشمال من الموصل والشمال الغربي منها تمركزت بقايا الجيش التركي، وهي على الرغم من اعلان الهدنة، ومن انهيار دول الحلف المركزي ما زالت مستعدة لخلق الاضطراب واعادة احتلال الاراضي التي انسحبت منها مؤخرا. ذلك ان الاتراك لم يتركوا اي جهد لجعل السكان

---

(٩) المقصود بعبارة «الوقت الحاضر» وقت تأليف الكتاب

(١٠) RR. W. BULLARD قنصل بريطانيا في تركيا قبل الانقلاب العثماني وبعده ولقد اطلعنا على مذكراته المنشورة قبل عدة سنوات فوجدناه يكشف الحقائق عن مساهمة اليهود في تدبير الانقلاب الذي قام به رجال الاتحاد والترقي في سنة ١٩٠٨ والذي انفضحت حقيقته واضحة فيما بعد

(١١) LIEUT. COLO. L. F. NADLER

(١٢) CAPTAIN J. R. L. BRADSHWE

العرب والاكراد سوية في حالة من الاضطراب. فلقد كان جواسيسهم الذين بعث بهم «حيدر بك» يعملون بكل مهارة من بحيرة وان وينتشرون في كل انحاء الولاية ويهددون اولئك الذين يتعاونون مع البريطانيين، ويعدون بالمكافآت الثمينة اولئك الذين يثورون والامر الذي كان يساعد على نشر هذه الدعاية، يتمثل في عدم وجود حدود ثابتة ومحددة تحديدا دقيقا لولاية الموصل.
وما ان استقرت الامور في مدينة الموصل، حتى ترك لجمن ادارتها في ايدي القديرين من الرجال التابعين له، وعاد يركز اهتمامه على المنطقة كلها. وفي نهاية شهر كانون الاول، كان لجمن قد حقق السيطرة على الولاية، وطلب اعادة كل مقتنياته من الهند، لانه صمم على الاقامة في الموصل لمدة طويلة. فلقد كتب في احدى رسائله يقول «كنت اقوم بقدر من الطيران مؤخرا، ليس لانني احب ذلك، بل لان الضرورة كانت تقضي به. واظن بانني قد قطعت في هذا الطيران مؤخرا الفي ميل. ولقد وجدت بان هذه هي افضل وسيلة لكي اجعل التابعين لامرتي يحافظون على النظام. سافر السر ارنولد الى باريس، واتجرأ فاقول بانكم سوف ترونه في انكلترا. انني لمندهش متى سيجعلون منه ملكا [١٣] انه اعظم رجل يثير الدهشة استعدت كل مقتنياتي من الهند، وكان حوالي النصف منها قد تلف بسبب العث. اثرت البهجة في مطعمنا حين حاولت العودة الى ارتداء جاكيتي الحمراء التي كنت ارتديها في كلية «ساندهرست» غدوت نحيفا نوعا ما في الوقت الحاضر لكن الذي افترضه بانني كنت قبل الحرب اقل وزناً. الجو مدهش وتبدو الموصل مدينة جميلة جدا، فهي تقع على ضفتي نهر دجلة قبالة نينوى. وفي سهل مزروع، ومحاط بحزام من التلال يمتد مسافة اربعين ميلا، تقوم وراءها سلسلة تامة من الجبال المكللة بالثلوج «قبل مدة قصيرة طرت الى حيث تتراكم الثلوج لكي اصحح مواقف احدى القبائل التركية المناوئة. كانت رحلة مدهشة لكنها لم تكن مسرة، لانه اذا ماتعطلت احدى المكائن فلن يستطيع المرء ان يهبط على سطح الارض. لا يتحدث سكان نصف المنطقة التي احكمها باللغة العربية بل باللغة الكردية، وهي لغة غريبة ومن العسير تعلمها».
ومع كل ذلك فقد استطاع لجمن ان يجذب اليه الاكراد، وان يبسط نفوذه عليهم، كما يبدو ذلك من رسالة بعث بها الى مؤلف الكتاب «حمو شيرو» [١٤] رئيس يزيدية جبل سنجار والتي يقول فيها مايلي :- «اتشرف لان اعلن عن فرحتي بفكرة اصدار كتاب عن المرحوم العقيد لجمن وها انني اقدم فيما يلي معلومات موجزة عما رأيته منه واكون مستعدا لان اسجل الملاحظات على

---

(١٣) لم يذكر المؤلف سوى حرف (K) الذي يقصد به ملك وكانت الاشاعات رائجة في ذلك الوقت بان ولسون سوف يعين ملكا على العراق الذي ربط بحكومة الهند
(١٤) اخطأ فكتب الاسم شرّو SHARRO والصواب «شيرو»

العناوين بالشكل الذي تزودني به. كانت الفظائع التي اقترفها الاتراك في جبل سنجار قد بلغت الذروة وكان الجميع يائسين. وقد تحقق امل تحررهم عندما ظهر المرحوم لجمن اشبه بالملاك في ليلة غائمة. لقد اطل علينا اشبه بالبدر التم فبدد العتاة الاتراك بضربة صادقة. كان وقتا عصيباً في حياة الجبل، ولقد اقبل العقيد لجمن في الوقت المناسب لكي ينقذنا من الخراب، وليزف لنا الانباء المفرحة التي جاء بها الاحتلال البريطاني للموصل.

كنت آنذاك في القرية وعلى بعد اربع ساعات عن المدينة حين قدم لجمن. ومع انني كنت منشوقا لرؤيته الا انني لم استطع ان احقق ذلك، لكنه بعث الي بأن التحق به في الموصل. وعلى الرغم من كبر سني فقد رحبت بالدعوة وذهبت اليه مع اتباعي. كنا هناك ضيوفاً عليه وقد اسبغ علينا افضل صفات الكرم. وحين شاهدته لم اتمالك نفسي من الانحناء لكي اقبل بديه، وفي مدى اسبوع عمد الي بحاكمية الجبل، واذ ذاك بدأنا العودة جمعيا. اديت الواجب الذي عهد به الي بالشكل الذي يرضيه ويرضي كل انسان كان العدل والهدوء اللذان لم يعرفها الناس قبلا اثناء الاضطهاد الذي مارسه الاتراك، قد اعاد الثقة فاخذت الامور تسير بسرعة لتمدين الجبل وللمساعدة في تقدمه. ولقد زارني العقيد لجمن عدة مرات. وغالباً ما كان يعرب عن رضاه عن التغييرات البارزة التي تحققت فبدلا من الاضطرابات الدائمة خيم الهدوء والسلام.

لقد كان رحمه الله من المعجبين باليزيديين، شديد الاهتمام برفاهيتهم وليس هناك مايثير اضطرابهم من الخارج لقد اقترح علينا في احدى المرات بان نهاجم احد افخاذ «شمر» كانوا يعيثون فسادا في جوارنا. وما ان سمع بان حملتنا غدت فائقة حتى ركب مع سرية لمساعدتنا وسرعان ماارغمنا المعتدين على الفرار مخلفين وراءهم عددا من الاصابات. فلو لم يحدث ذلك العمل الجريئ من لدنه لكانت حملتنا قد عانت وقتاً عصيباً. ان مثل هذه الخدمة وغيرها من الخدمات العظيمة لشعبنا يمكن تسجيلها بمداد الفخر. سوف تظل ذكراه العزيزه تحيا الى الابد في عقولنا ولن ينساه جبل سنجار لاجيال قادمة رحمه الله.

حمو شيرو
رئيس يزيدية جبل سنجار

كانت الاوضاع التي تسود الموصل قبل ان يعين لجمن لادارتها، ليست لها اية سابقة تماما. وان من المشكوك فيه ان يكون قد استخدم اية طريقة اخرى للسيطرة، غير تلك الطريقة التي كان يستخدمها، ونعني بها الاتصال الشخصي المباشر.

انه لمن المؤسف حقا ان نرى بان حالة عدم الاستقرار في البلاد، قد ارغمت لجمن على انفاق ذلك الوقت الكثير في مقاومة الاضطرابات بقيادته الخاصة. غير انه مالبث فيما بعد ان اساء تقدير الوضع الذي ادى الى مقتل كل من «ولي» ومكدونالد، وتروب، والى ثورة فروع مختلفة من الاكراد، وقد اعترف بخطئه دون ريب. كان «ولي» قد شارك لجمن ثقته في انهما يستطيعان مواجهة اية حالة قد تظهر. ولسوء الحظ فقد كان كلاهما مخطئين، وقد افلت الوضع تماما من ايديهما، وان القوات يجب ان تستدعى لتصحيح الامور.

ومهما يكن فانه لايوجد ادنى شك في ان لجمن كان قد اضطر الى ان ينفق القسم الاعظم من وقته في ان يتعامل بصفة مباشرة مع مختلف الرؤساء، بدلا من ان يسيطر على الامور وهو في مقره في الموصل. فلو انه استطاع ان يفعل ذلك، فلربما كان قد حصل على صورة اوضح للوضع. اما ان يؤثر في الوضع باية طريقة، فان ذلك امر مشكوك فيه.

بقي لجمن يدير ولاية الموصل حتى شهر تشرين الاول سنة ١٩١٩، حين خلفه «بل»(١٥) وهو ضابط من دائرة الهندسة، وذو خبرة واسعة. ولقد اوضح السر ارنولد ولسون سبب هذا التغيير في سجله التاريخي للحوادث التي وقعت خلال السنوات ١٩١٧-١٩٢٠(١٦) على الشكل التالي:-

«لقد كنت احس لبعض الوقت بان اجراء تغيير ما يعتبر امرا ضروريا في معاملة العرب، ولاسيما القبائل البدوية. كان لجمن يحتفظ بصفات لاتبارى في العراق، ولم يتفوق فيها اي ضابط بريطاني في الجزيرة العربية. غير انه لم تكن له مثل تلك الصفات في تعامله مع الاكراد بالشكل الذي حققه «صون»(١٧) الذي لم يكن من اليسير عليه ان يتعامل مع جماعة «اسماعيل»(١٨) فكل واحد كان يمتص بعضا من الكره الاجتماعي لاناس يعرفهم بصفة افضل. ولذلك

---

(١٥) J.H.H. BILL

(١٦) المقصود به كتابه الضخم المعنون «الولاءات وتصادم الولاءات في العراق» والذي لم يترجم منه سوى القسم الاول الذى يتعلق بالاحتلال الانكليزي للعراق

(١٧) المقصود به «الرائد صون» الذي تنكر قبل الحرب العالمية الاولى في صفة درويش وعاش في حلبجة وفي كنف عائلة «الجاف» ثم اصبح الحاكم السياسي البريطاني في السليمانية وقد نشر مذكراته في كتابه الموسوم (رحلة تنكرية في كردستان) ترجمها ونشرها المرحوم فؤاد جميل في جزئين

(١٨) كان بيرسون ضابطا سياسيا في زاخو وكان برتبة نقيب، اما «ولي» وهو برتبة نقيب فقد كان الحاكم السياسي في منطقة العمادية. اما النقيب مكدونالد فكان معاون الحاكم السياسي في العمادية وقد قتل هؤلاء الضباط الثلاثة خلال شهر تموز ١٩١٩ (ملخصة عن كتاب «ثورتنا في شمالي العراق» للمرحوم عبد المنعم الغلامي ج ١ طبعة ١٩٦٦

احسست بالحاجه الماسة جدا الى وجود شخص ما في الموصل، يستطيع ان يكرس المزيد من الاهتمام للجانب الاداري، ويطلعني بصفة جيدة على التطورات... لقد قلقت للنقص الواضح في نفاذ البصيرة الى داخل النفسية الكردية، ذلك النقص الذي تكشف بالاوضاع التي احاطت بمصرع كل من «بيرسون»، و «ولي» و «مكدونالد»[18] انني اشعر بمرارة لمصرعهم، لانني كنت قد عرفت هؤلاء الضباط معرفة جيدة».

ويبدوبان لجمن نفسه لم يكن متأكدا بنفسه انه اهل لان يكون ضابطا سياسيا، منذ ان كتب الي في شهر ايار سنة ١٩١٩ يقول «لست متأكدا بانني امثل ضابطا سياسيا نموذجيا، ذلك لان طرائقي فظة جدا. ومع ذلك فانني احتفظ بطائفة جليلة من الرفاق تحت امرتي». وعلى كل حال فان التغيير لم يجر في سبيل الاحسن، بل انه في الواقع اعطى نتائج مدمرة، لان واحدا من الاعمال التي قام بها «بل»[19] قبل ان يتولى ولاية الموصل، انه فرض غرامة على اثنين من رؤساء الزيباريين الذين استشاطوا غيظا من معاملته لهم، فاردوه قتيلا في اليوم الاول من شهر تشرين الثاني، واثاروا العصيان الذي تطلب ارسال رتل تأديبي لمقاومة ذلك العصيان. وفي نهاية العمليات كان قد تقرر عدم القيام بمحاولة اخرى للاستيلاء على اقليم الزيباريين

قد يبدو فيما بعد بانه كانت امام لجمن فرصة لان ينجح فيما اخفق الآخرون فيه، على الرغم من الانتصارات البريطانية. والواقع ان قرار التخلي عن ذلك الجزء من البلاد، قد يبرهن على ان من المستحيل الاحتفاظ بالسيطرة من دون مساعدة القوات المسلحة. ذلك لان توفير هذه القوات لايعود الى التزامات في مناطق اخرى. فلقد وقع الخطا في البداية حين تم الاستيلاء على البلاد من دون اهتمام كاف بمدى تلك المغامرة.

في اوائل الصيف توجه لجمن في اجازة الى انكلترا، يصحبه خادمه المخلص له (حسن). لم يكن يستحق اجازة، لكنه كان مريضا ومتعبا. وفي اوائل الخريف دخل مستشفى «الاخت اغنيس»[20] حيث اجريت له هناك عملية الزائدة الدودية. كان متوعك الصحة جدا، ليس لانه كان يفكر في العملية ذاتها، بل لانها كانت تجمد مرحه، وتحول دون قيامه باعمال القنص، الامر الذي كان يمثل اعظم خيبة امل له اكثر من كل شيء

ولقد قمت بزيارته خلال نقاهته، فانبأني بان الناشرين الخاصين به كانوا يضغطون عليه بان يدون قصة مغامراته. ولقد سألني عن رأيي في ذلك، فتوسلت اليه بان يفعل هذا، وقلت له بانه

---

(١٩) هو العقيد «بل» الذي مرت الاشارة اليه قبلا، والذي عينه ولسون حاكما على ولاية الموصل بدلا من لجمن. وما ان تسلم «بل» ادارة الموصل حتى ذهب الى المناطق الشمالية ومنها الزيباريين التي فرض على رؤسائها تقديم كفالات نقدية باهضة. وتسليم ماالديهم من اسلحة الامر الذي وحد الزيباريين والبرزانيين على اشعال نيران الثورة والفتك بالانكليز فيها وفي مقدمتهم «بل» وجماعته حيث تم ذلك على مقربة من شاطيء الزاب الكبير

(٢٠) SISTER AGNES

مدين بهذا الى رجال بلاده بصفة واجب، لكنه مالبث في النهاية ان رفض ذلك على اساس بانه قد لايستطيع ان يتحمل مايجره مثل هذا النشر عليه.

وهكذا غادر لجمن انكلترا في اواسط شهر كانون الاول سنة ١٩١٩، حيث اخذ سيارة معه كان يعتزم ان يسافر بها من ميناء «الهافر» الى بغداد

وفي اليوم السادس من شهر كانون الثاني (١٩٢٠ - المترجم» كتب من ميناء نابلي بفرنسا، يصف مروره عبر اوربا، «حيث رافقته جماعة متميزة في ذات القارب الذي عبر به القنال الانكليزي، كان من بينهم ونستون تشرتشل، والسر هنري ولسون واللورد بيتي[٢١] وفي باكر الصباح بدوا جميعا في ميناء «الهافر» تماما اشبه بجماعة كانت تسافر في الدرجة الثالثة».

ولقد تمت الرحلة التي قطع فيها الفا واربعمائة وخمسين ميلا من دون ان يقع اي حادث خاص للسيارة «المباركة وبشكل جميل» ثم غادر «نابلي» في اليوم الثامن والعشرين من الشهر في زورق، فوصل الاسكندرية في اليوم الثاني من شهر شباط، وفي اوائل اذار كان في بغداد.

---

(٢١) LORD BEATTY

«الفصل السادس عشر»

اسباب الثورة العراقية الكبرى

لغرض ان ندرس الحوادث التي سوف يكون لجمن مرتبطاً بها، ولكن نقيمّ الدور الذي لعبه في هذه الحوادث، من اللازم علينا ان نعطي تأريخا موجزا للحوادث التي ادت الى الوضع الذي وجده لجمن ، حين عاد الى الخدمة في العراق في بداية سنة ١٩٢٠ ، وبناء على طلب من السرارنولد ولسون نفسه

فحتى شهر تشرين الاول سنة ١٩١٨، وحين وقعت الهدنة مع تركيا، كان لدى ولسون وكل ضباطه لان يكتفوا بنتائج اعمالهم. فلقد استطاعوا خارج الفوضى التي اوجدتها الحرب ، ان ينشئوا حكومة منتظمة، كسبوا بها ثقة كل طبقات المجتمع واحترامه، لا يستثنى من ذلك حتى شيوخ العشائر المتطرفة، والتي لايمكن اخضاعها عادة.

في هذه السنة التي شهدت الانتصار الجماعي لقضية الحلفاء، بدأ الاحساس بالشكوك، بالنسبة الى ما يخبؤه المستقبل. وفي خلال سنتين تفاقمت هذه الشكوك التي اثارها المحرضون والمتطرفون، الى درجة ان الفوضى واهراق الدماء كانت قد شملت كل انحاء البلاد.

لم تكن لدى اي من الذين ارتبطوا بشؤون العراق، اية شكوك بالنسبة الى نية بريطانية في انشاء دولة عربية مستقلة[1] غير ان الشكل الحقيقي الذي سوف تأخذه حكومة البلاد المتوقعة لم يتأكد بعد. ومهما يكن الشكل الذي سوف تأخذه الحكومة، فان بريطانيا ستكون هي المرشد لهذه الدولة الفتية، وتأخذ بيدها الى النضج. وعلى اية حال فانه بتوقيع الهدنة مع تركيا، بدأت القلاقل بالظهور. اما الحكومة البريطانية ذاتها، فقد بدا عليها بانها لم تكن قادرة على توضيح الحالة

---

(١) لا نوافق المؤلف بتاتاً على هذا الرأي المبتسرو المخالف للواقع . فلم تكن لدى بريطانيا اية نية لمنح اي جزء من البلاد التي احتلتها من الامبراطورية العثمانية من الحرية والاستقلال كما زعمت وتظاهرت بذلك قبلا ، وخدعت كل العاملين في حقل القومية العربية ابتداءا من المرحوم الشريف حسين وانتهاء بولديه فيصل وعبدالله وبقية الرجال المخلصين الذين عملوا معهم في العراق او الحجاز او الاردن

لقد وصف ارنولدولسون تلك الحالة على الشكل التالي فقال «لم تحدث في اي وقت خلال السنة اية شكوك في اذهاننا بالنسبة الى نوايانا المقبلة في العراق. لقد اذيعت نقاط الرئيس ودروولسون الاربع عشرة المقبلة عشرة على العالم في اليوم الثامن من شهر كانون الثاني سنة ١٩١٨. وكانت النقطة الثالثة عشرة من تلك النقاط تصرح «بان القوميات التي تخضع الان لحكم الاتراك، ينبغي ان يضمن لها الضمان المؤكد للحياة، والفرصة غير المقيدة اطلاقاً، لتحقيق التطور الذاتي المستقل»

لقد قرئ هذا البيان، بالارتباط مع البيانات التي ادلى بها المتحدثون من البلدان المتحالفة، والقائلة بان اهداف الحرب للدول الحليفة لن تشتمل على اية رغبة في ضم اي بلد يعود الى تركيا. فكان هذا البيان يبدو في نظري بانه لايتلاءم مع البيانات السابقة، ولامع مثل هذه الاشارة الى السياسة بالشكل الذي وصلت به الى السربرسي كوكس، والي انا، كما ورد في اتفاق سايكس بيكو مثلا.

«في لحظة متهورة كنت قد سألت في برقية عن الاهمية التي كانت تعلق – ان وجدت – على الوصايا الاثنى عشرة كما سألت عما سيكون عليه موقف الحكومة اذا لم تكن القوميات المشار اليها، ترغب في الحكم الذاتي تحت السيادة التركية. فلقد سبق لي ان اشرت في جواب الى التعليمات التي اعطيت في شهر اب سنة ١٩١٧، والقائلة بانه «لن تثار اسئلة كبرى او متناقضة». ولذلك فلم اتشجع على اتخاذ خطوات اخرى الابعد الهدنة، للسؤال من مكتب الهند عن رايه في المستقبل الذي يفكر فيه. لقد افترضت، وربما كان ذلك مصيبا بانه اذا كان وسطاء الوحي[٢] من البكم. فان السبب في ذلك يعود الى ان شكوكهم كانت اوسع من شكوكنا نحن. كان واجبنا بالنسبة الى الرجال المسكين بزمام الامور، قد بدا واضحا وهو ان نمضي قدماً الى افضل مالدينا من مقدرة، وان نعيد من حكام الحرب تكوين ادارة مدنية كاملة تفي بحاجات العراق. فمتى جاء السلام يكون في مقدور العراقيين ان يفتشوا من دون عبث، لكي يترسموا الطريق نحو مصير ملائم لهم».

هذه الكلمات السخية التي ختم بها هذا القول المقتبس، قد تستخدم بمثابة شاهد مناسب يوضع على قبور اولئك الضباط البريطانيين الذين هلكوا خلال الثورة في العراق، والذين كان الكثيرون منهم قد قتلوا خطأ. فمثل هذه الكلمات سوف تنهال من لدن اولئك الذين قادهم مصيرهم الى التعاون مع القوات الشريفية في جبهة فلسطين، حيث كان البعض منهم قد اعتبروا واجبهم مغايراً الى مدى بعيد

كان جميع هؤلاء البريطانيين يجهلون الاوضاع السائدة في العراق، ومع ذلك فانهم لن

(٢) Oracle الوسيط الذي ينقل الوحي من الاله الى البشر، عند الاغريق. والمقصود بذلك الذين يدلون بارائهم كيفما اتفق حول مصير الشعوب المتأوبة.

يتوانوا في ان يصرحوا بارائهم بالنسبة الى حماية الفكرة التي تقول بانشاء ادارة مدنية في تلك البلاد، وتشجيع ضباط «فيصل» على معالجتها. فلقد حمل تحمس هؤلاء الضباط للقضية العربية على الاعتقاد بان هذه القضية قد انتصرت في سوريا، الى درجة انهم نسوا اوتجاهلوا حقيقة ان ذلك الانتصار ماكان له ان يتم من دون مشاركة القوات الامبراطورية وراحوا يتصورون بان الفرنسيين سوف يتخلون عن ادعائهم بالسيطرة على سوريا

لقد بدأت الثورة في العراق، كما ذكرنا، بالتوقيع على الهدنة مع تركيا في اليوم الثلاثين من شهر تشرين الاول سنة ١٩١٨، ولقد اوجدت عبارات معاهدة الهدنة ذاتها، سوء فهم حول الموضوع: ذلك ان عبارات معاهدة الهدنة جاءت مفككة غير مترابطة. واكثر من هذا ان الاتراك لم يجدوا اية مشقة في تفسير الشروط التي وضعت بطريقة مغايرة كليا لتلك الشروط التي ارادها البريطانيون الذين وقعوا على معاهدة الهدنة تلك.

كانت نتيجة ذلك هو ان بقي شك خطير حول الطريقة التي ستكون عليها الامور، وعلى الاخص بالنسبة الى مدى الاقاليم التي سوف تتخلى عنها القوات التركية

واكثر من هذا فانه الى ان ترسم معاهدة الصلح النهائية وبشكل محدد، صفة الاقاليم التي سوف تتخلى تركيا عنها، والى ان يتأخر التوقيع طويلا على المعاهدة، فان هذه الحالة كانت تنطبق بصفة خاصة على ولاية الموصل. وقد يقال في الواقع على الفور، بان الحدود التامة لتلك الولاية، لم يتم الاتفاق عليها نهائيا، الابعد إن حددت من قبل لجنة الحدود التي بعثت بها عصبة الامم في سنة ١٩٢٤

كان هذا التأخير الذي اعاق اقامة ادارة مدنية في مناطق مشكوك في مستقبلها، قد ساعد الدعاية التركية على تركيز الاعتقاد بان تركيا سوف تعود الى اعادة احتلال تلك الاقاليم التي اجبرت على ان تتخلى عنها موقتاً.

لم يحسب اي حساب يتعلق بخلق جو من الشك وعدم الاستقرار، في اذهان فريق كبير ذي تأثير من سكان العراق اكثر من هذا المقترح الذي جاء به الغرب. فلقد خشي فريق كبير من الاهلين ان يعربوا عن انفسهم بانهم اصدقاء للبريطانيين. ذلك لانه اذا ما عاد الاتراك فلسوف ينتقمون من ذلك الفريق بانفسهم واموالهم حسب الطرق المعتادة. على ان الخطر الذي كان يهدد العراق من الغرب كانت له طبيعته الايجابية الاوسع

في الوقت الذي تزامن فيه التوقيع على معاهدة الهدنة مع تركيا، كانت دمشق قد توجت «فيصل» على عرشها، وقد حددت حدود مملكته من ناحية الشرق بصفة خاطئة، مثلما حدث

بالنسبة الى حدود ولاية الموصل ذاتها[٣] ولذلك ادعى القوميون المتطرفون [٤] بان دير الزور تعتبر جزءا من سوريا. ولسوف تكون هذه المناورة اكثر وضوحا حينما يتم الكشف عن الاهداف الحقيقية التي كانت تدور في اذهان هؤلاء القوميين المتطرفين

تقع دير الزور على نهر الفرات، وتبعد مسافة نحو اربعمائة ميل عن بغداد، ولم تكن السلطات العسكرية ولا المدنية في العراق، راغبة في ان توسع نطاق مسؤولياتها الى مدى بعيد. غير انه بدا امرا محفوفا بالخطر، ان يتم التخلي عن نوع من الاراضي القائمة بين العراق وسوريا والتي لا يسكنها احد من الناس، والتي كانت في وضع يجعل من اليسير وصول الاتراك اليها

وفي نهاية شهر تشرين الثاني (١٩١٨-المترجم)تذمر سكان مدينة دير الزور من ارسال ضابط بريطاني من بغداد الى دير الزور ذاتها بقصد صيانة الامن والقانون فيها. وبعد ان احيل الامر الى الحكومة البريطانية تم ارسال ضابط بريطاني هو النقيب«كارفر» الى هناك في اليوم الثالث عشر من شهر كانون الاول. وما ان وصل هذا الضابط الى«البوكمال» حتى علم لدهشته بان نائب المحافظ (في دير الزور- المترجم)مع موظفين خاضعين له، وحوالي اربعين من رجال الجندرمة، قد وصلوا الى المدينة، حيث تم ارسالهم الى هناك من قبل متطرفين في سوريا، والذين صدرت اليهم التعليمات في ذات الوقت بان يحتلوا مدينة«عانة» الواقعة في الاراضي العراقية.

وفي الوقت ذاته تم ارسال احد المحافظين العرب الى دير الزور، تحت ذات العذر، فسارع هذا في تعيين عددمن الموظفين العرب، وتجنيد بعض رجال الجندرمة، وبمرتبات تتجاوز ما كان يدفع لامثالهم في العراق. وهكذا كانت الاموال التي تدفع الى«فيصل» من الخزانة البريطانية، كان يصرف قسم منها لارشاء سكان دير الزور، ولخلق التذمر بين الموظفين التابعين للخدمة البريطانية في اقسام اخرى.

كان الارتباك الذي نجم عن هذا القلق المزدوج في الموصل وفي دير الزور، مما يمكن تصوره بصفة جيدة. ففي خلال سنتين كاملتين كان ارنولد ولسون سيئ الحظ يحاول ان يعالج الوضع الذي كان ينذر بالاخطار، لكنه لم يستطع السيطرة عليه، وكان مصير القطر وحتى حدوده، تقع خارج

---

(٣) اشتط القوميون السوريون، منذ ان بان انتصار الثورة العربية خلال الحرب الاولى، في نظرتهم الاقليمية، فاصروا على ان تكون محافظة دير الزور داخل الحدود السورية، اي اقتطاعها من الاراضي العراقية، ولقد تمسكت الدوائر الاستعمار الفرنسية بهذه النظرة ذاتها، وهكذا ضاعت محافظة دير الزور من العراق منذ ذلك الوقت وحتى الان

(٤) نود ان ينتبه القارئ الى ان المقصود بـ(القوميين المتطرفين) هنا هم الاقليميون السوريون وليس غيرهم. على اننا نعتقد بان العراقيين الذين عملوا مع حكومة فيصل في سوريا قد شاركواهم الاخرون في عملية اقتطاع محافظة دير الزور من العراق

سلطته القضائية. ولقد اشار العلامة «تمبرلي» في كتابه «تأريخ موتمر الصلح في باريس» [٥] يقول«مع بدء المفاوضات لوضع معاهدة الصلح، لم تعد قضية العراق قضية ادارية، بل غدت قضية سياسية عالمية واسعة»

وبعبارة اخرى فان القضية ذات الاهمية البالغة بالنسبة الى مستقبل العراق، سوف يتم تقريرها في باريس وليس في بغداد او لندن. في اليوم الثامن من شهر تشرين الثامن سنة ١٩١٨ نشر بيان في آن واحد في كل من باريس، ولندن، ونيويورك، والقاهرة يعد السكان (الطبيعيين في العراق وسوريا، بانشاء حكومات وطنية يتم اختيارها وفقاً لارادتهم الحرة. وقد اعتبر هذا البيان بمثابة الغاء لاتفاق(سايكس -بيكو)الذي قسم ممتلكات تركيا بصفة حيوية بين فرنسا وروسيا وانكلترا، بالمطابقة مع بيان الجنرال(مود) الذي صدر عند الاستيلاء على بغداد، وبالانسجام مع السياسة العامة لبريطانيا.

ومع ذلك فان الغموض الذي اكتنف بيان اليوم الثامن من شهر تشرين الثاني، كان يمثل خطراً بالنسبة الى وضع كان مفرحا قبلا. ذلك لان جميع الفرقاء المهتمين راحوا يفسرونه بطريقة ملائمة اكثر تطابقاً لمطامحهم الخاصة. لقد وجد سكان العراق الان انفسهم في وضع لا يحسدون عليه كثيرا. ذلك ان الادارة المدنية التي كانوا يتطلعون الى توجيهاتها، اصبحت في ورطة سيئة، لانه كان ينبغي الاحتفاظ بسلطة لا انتداب فيها بصفة جلية. فلقد كان الضباط السياسيون مرتبكين بشان الاحتفاظ بسكوت غير جلي، اواعطاء جواب مبهم بالنسبة الى القضايا المثيرة.

اما في خارج العراق فان مختلف الاطراف راحت تبحث مستقبل البلاد، وتستعرض هذا الامر عن طريق مرئيات الظلال المختلفة. في مؤتمر الصلح في باريس، وفي وزارة الخارجية البريطانية، ودائرة الهند في لندن، وفي المكتب العربي في القاهرة، كانت اراء رجال السلطة المؤلفة بصفة ذاتية حول الشؤون العربية، قد تم الاعراب عنها، حيث اختلفت تلك الاراء حول كل قضية مهمة، وراحت تمثل جهلا مطبقاً بشأن الاوضاع المحلية.

وحتى الى اواخر سنة ١٩٢٠ كان لورنس: قد كتب في صحيفة« الاوبزرفر» «يقول» انها ستكون لعبة طفل بالنسبة الى رجل لائق لأن يحكم العراق طويلا مثلما كان يديره، وذلك شبيها بمصر في عهد «كرومر» وليس مثل مصر في عهد الحماية. ومما يضيف، زيادة الى الحقيقة القائمة، هو ان الكاتب كان يجهل، بشكل مخيف، القسم الاكبر من الجزيرة العربية. ذلك لان المرء قد يتصور بانه يدرك حقا، حقيقة ذات شاهد ذاتي تقول بان لدى العراق مشاكل ينبغي حلها، من امثال مشاكل السكان والاديان والاقاليم والدفاع، والتي كانت ذات تعقيد لا مجال الى حله، وكانت تتطلب دراية مرهفة»

---

(٥) H. W .V. Temprley The History of peace Conference

ولقد كان من سوء الحظ ان القضايا العربية كان يحكم عليها بصفة عامة، حسب المستويات الشريفية. وفي الوقت الذي كانت فيه هذه الامور تؤثر في رخاء العراق، فانه كان يجري بحثها بهذه الطريقة المربكة المتهمة.

كانت حكومة فيصل تمارس عملها في سوريا وفقاً لسلطتها التي اسست بشكل غريب تماما، في حين لم تكن لدى احد من الجرأة ما يستطيع ان يفسر به الامور. لقد سبق للورنس ان ابلغنا بانه كان هوا الرأس الواقعي لهذه الحكومة: ترى من الذي كان قد عينه لذلك؟

كان هناك عدد من الضباط البريطانيين يعملون في صفة مستشارين، وكانو يدافعون عن فكرة اقامة حكومة مماثلة في العراق. وكانت الخزانة البريطانية تساهم بمبالغ هائلة الى امين خزانة حكومة فيصل، حيث استعملت مبالغ كبيرة لاثارة الثورة في العراق، وارسلت الالوف من قطع السلاح لتسليح افراد العشائر هناك.

كانت الاسلحة والذخيرة ما يزال يجرى تقديمها الى الحكومة السورية بكميات هائلة. وعلى هذا فلا يمكن تبرئة الضباط البريطانيين الذين اشتركوا مع فيصل، من جزء من اللوم الذي يجب ان يقع على عاتق اولئك الذين سببوا مثل هذه المعاناة، وسفك الدماء، وكلاهما غير ضروريين في العراق، ذلك لان الثورة في العراق كانت تعود، بصفة رئيسة، الى ضباط فيصل وفعالياتهم [٦]

واخيرا، واذ حل شهر ايار سنة ١٩٢٠، تلقى انصار فيصل، اوخيل اليهم بانهم قد تلقوا بصفة ضمنية أو غير ضمنية، تشجيعا، لكي يؤكدوا سلطتهم على قيام دولة عربية مستقلة في سوريا، وليقاوموا سلطة فرنسا بصفة دولة منتدبة على تلك البلاد. ونتساءل مرة اخرى: ترى من هو الذي شجع هؤلاء على مثل هذا المفهوم الخطير؟

كان كثيرون من ضباط فيصل من اصل عراقي، ولذلك رأوا بانه لايوجد اي سبب لارضاء المطامح العربية بشكل واضح في سوريا، في حين يتم انكار تلك المطامح في العراق!.[٧]

وفي اليوم الاول من شهر ايار سنة ١٩٢٠، وفي مؤتمر «سان ريمو» قبلت بريطانيا بالانتداب على العراق. ومع انها وفقا لشروط الانتداب، قد اعلنت عن نيتها الثابتة في ان توطد في العراق اقامة ادارة تقوم على اساس المؤسسة التمثيلية الخالصة الا ان من عرفوا بالوطنيين العاملين في

---

(٦) هذا اعتراف صحيح وخطير فالثورة العراقية الكبرى في سنة ١٩٢٠ كانت من اعداد الضباط العراقيين الذين عملوا مع فيصل في سوريا، وفي مقدمتهم ياسين الهاشمي ومولود مخلص، وجعفر العسكري، ونوري سعيد، وجميل المدفعي، وعلي جودت الايوبي وغيرهم من كبار الضباط والساسة العراقيين الذين يرجع الفضل اليهم في انجاح الثورة العربية الكبرى في الحجاز وفلسطين وسوريا، وفي اقامة حكومة فيصل في سوريا

(٧) لاحظنا بمزيد من الاسى والاسف ان بعض الشخصيات السورية قد احست بالغيرة والحسد من المنزلة التي احتلها الضباط العراقيون في حكومة فيصل في سوريا ونشاطهم الفعال في ايقاد نيران الثورة في العراق. ولذلك شرع امثال هؤلاء السوريون يكيدون حتى لحكومة فيصل في دمشق ودفعتهم مطامعهم الرخيصة حتى الى التعاون مع الجهات التي كانت تقاوم تلك الحكومة. ولا نريد هنا ان نطرح الوقائع الثابتة عن هذا الموقف الشائن!.

خدمة فيصل، والذين كانوا يديرون الثورة في العراق لمدة حوالي سنة، كانوا قد اعتبروا، او هكذا زعموا، بان الاماني العربية لن ترضى بشيء يقل عن الاستقلال التام والناجز. ولذلك راحوا يدافعون بعنف عن رفض تلك الادارة، وان الغالبية العظمى من الرأي العام العراقي لم تعرب عن تأييدها ليد بريطانيا المرشدة في المراحل الاولى من مصير العراق.

يبدو لاول مرة بان تضارب الرأي لدى العرب انفسهم، لايمكن تسويته لاول وهلة، الى ان نصل الى التحري عن اولئك المتطرفين حين يكون التوضيح مشهوداً على الفور. كان واحدا من اشهر هؤلاء المتطرفين هو ياسين باشا[٨] الذي تم اسره عند سقوط دمشق والذي استبدل مركزه الرفيع في الجيش التركي بمنصب رئيس اركان جيش فيصل. اما الآخر فهو «رمضان شلاش» وهو في الاصل «مختار»[٩] لاحدى العشائر العربية المجاورة لدير الزور. اما الثالث فهو مولود مخلص باشا[١٠] الذي كان قبلا يقود احد الفرق التركية في دمشق.

اما الوكلاء الشريفيون الذين وصلوا الى دير الزور، وقتلوا النقيب ستيوارت[١١] ورئيسي العرفاء «لولر»[١٢] و«ووكر»[١٣] فانهم كانوا من الضباط السابقين في الجيش التركي، وكانوا قبل سنتين، مستخدمين في حكومة فيصل في دمشق[١٤]. وبعبارة اخرى ان رؤساء دعاة القومية العربية في العراق كانوا مستخدمين لدى فيصل، وكانوا من الرجال الذين تفجرت وطنيتهم باللهب، وقد شجعوا من قبل مستشاريهم البريطانيين[١٥] على تأسيس مملكة مستقلة في العراق يعلن عبد الله، شقيق فيصل، ملكا عليها[١٦] اصبح الغرض الحقيقي لهؤلاء المحرضين على الثورة في العراق، واضحا الآن، فهم بوجودهم ضمن منطقة دير الزور في الاراضي السورية، قد حصلوا على مكان متقدم ليستطيعون منه الاتصال بالمشايعين لهم في العراق، ومع العشائر التي كانوا يأملون ان يحرضوها على الثورة ماداموا في حماية حكومة فيصل في دمشق، كما انهم قد

---

(٨) السر ارنولدولسون في كتابه (العراق ١٩١٧ - ١٩٢٠ ص ٢٢٨).

(٩) كتب كلمة مختار باللفظ العربيMUKHTAR

(١٠) اخطأ المؤلف فكتب الاسم خلفKHALAF

(١١) STUART

(١٢) LOWLOR

(١٣) WALKER

(١٤) يقصد المؤلف بذلك الضباط والرجال الذين خدموا حكومة فيصل من سوريا من السوريين وغيرهم.

(١٥) لا تريد ان يفهم القارىء من هذه العبارة بأن المستشارين الانكليز هم الذين شجعوا العراقيين على الثورة، وانما كانت الاعمال التعسفية، والظلم الذي انزله اولئك المستشارون بالشعب العراقي، هو الذي حرك العراقيين الى الثورة.

(١٦) كان المؤتمر السوري العام الذي انعقد بدمشق في يوم الاحد السابع من آذار ١٩٢٠ قد قرر بالاجماع المطالبة بتأسيس حكومة عربية في العراق يرأسها الامير عبد الله بن الحسين، واختيار الامير فيصل على سوريا (امين العمري: مقدرات العراق السياسية ج ٣ ص ١٩٤).

تصوروا بان يكونوا في مأمن من الهجوم الذي تقوم به السلطات العسكرية البريطانية في العراق.

ومن هذه القاعدة المضمونة يستطيعون ان يؤلفوا قوة مسلحة لمساندة عملياتهم، وبالمال والسلاح الذي كانت بريطانيا تمدهم به من دون تأخير[١٧]. وسرعان ماوطدوا صلاتهم بالعناصر التي كانوا يعرفون بانها سوف تعارض السيطرة البريطانية في العراق، من امثال المجتهدين في كربلاء، والنجف، والكاظمية، الذين كان لهم نفوذهم الواسع بين الشيعة، والذين كانوا يخشون قيام اية صفة لحكومة دستورية، قد توقف عند الضرورة قسوتهم الفظيعة.

اما الفريق المؤيد للاتراك، والذين تشجعت آمالهم بالدعاية التركية المحمولة بشكل مكثف، فانهم كانوا على استعداد لان يتعاونوا في اية مغامرة من شأنها ان تربك البريطانيين. اما شيوخ العشائر الذين حظرت عليهم اعمال السلب والنهب، فقد كان من اليسير اقناعهم بان سلطتهم التامة سوف تعود اليهم[١٨]

في شباط ١٩١٩ كانت دعاية هؤلاء المتطرفين قد اكتسحت العراق كله بسرعة، حيث اقيم تحالف بين الشيعة والسنة ذلك لانه تحقق لدى الوطنيين بان في مقدورهم ان يمثلوا شعب العراق في صفة «وحدة اسلامية»، ووجدوا حلفاء اشداء في رجال الدين الذين كانت مجادلاتهم مقبولة لدى الامة، واثارة التطرف الديني في اخطر صفة ممكنة.[١٩]

وبناء على احتجاج بريطاني شديد قدم الى حكومة فيصل، انسحب المحرضون موقتا من دير الزور لكي يعاودو الكرة ثانية في اليوم الحادي عشر من شهر كانون الثاني، حين اقدم «رمضان شلاش» على اثارة العشائر على القيام بالثورة، ولذلك اقدم هؤلاء على دخول مدينة دير الزور من الجنوب وقاموا باعمال السلب والنهب المنكرة فيها. وفي اواسط شهر كانون الثاني سنة ١٩١٩ منع هؤلاء العشائريون من قبل ضباط فيصل الذين بعث بهم الى هناك، ولكن رمضان شلاش لم ينسحب من المدينة قبل ان يهاجم بلدة «البوكمال» باسناد من العشائر الذين نهبوا بيوت العرب

---

(١٧) الذي نعتقده ونستطيع ان نوثقه هو ان الانكليز واصلوا امداد حكومة فيصل في دمشق بالمال والسلاح ليس لتوطيد الامن وانما لغرض مضايقة الفرنسيين الذين منح لهم حق الانتداب على سوريا فقد كانت بريطانيا قد خططت من الاساس اخراج حليفتها فرنسا من سوريا ان عاجلا ام اجلا الى ان تسنى لها ذلك في صيف سنة ١٩٤١ بعد القضاء على ثورة ايار ١٩٤١ في العراق وهجوم هتلر على الاتحاد السوفياتي، حيث اقتحمت القوات البريطانية من العراق سوريا فاحتلتها وطردت منها حكومة «فيشي» الفرنسية الخاضعة للالمان المحتلين.

(١٨) لقد تحقق هذا فعلا حيث اخذ عدد رؤساء العشائر في البرلمان وفي الوزارات التي ألفت في العراق يزداد يوما بعد يوم.

(١٩) ان الخلافات التي كانت تنشأ قبلا بين السنة والشيعة، كانت تحدث بفعل بعض رجال الدين، او ادعيائه الذين يصطادون في الماء العكر لمكاسب ذاتية رخيصة، غير ان الروح الوطنية المتأصلة في نفوس العراقيين كانت هي التي تبرز نقية خالصة في ايام الشدائد والملمات. فمثلما برزت تلك الروح باجلى مظاهرها الحميدة والقوية اثناء ثورة العشرين، فانها قد تركزت مرة اخرى في وثبة كانون الثاني سنة ١٩٤٨ ضد معاهدة بورتسموث التي عقدها عميل الانكليز وربيبهم صالح جبر، فأدى ذلك التمازج الروحي الوطني بين مختلف الطوائف في العراق الى اسقاط تلك المعاهدة الغاشمة بضحايا الابطال التي اهرقت دماؤهم على ايدي حكومة صالح جبر، وقبرتها ومن ايدوها الى الابد بثورة الرابع عشر من تموز الخالدة في سنة ١٩٥٨.

العاملين في الخدمة البريطانية، واعتدوا على نسائهم، وكانوا يأملون بهذه الوسائل الوحشية ان يرهبوا اولئك العرب الذين كانوا يساعدون البريطانيين في ادارة البلاد

ولم تتحسن الامور حتى بعد ان استبدل رمضان شلاش بمولود باشا مخلص[٢٠] الذي بدأ على الفور بحملة دعائية اشد عداوة مما سبق. ذلك ان رسائل مولود قد وصلت حتى الى العشائر التي كانت تقطن الى ابعد من العمارة كثيرا وكان قد وزعها على الشيوخ الذين ظن بانهم كانوا على اتم استعداد لاثارة الثورة.

وما ان تم ارسال مولود مخلص رسميا من قبل حكومة فيصل الى دير الزور، حتى غدا واضحا، على الرغم من الانكار المتكرر من لدن فيصل نفسه، بان التحريض على الثورة في العراق كان يجري برضا تام من لدن الحكومة السورية. ولقد اصاب هذا الاعتقاد تأكيدا اخر من الحقيقة القائمة وهي : ان الحكومة البريطانية حين قامت بتوجيه تعنيفات الى فيصل مصحوبة بتهديد منها بقطع الاموال التي كانت تدفع اليه، كان نشاط مولود باشا قد ازداد عنفا[٢١] واذ تولى ضباط عرب قيادة افراد العشائر الذين زعم بان مولود باشا غير قادر على كبح جماحهم، فان رجال العشائر هؤلاء اقدموا على مهاجمة (البوكمال) في شهر شباط، وشنوا غارات على خطوط المواصلات البريطانية. ولقد ضاعف مولود باشا من نشر الدعاية المتطرفة في المراكز الدينية، وسمح لرمضان شلاش بالعودة، وعلى هذا لم يكن من المدهش كثير ان يغدو العراق في غمار ثورة عارمة

* * *

وصل لجمن الى بغداد في اوائل شهر اذار سنة ١٩٢٠، وتم اعلامه تماما بالوضع الذي اتينا على وصفه. لكنه قبل ان يغادر الى انكلترا، كان يدرك خطورة الحالة. فحين تلقى الدعوة للعودة الى العراق لم يتردد لحظة واحدة في تقبلها. غير انه كان يعرف بانه ذاهب الى حتفه. فلقد قال «كنت احس على وجه التأكيد بانهم سوف يصطادونني!».

وحين كنت اتوسل اليه بان لا يعرض نفسه للموت مرة اخرى، كان يرد علي قائلا «اه! لكنك ترى انهم يحتاجون الي!»..

---

(٢٠) اخطأ المؤلف فكتب كلمة «مخلص» بأسم «خلف» ظنا منه انه اسم والد مولود او جده.

(٢١) المصدر السابق ص ٢٣٦.

«الفصل السابع عشر»

الثورة تعم العراق

(اذار - آب ١٩٢٠)

كان لجمن قد عاد الى العراق في اوائل شهر آذار سنة ١٩٢٠ وقد قتل في اليوم الثاني عشر من آب من تلك السنة. ولما كانت سجلاتنا عن تلك الفترة التي امتدت خمسة اشهر ضعيفة فان اهمية تلك السجلات لا تغني في شيء. كان العمل الذي ناء به لجمن خلال هذه الفترة يكفي لان يضعه في مصاف الابطال. فلقد صمد وسط بحر متلاطم من النيران واهراق الدماء اشبه بعمود من الصخر الذي لا يلين.

وعلى الرغم من القسوة التي كان يستخدمها فان ماكانت له من الهيبة لم يصمد طويلا لانه - كما كتبت عنه (المس غرتروو بل) «كان له تعاون قلبي مع الشيوخ البارزين وانهم حتى اذا ماجفلوا نوعا مانحت «يده القوية»» فان الحقيقة الباقية هي ان كلمته كانت مسموعة!

حين وصل لجمن الى بغداد في اوائل سنة ١٩٢٠ كان فيصل آنذاك قد تم اعلانه ملكا على سوريا، وكانت جمعية وطنية مؤلفة من عراقيين اصلا قد اعلنت اخاه [1] ملكا على العراق. كانت الدعاية الشريفية قد انتشرت على امتداد نهر الفرات وقام رؤساء الدين في كربلاء والنجف بتأجيج جذوات نيران التطرف، وتحويلها الى فرن من النيران في المدن وبين العشائر المجاورة. لم تكن القوات المودعة تحت تصرف العسكريين كافيه لمعالجة الحالة بشكل تام، وتلك حقيقة كانت معروفة لدى المحرضين الشريفيين. ذلك ان قسماً له قيمته الكبرى من جيش الاحتلال قد تم ارساله الى بلاد فارس للقيام بعمليات هناك تحت امرة «الجنرال آيرونسايد» [2] كانت عملية استبدال الجنود بغيرهم تسير على قدم وساق، وبذلك اصبحت اغلبية القوات المتوفرة، من المجندين الجدد من الهند، والذين لم تكن لديهم اية تجربة في الحرب. ومع ذلك حارب هؤلاء

---

(١) يقصد به الامير عبدالله

(٢) كانت هذه القوات الانكليزية قد ارسلت الى هناك لمقاومة الثورة البلشفية في روسيا التي وقعت في السابع عشر من اكتوبر ١٩١٧

بحماسة وحققوا معظم النجاحات المشهورة وعلى الاخص في كردستان، اذ استطاعوا خلال اسابيع قليلة وفي اشد اوقات السنة حرارة، ان يحققوا التفوق الذي لم يستطع الاتراك ان يحققوه قبلا.

لقد استطاع هؤلاء اخضاع الثوار الاكراد، والسير منتصرين في قلب كردستان. غير ان الحاميات الصغيرة المتناثرة في انحاء العراق، كانت تؤلف خطراً بدلاً من الحماية، ذلك لان انسحابها كان يعتبر دليلاً بارزاً على ضعف القوة البريطانية.

كان لجمن قد تم ارساله على عجل الى «الرمادي» في صفة ضابط سياسي لمنطقة الدليم. وما ان توقف هنا والقى بامتعته الثقيلة حتى استقل احدى الطائرات مصحوبا بخادمه «حسن» ليطير مسافة مائتي ميل فوق نهر الفرات الى «البوكمال» التي كانت تؤلف مركز الاضطراب حيث باشر على الفور عمله في تهدئة المنطقة بالتعاون مع العسكريين.

ولقد سارع حال وصوله الى الاتصال باصدقائه من العرب، فجمع طائفة من الخيالة وضع نفسه رئيساً لها، كما هي عادته التي لا تتبدل، ثم انفجر اشبه بالاعصار يغير على القرى التي يعيش الثوار فيها، بعد مجابهة شديدة ولقد وصف تلك الحادثة في رسالة بعث بها من البوكمال الى اهله في انكلترا يقول فيها مايلي

في ١٦ اذار سنة ١٩٢٠

«غدوت الآن في الجبهة. ذهبت من بغداد الى الرمادي فالقيت بحقيبة حوائجي، ومن ثم جئت الى هنا على بعد مائتي ميل من الفرات كانت الثمانون ميلا من هذه المسافة غير آمنة، ولذلك بعثوا بطائرة. انه لامر لطيف ان اعاود الطيران مرة اخرى فوق ارض طيبة. جاء (حسن) معي في طائرة اخرى، لكنه لم يكن ليحب الفكرة في اول الامر. كان هذا الموقع محاصراً قبل ان اصل الى هنا.

وقد اصبحنا الآن «نعلم» العربي الذي اثار هذا الاضطراب! بعد يوم من مقدمنا الى هنا، ذهبنا مسافة عشرين ميلا اخرى في اعالي النهر، فوجدنا الاعراب المحليين قد توقفوا عن ممارسة الزراعة هنالك حيلة قديمة لبعض العشائر شبه المتحضرة هي: انهم ما ان يروا رجالنا يقتربون منهم حتى يسارعون الى اخفاء اسلحتهم ويحملون مناجلهم ويتظاهرون بانهم من المزارعين المسالمين المجدين في اعمالهم، ومن ثم ينتظرون الى ان يمر الخطر، ليتم التخلي عن المحصول الزراعي والقيام باعمال القتل والسلب والنهب.

ولذلك حرقنا ما طوله عشرة اميال من الاكواخ المنتشرة فيها، وسقنا امامنا كل مافيها من الماشية، ودمرنا كل شيء كنا نستطيع ان نراه. وذبحنا عمداً قلة من الاعراب الذين القينا القبض عليهم في الطريق. كانت نتيجة ذلك انهم الآن يريدون ان يعلنوا السلام. انهم من اردأ الارذياء لكنهم خطرين جدا لقد قتلوا ستة ضباط في مدى عشرة ايام، وصمدو امامنا في قتال عددنا فيه

ستين من قتلاهم على وجه البسيطة سوف امكث هنا الى ان امسك بهم مسكة اليد، واذ ذاك ساعود الى الرمادي. واتجرأ لاقول لكم بانكم لابد ان تدركوا في ذات الوقت الذي يصلكم هذا الوصف فيه، باننا لسنا نعيش في وقت هين هنا، فلماذا نود ان نحتفظ بالقسم من العراق الذي دحرني؟ ان البلاد كلها بور مطلق ماعدا قطع ضيقة جدا على امتداد نهر الفرات، ولا توجد هناك مدن كبيرة سوى دير الزور التي تقع على مسافة ابعد قليلا في اعالي النهر، والتي تقوم الحكومة العربية فيها.

لم يستطع «حسن» ان يعيش في بغداد يومين من دون ان يسيء التصرف. لقد افرغ في جوفه قنينة من الشراب ذات ليلة، فعثرت عليه في الساعة الثالثة بعد منتصف الليل وقد اغلق الباب عليه اصر امامي بأنه لم يكن ثملا، لكنه ما ان راح يتحدث الي بالهندستانية حتى افترضت بانه لم يكن صاحياً. ومع ذلك فانه لم يكن سيئا تماما ولذلك تركته!»

* * *

حين غادر لجمن كان السلام قد تمت اعادته. كان افراد العشائر النادمون يجلسون بين خرائب دورهم التي سخمتها نيران الاسلحة وهم مندهشين كيف حدث كل ذلك حول تلك الفترة التي بدت وكأنها لا تنتهي، لزيادة ممتلكاتهم على حساب الآخرين، والتي تجمعت على حين غرة. وبصفة حاسمة حول لجمن اهتمامه مرة اخرى الى عشائر «العقيدات» التي ثارت في جوار «دير الزور» واذ ذاك بعث بطلب عاجل الى اصدقائه من عشيرة عنزة «للحصول على قوة يمحق بها «العقيدات» ثم وضع نفسه على قيادة هذه القوة. وفي مسيرة استغرقت ستين ميلا استطاع ان يمحق الثوار عند مطلع الفجر. فلقد هاجمهم بقسوة قبل ان يتوفر لديهم الوقت الكافي لجمع قوتهم فارغمهم على الاستسلام وفرض عليهم غرامة ثقيلة من النقود والبنادق والاغنام والماشية التي باشر بجمعها منهم على الفور ومن ثم احرق البنادق وقدم الاغنام والماشية مكافأة الى جيشه البدوي» !.

ولقد روى «فهد بك» شيخ عنزة هذا الحادث باقتضاب حين قال «عند عودة لجمن من لندن ثارت عشائر العقيدات في دير الزور، ولذلك اخذ رجالا من عنزة لمساعدة القوات التي تعاقب الثوار». وفي نهاية شهر اذار اتخذ لجمن من «الصالحية [٣] مقرا لنشاطه، حيث بدأ السيطرة على الحالةولذلك كتب الى اهله يقول «مازلت في جبهة المعركة. والحقيقة ان لي الشرف الآن اذ

(٣) بلدة الصالحية هي مدينة (دور ابوروبس) التي يرقى تأريخها الى العهد السلوقي قبل نهاية القرن الرابع قبل الميلاد ولعبت دورا كبيرا في الصراع الذي قام بين الرومان والفرثيين، حيث انتقم منها (شابور الاول) فخربها تماما في عهده (٢٤١-٢٧٢ ق. م.) نقبت فيها سنة ١٩٢٨ بعثة امريكية فعثرت على معابد كثيرة (طه باقر وفؤاد سفر: المرشد الى مواطن الاثار الجزء الاول ص ٢٧-٢٨)

اصبحت في اقصى نقطة متقدمة على الفرات والتي لا تبعد سوى اربعين ميلا عن دير الزور. وبفضل الوسائل الشديدة استطعنا تقريبا ان نقاوم كل هذا وعلى الاخص التمرد الخاص وان الناس يدفعون الآن الغرامات التي فرضت عليهم. من المحتمل ان استطيع العودة الى الرمادي في ايام قلائل. لقد قمت برحلة واسعة في الاسبوع الاخير. كانت طائفة من ضباطنا السياسيين المحمولين في وسائط نقل ثقيلة تسلك طريقها عبرالصحراء من (هيت) الى دمشق. لقد كنت بعيدا عنها مرات كثيرة. كانت هذه الطائفة تحمل خياما والواح من الخشب من كل نوع. وكان هناك فريق من المغيرين لم البث ان هبطت عليهم فمزقتهم شذر مذر. اريد ان اخرج لكي اعثر على ضباطنا السياسيين، واقود سيارة لمسافة مائة وخمسين ميلا عبر الصحراء، ومن ثم اعود بهم. كانوا في طريقهم الى الوطن ولهذا فانهم لم يكونوا قريبين الآن مناجدا.
وضعت اثنين من فتيان «السرارنولد ولسون» ذوي العيون الزرق، تحت امرتي لا نفع لها اطلاقا. وكانا ينظران الي كما كنت وحشا غريبا. ليس في مقدور المرء ان يكون جنديا موحل الدماغ!. ليست لدي رسائل. والواضح ان الرسائل لا يجري ابرادها في هذه الايام، بل على الاقل لا توجد اية اجراءات تخص البريد لهذا الخط. سوف ابعث بهذة الرسالة في طائرة الى بغداد غدا. لست اعرف ان كان هذا افضل بكثيرلان طائراتنا تجوب السماء تدمركل ماهو قائم في الريف!. ذهبت الى المخيم الذي يعود الى عشيرتي البدوية الخاصة في اليوم التالي. فلقيت استقبالا حافلا، حينما كانوا قد سمعوا بانني قد قتلت لقد اشمأزوا لانني لم اتزوج بزوجة حين كنت في الوطن وقالوا بان من الافضل لي ان اتزوج شابة عربية

* * *

ما ان تغيرت الحالة بصفة قاطعة حتى عاد لجمن الى الرمادي حيث وجد كارفر وفئة من الضباط اليافعين اللطيفين الذين لم يكن اي منهم قد تجاوز الخامسة والعشرين من عمره. جمع لجمن حوله طاقم خدمه القدامى والخيول والكلاب من الموصل. كان يحب الراحة وكانت على الدوام اول خطوة له هي ان يوفر سكنه في المدينة وان يقيم فيه مرتاحا قدر المستطاع. فلقد جمع الاثاث لبيته وكان البيت الذي سكنه نظيفا بشكل غريب حيث بذل اهتماما خاصاً بامور المطبخ فكان يخطط دوما على ان تكون هنالك مائدة جيدة وقد مضى في انجاز ذلك على الرغم من خطورة الوضع. وحين اصبح كل شيْ كاملا بالشكل الذي سمحت به الاوضاع راح يفتح ابواب بيته هذا للجميع كل يوم احد. وكانت ضيافته وسخاؤه لا حدود لها سواء لاصدقائه البريطانيين ام العرب على حد سواء
وما ان استقر لجمن في الرمادي حتى ساع على الفور لانشاء دائرة عجيبة للتجسس كان يستخدم

فيها كالمعتاد عددا من الاطفال ولذلك غدت هذه الدائرة مركزاً لنشاط عظيم، يقصدها سيل لا ينقطع من البدو والشيوخ وابناء المدن والضباط البريطانيين. غير ان لجمن لا يلبث، ان يترك بيته هذا لساعات او ليوم واحد او اكثر من يوم ذلك لان دائرة التجسس التي انشأها كانت تنبئوه بوجود خطر متوقع او حدوث غارة يقوم بها عرب معادون او بعدم استقرار احدى القبائل. كان يعمل بشكل دقيق جداً. فقد كان يعرف كل فرد وكل شيخ يعرف سلوكهم وطريقة التعامل مع اي منهم. كانت طرقه مباشرة ومكشوفة لاستار عليها. فهو يشتم بعض الافراد ويضرب البعض الآخر منهم، ويكافئ غيرهم ومع ذلك كان مشهورا في الجزيرة العربية بالمعاملة العادلة التي يعامل بها الآخرين وعلى الرغم من شدته وقسوته لم تكن لرقته اية حدود [٤]

في اواخر شهر نيسان لم يكن خادمه «حسن» مرافقاً له هذه المرة. ولم يكن الخطأ في ذلك ناتجا عن حسن نفسه حين تم ارساله في مرة سابقة الى مستشفى الرمادي. والحقيقة ان لجمن قد بدأ يفكر في مستقبله بشكل واضح حين عرض عليه السرارنولد ولسون التوقيع على عقد خدمة لمدة ثلاث سنوات في العراق وبمرتب قال عنه بانه «مرتب فخم» لم يكن من نوع المرتبات التي كانت تجري قبلا ولذلك فان من المحتمل ان اقبل به لانني استطيع على الدوام انهاءه بعد تقديم انذار بذلك مدته ثلاثة اشهر».

وفي الوقت ذاته كان لجمن يعاني شيئا من المشقة في اخضاع آخر فرع من عشائر البوكمال لدفع الغرامة التي فرضت عليهم على الرغم من قصفهم بالقنابل بشكل منتظم «حيث بدا بانهم لم يكونوا يهتمون بذلك كثيرا». وفي الوقت ذاته كان هو غير راضٍ عن موظفيه «انهم مجموعة تعسة الحظ من الضباط... لا يوجد بينهم رجل نبيل. فكلهم من الجهلة على الاطلاق، وممن تعافهم النفس من لدن العسكريين!» [٥]

وعلى الرغم من النشاط الذي كان لجمن يبذله والجهود التي يقوم بها فقد قرر ان يخلي كل المنطقة التي تقع بين البوكمال وعانة بما في ذلك دير الزور لانه حتى البوكمال كانت قد استسلمت. والى الشمال منها تمت تهدئة «الريف» واستخلصت الغرامات المقررة. واذ ذاك قام لجمن بزيارة السلطات العربية في دير الزور لكي يرتب معها امر تسليم كل المنطقة التي كانت تقاتل في سبيلها طيلة ثلاثة اشهر.

اراد لجمن الآن ان ينسحب. ولكن الانسحاب في وجه عدو جم النشاط، امر ينطوي على

---

(٤) لا نوافق المؤلف على هذا القول فلقد اشتهر لجمن بالشدة المتناهية والقسوة الظالمة في تعامله مع العراقيين، وكانت هذه القسوة هي السبب الاول في مصرعه.

(٥) يعلق المؤلف على قول لجمن هذا فيقول «لم يكن لجمن يدرك حقيقة ان الضباط الذين اعيروا الى الادارة في العراق، قد تم استدعاؤهم بالجملة، وتلك عملية اضافت شيئا ملموسا الى الصعوبات التي كان ارنولد ولسون يعلن منها.

الخطورة. ذلك لان هناك رتلا معوقا مؤلفا من المرضى والجرحى ومن غير المحاربين ينبغي ان تتم قيادته بسلام عبر ريف تحتله عشائر قوية جيدة التسليح، ولذلك اندفعت هذه العشائر بما تحمله من سلاح على الجناح الايسر من ذلك الرتل البريطاني في حين كانت مؤخرة الرتل مهددة من قبل اعوان الشريفيين الذين كانت تدعمهم قوات نظامية من حلب ورجال الهبت الدعاية حماستهم المفرطة كان لجمن هو الذي يقود ذلك الرتل ليس على امتداد الطريق المعروف لكل فرد وانما في طريق آخر متجه نحو الجنوب ولا يعرفه احد سواه. ومع كل ذلك كان هذا الطريق الآخر يمر عبر منطقة معادية الامر الذي اجبره على ان يدع الرتل عند الجناح الايسر وتلك مناورة استطاع بها ان يحافظ على الجناح الآخر، وان يتوفر للرتل الوقت الثمين قبل ان يتم اكتشاف مسيرته ومع ذلك كان الرتل مهددا في القسم الاعظم من المسيرة غير ان قوة بريطانية استطاعت ان تدفع بالرتل الى امام فيلغ نهر الفرات في بداية شهر ايار، وعن ذلك سجل لجمن في يومياته «كانت لنا اوقات مثيرة حقا حين غادرنا البوكمال لان الريف باكمله بدا لنا وكأنه سوف يهب ويتصدى لنا. لقد تعرضنا لقتال عنيف على امتداد الطريق الى (عانة) التي كانت تبعد سبعين ميلا. هنالك مغيرون على الموقع باكمله في الوقت الحاضر، لكننا اصبحنا في وضع نستطيع به ان نعالجهم. لقد امضيت ثلاث ساعات في الجو وانا امطر مخيمات العرب ورجالها. كانت اجمل بقعة استولينا عليها لمدة حوالي يوم. فلقد ارتطمنا في مبكر صباح احد الايام بخمسة وعشرين من الاعراب كانوا نياما في حفرة في الارض فاستمتعنا بذلك بشكل مفرط. ارى انه لا توجد نهاية لهذا الاضطراب ومع انه عنيد وشاق ومحفوف بالمخاطر، الا انه افضل من الجلوس في الدوائر!.

«لم يقدم لنا السادة الشبان اية مساعدة مهما كان نوعها ليس لدي ضباط ولا استطيع العثور على جواب على اي سؤال اطرحه، وفي الوقت ذاته كان السادة الشبان يتناولون المشروبات في النادي.... ان ادارتي للعمليات هنا تعادل ثلاثين شلنا في الشهر!... لقد اضعت براعتي في الملحق!»

هذا مادونه لجمن في يومياته في آخر اجازة له الى انكلترا وحين تم سحب المقاتلين نهائياً ترك الى لجمن امر صيانة الامن ومنع انتشار الثورة على امتداد نهر الفرات. ولقد ادى هذه المهمة بصفة لامعة لكن السلم لم يتوطد الا [illegible] بعد. ولقد مكث في (عانة) الى ان بدا في اوائل شهر حزيران بان السلم قد استتب واذ ذاك احس بان عليه ان يعود الى الرمادي. ولكن الثورة سرعان ما انتعشت مرة اخرى فعاد باحدى الطائرات الى (عانة) لتهدئة الحالة، وعن ذلك كتب في اليوم الخامس من حزيران يقول «انها لحالة تدعو الى القنوط بالاحرى. لكنني متلهف لها ولو انني سوف اكون اكثر سعادة اذا ما استطاعوا [٦] ان يمدونا بمساعدة اكثر من بغداد....».

---

(٦) المقصود بهم الحاكمون في البلاد اي سلطات الاحتلال الانكليزي

تم ارسال لجمن في اوائل شهر تموز للقيام بفحص اولي لغرض مد سكة حديد. لقد قطع هو ومن كان معه بالسيارة خمسمائة ميل وقد وصف رحلته تلك في رسالة بعث بها من الرمادي في اليوم العشرين من شهر تموز، يقول فيها«انها رحلة عجيبة اخرى، في مدى اربعة ايام بالسيارة، فوق صحراء لا طرق فيها، كان يتم قطعها قبلا على ظهر بعير في مدة خمسة عشر يوما. انه اجراء ليس بالمأمون في مثل هذا الوقت من السنة، ذلك لان الصحراء تكون آنذاك ملئ على الاطلاق بالفرق المغيرة. اتوقع ان تكون الحركة التالية هي استكشاف الطريق الصائب الى «بيت المقدس» وتلك قضية سوف تهيئ لي اياما قليلة في القاهرة.

«اود ان ارى فرقتين اخريين يتم ارسالها الى هنا، وان يتم محق العرب في المناطق غير المؤثرة، فتلك هي الوسيلة الوحيدة التي افكر فيها. ومن جميع انحاء مملكتي تعتبر الرمادي» بقعة غير مرغوب فيها. وهي في الواقع اشد حرارة من اية مدينة اخرى تقع بعيدا عن النهر... انني ارى ان ذلك سوف يغيظ «مل» [٧] لأن تعرف بانني لا استحق ان انال المكرمة العسكرية مادمت اعمل في الادارة المدنية ولذلك فانني استحقها بصفتي نقيبا في الجيش اليس هذا امرا مقيتاً بالاحرى؟. الرائد «ايدي» [٨] واحد من ضباطي ينبغي لنا ان نفهم عقليته. انه مثال جيد، وله طبع اشد شراسة من طبعي انا.

««مانزال في فترة احتضار العنف الداخلي. لانه يبدو وكأن كل العراقيين كانوا يقاتلون. انني لشاكر لأن اقول بأن شعبي [٩] كان يسلك سلوكا فاخرا طيلة الوقت. ليست لدي قوة مقاتلة، وانا اسيطر على المائة والخمسين ميلا الممتدة من هنا (الرمادي) حتى الحدود مع رجال العشائر. كان «كارفر» هو الوحيد بين الاربعمائة الذين قطعت اعناقهم في (عانة) التي تبعد مائة وثلاثين ميلا الى اعلى، ولدي ضباط زرعوا في بعض المحلات.

كان لدي مهرب عجيب في آخر يوم من ايام الاحاد (الاول من شهر آب. فلقد ذهبت الى مدينتي التي تقع على مسافة ستين ميلا داخل الصحراء «الرحالية»؟ وتلقيت حالة تبعث على الرثاء من حاكم عربي في مكان آخر «شثاثة؟» والتي تقع بعيدا هي الاخرى، وليست داخلة ضمن منطقتي.

«مضيت الى هناك وكنت اقود سيارتي صعدا حتى بوابة الحصن، فوجدت الاعداء قد احتلوه. لقد جفلوا، كما جفلت انا ايضا، من المفاجأة لكنهم منحوني وقتا لكي استدير، غير انهم لم

---

(٧) شقيقة لجمن

(٨) MAJOREADIE وقد خدم في العراق طويلا

(٩) يقصد لجمن بكلمة «شعبي» الاعراب الذين يسيطر عليهم من العشائر المؤيدة للاحتلال الانكليزي.

يمنحوني ذلك الوقت الا بنيران حامية كيما اهرب، ينبغي لي ان امضي على امتداد حاجز ضيق.
كان هنالك حمار في الطريق رفض اطلاقا لان يتزحزح فصدمته بالسيارة، وطرحته ارضا، وسرت بسيارتي فوق قمة ذلك الحاجز او السد.
«انني منشغل الآن بالحصول على من يساندونني. وقد اصبت الموقع الذي كان يحتشد فيه ثمانية الاف من الناس الذين تشردوا من العشائر من كل فج عميق. انه يؤسفني لان يطلقوا النار علي كما كنت اتوقع. كان «حسن» فاخرا وقد رد عليهم من السيارة بنيران كثيفة. آسف ان يكون (حسن) قد سقط من الاحترام، لانه يشرب بكثافة، واعتقد بانه قد ذهب الى بغداد.
«فهمت بانني سوف اذهب عبر فلسطين للقيام فورا بمهمة الكشف عن طريق ملائم لمد سكة الحديد [١٠] انه لجنون مطبق ان اترك منطقتي في مثل هذا الوقت. لابد من حدوث تغيير. ولسوف يحدث هذا التغيير قريبا جدا طالما استطيع ان اصمد.»
كانت هذه هي المناسبة الاولى التي تشكي فيها في كل مراسلاته. ومع ذلك فانه محق في هذا، لان الضغط عليه لم يعد يمكن تحمله. فهو مازال يتشبث بعناد في توطيد الامن في منطقته وان يلبي دعوة يائسة للمساعدة ترده من الخارج. في اليوم السادس من شهر آب والذي كتب فيه رسالته هذه كان آخر ماسجلناه من ذكرياته. ولقد زودنا الحظ بالفرصة التي نستطيع ان نقارن فيها، رسالة لجمن تلك وبما حدث فعلا.
كانت المدينة التي اشار اليها في رسالته هي «شفاثة» التي سبقت الاشارة اليها قبلا. وكما اوضح هو فان طلب المساعدة منه قد جاء من قبل الحاكم العربي الذي اقامه لجمن نفسه هناك. ولكن ذلك الطلب قد تم تلقينه من قبل اعداء لجمن وشجع من لدن المتطرفين السوريين الذين كان لهم عملاؤهم في تلك المدينة ذاتها.
استطاع لجمن ان يوقف نشاطات المتطرفين السوريين على امتداد نهر الفرات بصفة عملية، ولذلك صمموا على ان يقتلوه، وحصلوا بذلك على مساعدة من تلك العناصر التي كانت موجودة في شثاثة والتي طردها لجمن من العمل في ادارة الحكومة حين احتل تلك المدينة قبل سنتين. ارسلت البرقيات الملحة طلبا للمساعدة حيث استعد اعداء لجمن بكل حذر واستعداد للمبادرة الى قتله. ذلك انهم كانوا قد اقدموا على تسوير الساحة القائمة في المدينة، وحصلوا على مائة بندقية لكي تنهال على الساحة اللحظة التي يصل فيها لجمن الى هناك. كما كان من المقرر

---

(١٠) كان الانكليز قد خططوا، بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى مباشرة لمد سكة حديد من بغداد تربط منطقة الدليم بفلسطين كلها، وقد اعدت الكشوف اللازمة لذلك، ولكن قيام الثورة العراقية اولا، وسيطرة الفرنسيين على سوريا ولبنان وطرد فيصل وحكومته من دمشق واستيلاء ابن السعود على الحجاز ونجد وعسير كانت من العوامل التي ادت الى اهمال المشروع الذي فكرت في احيائه حكومة العراق مرة اخرى في اواخر الثلاثينات.

ايضا ان يسد المدخل الضيق من ورائه. لم يكن وصول لجمن الى المدينة متوقعا، ذلك لانه كان في كل حركاته يظهر قبل ان يلاحظ القوم وصوله. لكنه ما ان وصل المدينة حتى اندفع المتآمرون الى الاماكن التي كانوا يختفون فيها. كان لجمن يقود سيارته وهو لا يتوقع حدوث امر ما، نحو الساحة حين فاجأه احساس ما بوجود خطر كان يترصده هناك، وفي مثل رمش العين حول اتجاه سيارته الى احد التعرجات الضيقة خارج الشارع الرئيسي، حيث كان يصعب عليه ايجاد ملجأ لسيارته. غير ان المتآمرين كانوا قد اصيبوا بالارتباك على الفور، نتيجة التصرف المفاجئ الذي اقدم عليه. ومع كل ذلك فان وابلا من الاطلاقات كان يتعقبه حين اخذ يقود سيارته بجنون بحثا عن مخرج له. وكان من حسن الحظ ان تلك الاطلاقات لم تسبب عطباً وافياً لسيارته يعيقها عن التقدم.

كان لجمن قد القى الضوء على هذا الحادث في رسالة بعث بها الى اهله ولم يكن من المدهش ان نرى الصمود. ذلك لان وطأة الاخطار المتلاحقة التي تعرض لها لسنوات، كانت كافية لتجربة مروعة، وكانت الثورة قد ضاعفت من تلك الاخطار. ففي كل زاوية في الطريق ووراء كل صخرة في التلال، وكل غار في الصحراء، بل حتى غرفته في (الرمادي) كان يمكن ان تصبح اماكن محتملة لاخفاء احد المغتالين. وعلى ذلك كانت خسارة «شثاثة» تمثل ضربة قاسية للمتطرفين في دير الزور، لان هذه المدينة كانت قاعدة ملائمة لاعمال التخريب.

«الفصل الثامن عشر»

«يوميات نائب العريف (ونغ)»[1]

جمعت الحوادث التي سجلت في الفصل السابق، بصفة رئيسة، من رسائل لجمن الخاصة والقليلة، ومن التقارير العرضية ايضا. ولقد كنا محظوظين، حين تعقبنا احدى اليوميات التي كان يحتفظ بها نائب العريف «فرانك ونغ» من البطرية الآلية المدرعة السادسة، والتي تلقي المزيد من الضوء على الموضوع، وتعرض مثالاً عن الكيفية التي تستطيع بها الصدفة المحضة ان تكشف عن المدى التام للمواهب التي كان لجمن يتحلى بها.

في رسالة تعرض مقتطفات من يومياته يقول نائب العريف «ونغ» «آمل ان تكون لهذه الملاحظات بعض العون في تسجيل سيرة العقيد لجمن الذي يعد واحدا من اعاظم العسكريين الذين عرفتهم بريطانيا. وانني آمل مخلصا في ان تنجح هذه الملاحظات في جعل ابناء وطنه يلمون بما كان يقوم به في سبيلهم. لقد كان اسمه مألوفا من احدى نهايات البلاد[2] حتى آخرها. ذلك انه كان يعرف كل بوصة من الصحراء، وكل عشيرة فيها. ولقد قتل قبل ان يحل السلام. والمؤسف انه لم يعش لكي يستمتع بثمرات عمله»

تشتمل يوميات «فرنك ونغ» على احداث الفترة الواقعة بين اليوم السابع من شهر شباط سنة ١٩٢٠ حتى اليوم الثاني والعشرين من شهر تشرين الاول من ذات السنة، وهذه الفترة تشمل القسم الاعظم من الوقت الذي كان فيه نائب العريف «ونغ» يتعاون مع لجمن. وهذه هي القصة التي ترويها تلك اليوميات

وكان يجري تبليغ لجمن بالمعلومات بصفة عجيبة. ولم تكن اي من المعلومات تعتبر تافهة بالنسبة اليه مهما كانت طبيعتها. فلقد اعتاد ان يستخدم مجموعة من الصبيان الذين كان يدفع اليهم اجورا ضئيلة. كذلك كان لديه رجل يستخدمه بصفة رئيسة لتدريب جيشه المؤلف من العرب الراكبين، والذي كان يستخدمه، في الدرجة الاولى، في خفر الصحراء، وفي مساعدته على جمع الضرائب التي تشتمل على استيفاء «روبية» واحدة (شلن وثلاثة باتسات) عن كل نخلة في السنة. ولقد

---

(١) FRANK WING

(٢) المقصود بها بلاد العراق

دشن مشروعا للري في الرمادي، بان حفر سواقي من ضفة النهر في داخل الارض مابين مسافة ميل او ميلين. وكان يجري ملء هذه السواقي بالماء بواسطة المضخات، او باستخدام البغال التي تجر الدلاء المصنوعة من الجلد باستمرار من النهر ليل نهار.

كانت لديه دائرة في الرمادي، وكان يوجد في جوار تلك الغرفة خرق واسع حدث في احدى المرات بفعل واحدة من الرصاصات التي اطلقها عليه اعداؤه في احدى الليالي على امل ان يظفروا به. وحين انضممنا الى البطرية الالية الخفيفة المدرعة السادسة، قدم لجمن الى مخيمنا، وجرى له حديث معنا، وكان ينظر الينا مليا، ومن ثم وجه كلامه نحونا على النحو التالي «انظروا الى هنا انتم ايها الشبان! . انني لست اعرفكم ولكنكم سوف تعملون لحسابي. هل بينكم من يستطيع ان يقود سيارة؟ فرد الجميع قائلين «لا ياسيدي» فقال «حسنا! ومن ثم سوف نعلمكم بجدة، لان هؤلاء الرجال الذين جئتم لاسعافهم لم يذهبوا الى الوطن منذ الحرب حتى الان!»

كان ذلك في سنة ١٩٢٠، وكان يبدو عليهم بانهم كانوا آسفين نوعا ما ايضا. لقد ابلغ اولئك الرجال بانهم سيعودون الى الوطن في غمار ثلاثة اسابيع. فلقد ابلغنا بانه سوف يدع العقيد «جونسون» الذي كان يقود البطرية الآلية المدرعة الخفيفة، يمر بنا في غضون ثلاثة اسابيع وكان مصيبا في ذلك التقدير. فلقد تحققت تلك النتيجة بفضل الجهود التي بذلها النقيب «هاربر» الذي انضم الى البطرية الآلية الخفيفة المدرعة السادسة ومعه الملازم «غورنغ»

٣٠ آذار سنة ١٩٢٠

اخذنا لجمن في طريق الى البوكمال يجتاز كلا من: هيت، خان البغدادي، حديثة[٣] الفحيمى[٤]، عانة، والقائم[٥] وهي مسافة تبلغ نحو مائتي ميل، ومن ثم وضعنا في ارسالية بين البوكمال وعانة. كانت السيارات المدرعة التي تعمل معه من طراز «فكتوريا» و «افنجر» و «امبرغنابل» و «تشاتهام»

دون ان يترك شيئا من مدوناته، بل من دون وجود وقت لوضع اية احتياطات لطفله الوحيد، طفل الشوارع.

الخامس من نيسان ١٩٢٠

هنالك عمل اراد منا لجمن ان نقوم به. ذلك العمل هو ان احدى طائراتنا قد تم اسقاطها من قبل بعض العرب، والقي القبض على الملاح. ولقد قام العقيد لجمن والملازم غورنغ بالقسط

---

(٣) كتبها ADETHA

(٤) الفحيمي كتبها خطا باسم فومي FUAMI

(٥) القائم اخطأ في تهجئتها فكتبها القومي AL - UQVMI

الاكبر من هذا العمل، ومن ثم اطلق النار على الثائرين، وفي الاخير استطاع اطلاق سراح الملاح

العاشر من نيسان ١٩٢٠

عززت السيارات باثنتين من السيارات المقاتلة من طراز (فورد) حيث صدرت الاوامر بذلك على حين غرة. كان علينا ان نتقدم نحو «الصلاحية»[٦] على بعد خمسة وعشرين ميلا شمالي البوكمال. لم يكن احد ليعرف، سوى العقيد لجمن نفسه، نوع العمل الذي يجب ان ننهض به.

فلقد ركب سيارتي من طراز «افنغر» وقال لي «قد السيارة حسب اشارة يدي!». لم يكن هنالك طريق، بل حتى ولامسرى من اي نوع كان، وانما مجرد اميال من ارض متعرية جرداء، وجلاميد متناثرة هنا وهناك، كان يبدو عليها كما لو ان البراكين هي التي اوجدتها في وقت ما او آخر

اخذنا العقيد الى نقطة عرفت باسم (م) تبعد عشرة اميال الى الشمال من «الصلاحية». كنا على بعد مائة يرد فوق النهر، في حين كان الاعراب على الضفة الاخرى من النهر والمستوية غاليا مع النهر، يقومون بزراعة ارضهم.

رفض الاعراب ان يدفعوا الضرائب، بدعوى انهم لم يكونوا مدينين للبريطانيين، ولذلك انثنى لجمن لكي يدعهم يفعلون ذلك، ثم امرنا بان ننتشر الى مسافة خمسين يردا على حدة وراح يمطرهم وابلا من ستة رشاشات من طراز «فكرز». ولقد اصبنا افضل مافي العملية حين صعدنا عاليا، بحيث ان اطلاقاتهم لم تمسسنا.

كانت لدى العقيد لجمن بندقية اعتيادية. وقد امضى وقته وهو يطلق النار من بندقيته، ويصيب كل ماكان يطلبه عن طريق بوق لديه. مضت هذه «اللعبة» لمدة اربعة ايام، واذ ذاك قرر لجمن بان العرب اذا لم يدفعوا الضرائب فلن يسمح لهم بان يزرعوا.

بدأ بان الامور لم تكن ملائمة له، ولذلك تحركنا ثانية وهو يرشدنا الى طريقنا بيديه. لقد كان يقودنا الى فريق من البدو، كيف عرف بانهم كانوا من الناس الجيدين؟، والذين كان يعرف بانهم يعودون الى الشيخ «تركي بك». وبعد ان تحدث برهة الى هذا الاخير، ارتقى الشيخ السيارة وصعد معه افراد عشيرته ايضا، وراح يهتف وينادي طول الطريق الذي عدنا به الى النقطة «م»، ومن ثم امسك الشيخ المسن بالبوق، ووجه الى البدو المتمردين كلاما مما كان يفكر فيه، غير ان ذلك الكلام لم يترك ادنى انعكاس. لكن لجمن لم يهزم، بل طلب مساعدة القوة

---

(٦) كتبها باسم الصالية SALIYA

الجوية. وبعد ان القت الطائرات مجموعة من القنابل نهاراً على الاعراب، وافقوا على دفع الضرائب.

عاد العقيد لجمن بعد يومين الى البوكمال التي كانت تمثل المقر المتقدم لكل العمليات على الفرات. قمنا بتنظيف سياراتنا تماما، واعددناها لمسير ثانية، وجلسنا نتجاذب اطراف الحديث عن الاحداث الاخيرة، حين تقدم لجمن نحونا. لقد خيل الينا بانه كان يمزح حين قال بجدة «اذا مادعيتم الى العمل فما هي المدة التي تحتاجون اليها للوصول الى الطريق؟ فاجبنا: دقيقتان ياسيدي فقال «حسنا! قد سيارة الافنغر في دقيقتين الى الطريق واستعد للعمل»

وصلنا الى هناك في الوقت المشار اليه، ومن ثم قفز وقال «انطلقوا باقصى سرعة في الطريق الذي يصل الى دمشق». وبعد ان قطعنا حوالي ثلاثين ميلا، شاهدنا ماكان يتطلع اليه، وهو عبارة عن قافلة من البدوكانت قد قطعت اسلاك البرق الى مسافة حوالي نصف ميل، ثم حملت اعمدة الاسلاك على ظهور الابل، وراحت تسير خبباً داخل الصحراء، وقد تركت الاسلاك من ورائها تشير الى الطريق. (ملاحظة: لقد استخدمت مثل هذه الحيلة من لدن لورنس في الحجاز). لقد امسكنا بالبدو، ووفقا لاوامر لجمن اطلقنا النيران فوق رؤوسهم لتخويفهم، واذ ذاك خرج لجمن من السيارة وقال «اطلقوا الرشاشات على وسطهم عندما اطلق انا» وحينئذا سألناه «وماذا عندك؟» فرد علينا يقول «لاتهتموا بي. افعلوا ماامرتكم به. سوف اقف طيلة المدة التي ستقفون خلالها!».

ومن ثم رأيت منظرا لن انساه مادمت حيا.

كان القوم يتألفون من ثلاثين بدوياً مسلحاً. اما لجمن فلم تكن معه سوى عصاه، ومع ذلك فقد اندفع بينهم. لقد فتحت جهنم ابوابها. كنا نقف منتصبين في السيارة بينما كان هو يقاتل الثلاثين بدويا بيده المفردة! صدقني!. واذ انتهى منهم كانت هنالك بعض الجماجم المهشمة. كان جميع الاعراب قد هربوا، ماعدا خمسة منهم كانوا يصرخون ويطلبون الرحمة حينما كان يضرب بعصاه ركبهم، غير انه لم يبد اي شيء.

وحينما انتهى اخيرا من جلدهم. اختار اثنين منهم وربطهما خلف السيارة، ومن ثم اصعد الثلاثة الباقين في السيارة. كان لجمن ملطخا بالدم حين حملهم والقاهم في السيارة وهو يقول «ان كان هنالك عمل افضل من الرشاشات فانني اود ان اعرف عنه.

وفي صباح اليوم التالي وفي «البوكمال» اراد ان يجرب اولئك البدو الذين جاء بهم، ففرض عليهم غرامة ذات مبلغ كبير من المال دفعوها نقدا ذهبيا وفي صفة اغنام وماعز ومجوهرات وعلف، حيث شارك في دفعها كل فرد من افراد العشيرة. وكما تعرف فان العرب من كبار المتحدثين، وذوي نقاش حول قضية هذه الغرامات. غير ان لجمن يستطيع ان يحدث رئيس

العرب عبثا، وفي هذه الفترة كانت لغته الخاصة تبدو غريبة بالنسبة اليه، ولذلك فلم يكن يتحدث بها الا قليلا.

وعلى اية حال فانه نادرا ماكان يتكلم. واذا ماتكلم فانه لن يفعل ذلك الا اذا احتاج الى شيء ما. كان هناك بعض الكبار من العرب، لكن لجمن كان يتفوق عليهم جميعا. فلقد كان لين العريكة جدا. وحين كان يخرج الى الصحراء، كما كان يفعل ذلك باستمرار، كان يمضي النهار كله وهو لايقتات الا ببضع تمرات. لقد كان يعيش ويظهر وكأنه عربي تماما، وكان يمثل الدور بدقة تامة. فلقد كنا نصنع دورقا من الشاي، ونحصل على حصتنا من اللحوم المعلبة والبسكويت، غير انه لم يكن يتناول سوى تمراته. ومع ذلك كان هذا الطعام يبدو ملائما له بصفة عجيبة

الرابع من ايار

مضينا مع العقيد لجمن الى «الميادين» لكي نوقع السلام مع «حمو شيرو». كانت تلك عملية غريبة. لقد كنا نستمع الى محاضرات لجمن، وندرس عليه كل ماكنا نقوم به، وما لانقوم كانت تعليماتنا تقضي علينا بان نتناول الطعام مع جماعة «حمو شيرو» «– اي اليزيدية– المترجم» بغض النظر عما كانوا يأكلونه هم انفسهم. لم يكن احد منا يعرف الطريق حتى لجمن نفسه. غير ان العشيرة كانت قد بعثت برجل من لدنها الى الصحراء، راح يلوح لنا برايته البيضاء، وكان يتصرف بمثابة دليل.

شاهدنا على الطريق سيارة عجيبة المنظر، تأكد لدينا فيما بعد انها كانت سيارة بعثة امريكية كانت ترفع العلم الامريكي ذي النجوم والشرائط [٧]. ذهب لجمن اليهم، وتحدث معهم، غير اننا علمنا مؤخرا ان كل افراد البعثة كانوا قد قتلوا في «ميادين» او هكذا سمعنا. وحين وصلنا الى المكان الذي كنا نقصده كان رئيس العشيرة يتخضع الى العقيد لجمن، واذ ذاك مضيا يتحدثان عن مهمة السلام التي بحثاها. بدا على العقيد لجمن بانه كان يشك في النتيجة، ذلك لانه كان قد ابلغنا بان نجعل سياراتنا متوجهة نحو الصحراء، وان تكون مكائنها تدور.

ولقد برهن اهل «ميادين» على انهم كانوا اناسا عجيبين نوعا ما. في الدرجة الاولى كانوا من «عبدة الشيطان» [٨] ولذلك تلقينا معلومات من العقيد لجمن بان لانذكر كلمة «الخس» بينهم.

---

(٧) هذه واحدة من بعثات التبشير الامريكية التي كانت تطوف بالبلاد العربية، ومنها العراق، منذ بداية القرن السابع عشر وحتى اواخر سني العشرينات من القرن الحالي فهي تجوب المناطق الشمالية من العراق بصفة خاصة وتتصل بالاكراد وباليزيديين والاثوريين والطوائف الغريبة من امثال الشبك والعلي اللهية و «حق» وغيرها لتحويل عقائدها الى العقيدة المسيحية

(٨) نشأ هذا الاعتقاد المغلوط عن اليزيدية نتيجة عدم اقدام اليزيديين على شتم ابليس او الشيطان وعدم تناول الخس. والصواب ان العقيدة اليزيدية، مثل اية عقائد متطرفة وغريبة في البلاد العربية كالدروز واضرابهم. قد نشأت عن خليط من المعتقدات الجغرافية الممتزجة بانماط من مختلف الديانات المسيحية واليهودية والاسلامية بل وحتى الوثنية. ولقد وضعت «الليدي دراور» دراسة موسعة ودقيقة عن اليزيدية في اواخر العشرينات كنا نعتزم ترجمتها.

لم اكن اعرف ماذا يعني هذا، لكن ذلك كان هو الامر. كان جميع الرجال ومن اي صنف حليقي الرؤوس، وكانت رؤوسهم تبدو وكأنها كتلة واحد من موكب عسكري. لم يكونوا قد شاهدوا الة تتحرك ذاتيا من قبل، ذلك اننا ما ان اقتربنا من المكان الذي كانوا يتجمعون فيه، حتى فروا فزعين، وبعد نأي عاد اكثريتهم شجاعة الينا، ثم مالبث الحشد ان اخذ يتجمع بالتدريج، الى ان تجمعت كل المخلوقات من حولنا، فلو انهم تعمدوا لان يجابهونا لكانت السيارات قد تحطمت وغدت قطعا تذكارية!

او لموا لنا وليمة كبرى حسب طريقتهم المألوفة، كانت تتألف من رز مطبوخ بمقدار حمل سيارة، فوقه عنزتان محموستان. قدمت الينا اقداح من البرنز لنشرب بها، وبعض الاشياء الصغيرة الجميلة ايضا. نسيت ان اترك قدحي خلفي حين اكملنا تناول الطعام، ولذلك فانني احتفظ به الان الى جانبي في السيارة بمثابة حلية.

حين جلسنا لتناول الطعام رفض اثنان من رفاقنا ان يأكلا الطعام، الامر الذي بدا اشمئزازهما منه، غير ان هذا التصرف كان ايذاءاً لمضيفنا. ولقد قتل ذانك الرجلان فيما بعد بشكل غريب حقا، وبطريقة مرعبة. واخيرا قام لجمن بتظاهرة امام القوم في قيادة السيارة، وعلى الفور نهضنا ورحنا نقود سياراتنا بسرعة عظيمة محاولين بذلك ان نغلب الظلام قبل ان يسدل استاره، اذ كانت لنا طرقنا الخاصة التي كنا نتعقبها.

غير اننا لم نستطع ذلك، لان الظلام كان قد هبط علينا فجأة. اما بالنسبة الي انا فلقد استيقظت لاجد نفسي بين ذراعي لجمن، فاذا بي اسمعه يقول «انه يفيق من اغمائه!» ولقد جس بدني، فكنت فاقد الوعي. واخيرا قال لجمن باننا اجتزنا غاراً في الرمال. كان التأثير الذي اصابني قد سلب مني عجلة قيادة سيارتي، ولذلك استدارت السيارة استدارة بهلوانية تامة فانفلت برج السيارة منها وسقط الى بعد خمسين قدما عنها. كنت في داخل البرج، ولذلك تحطمت رشاشة «الفكرز» في وجهي الملازم (كلمنت)، والسائق «دايسون» الذي ادار عجلة القيادة نحو النصف من صدره.

استطاع العقيد لجمن والملازم غورنغ انقاذ السيارة واعادتها الى الخلف حسب القوة الخاصة بها. لم يحصل اي عطب للماكنة، مثلما يتحدث به جيدا عن سيارة «الرولز رايز». بدت زيارة العقيد لجمن وكأنها استعداد للانسحاب من اعالي الفرات. ومهما يكن الامر فان العساكر كانت قد اخلت مدينة البوكمال في اليوم الثامن من شهر ايار سنة ١٩٢٠

قام لجمن باعادة الحملة بسلام الى (عانة)، وكانت تتألف من اللواء الحادي والعشرين الذي يقوده العميد «كننغهام» مع بطرية مدفعية من عيار ١٨ ملمتر، وبطرية جبلية، وبطرية

البنجابيين السادسة [٩] ، وعساكر من حملة الرماح البنغاليين، ومستشفى بافراده، المرضى منهم والجرحى. كل ذلك جرى في طريق صحراوي لم يكن معروفا لاي احد سوى لجمن نفسه. كل ذلك كان قد فعله لكي يتجنب التعرض للهجوم عليه.

ولقد ادت القوة الجوية البريطانية عملا قيما في ابقاء البدو المعادين في المؤخرة، وذلك عن طريق استعمال القنابل ونيران الرشاشات، حيث كمل القسم الاول من الانسحاب بسلام، فبقيت العساكر في (عانة) فترة من الزمن، في الوقت الذي انفجرت فيه الثورة في الموصل [١٠] وعلى هذا تقدمنا الى «هيت» فالتقينا مع العقيد لجمن في اليوم الثامن عشر من ايار ١٩٢٠. كان لديه زورق قديم حوله الى معبر. وفي اليوم الحادي والعشرين من شهر ايار استطاع ان ينقل بذلك المعبر سياراته عبر مياه نهر الفرات. كانت مهمة عسيرة، ذلك لان النهر كان سريع الجريان جدا.

ومن ثم قادنا لجمن الى مكان يقع على بعد خمسة وعشرين ميلا الى الجنوب الغربي من الموصل، فاحاط على الفور بعشيري القلاقل الذين بدا عليهم بانهم كانوا من الاتراك والعرب معا. وحين كان اهتمامهم منشغلا بالقوات التي كانت في المقدمة، فأجأهم لجمن من المؤخرة. وهكذا مكث لجمن هناك مدة يومين يعالج الوضع. وحين استقرت الامور استدرنا مرة اخرى نحو الجنوب.

حدث اضطراب كبير لنا اثنا عودتنا، وذلك نتيجة انعدام الماء والطبيعة الميؤس منها للوضع الذي وجدنا انفسنا فيه، الامر الذي يستطاع الحكم عليه من الحقيقة التي وقعت حين اجبرنا على ان نبول في مشعات السيارات!.

توجه لجمن بعد ذلك الى حصن «راوة» الذي يقع على الضفة اليسرى لنهر الفرات والمقابلة لمدينة (عانة). وما ان وصلنا الى هناك في اليوم الخامس والعشرين من ايار ١٩٢٠، حتى هوجمنا من قبل جماعة قوية من العرب المعادين، لكننا استطعنا اجلاءهم بنيران رشاشاتنا. وفي اليوم الثلاثين من ايار اخذ العقيد لجمن ثلاث سيارات مدرعة لاخماد الثورة التي انفجرت من قبل

---

(٩) كان يطلق على بطرية البنجابيين اسم جاتس JATS والمقصود بهذا الاسم هو الهندو – اوربيون الذين كانوا يعيشون في اقليم البنجاب بالهند

(١٠) بدأت الثورة في الموصل بقيام ثورة تلعفر في اوائل شهر ايار ١٩٢٠ ثم اعقبتها على الفور مهاجمة سكة حديد بغداد – الشرقاط من قبل عشائر تكريت، ومهاجمة معسكرات اللواء الانكليزي الخاص بحملة البنادق الذي كان يعسكر في ضواحي محطة القطار في بيجي ثم مهاجمة القطار العسكرى الخاص الذي يحمل النجدة لحامية تلعفر وحرفه عن طريقه ومهاجمة من فيه وذلك في منعطف وادي «ام غُربة» شمالي محطة «عين دبس» حيث اقتلع خط السكة ودمرت القاطرة وبعض العربات، وتاخر وصول الامدادات لاكثر من اربعة ايام وكانت القوة التي قامت بعملية وادي «ام غربة» مؤلفة من بعض ابناء تكريت وراوة وغيرهم والذين بعث بهم المرحوم مولود مخلص لهذا الغرض من دير الزور بعد ان تدربوا على استعمال القنابل اليدوية وتم تزويدهم بها.

عشيرتين على مقربة من حصن قديم يبعد بمقدار ميلين الى الشرق من «القائم» الذي مايزال على الضفة اليسرى من النهر. كان القتال متواصلا هناك، لكنه مالبث ان توقف في اللحظة التي تاكد الثائرون فيها من قدوم لجمن، حيث قام بتسوية الامور، وعاد في ذات اليوم الى «عانة» مرة اخرى.

وفي اليوم الحادي عشر من شهر حزيران سنة ١٩٢٠ انفجرت الثورة على نطاق واسع في «القائم» مرة اخرى. كان الشيخ الذي حرك تلك الثورة هو الشيخ (حفتون» الذي كان له اتباع كثيرون. ولذلك تم ارسال قوة مختلطة ضده، تألفت من المدفعية والمشاة والخيالة والسيارات المدرعة. اخذ العقيد لجمن حظيرة من قوته العربية الراكبة فقادها الى العمل بنفسه. كان احد هؤلاء الاعراب في المقدمة قد طارت قمة رأسه. اما البقية فما لبثت ان ولت هاربة. غير ان لجمن لم يشأ الا ان استدار في رمشة عين، فجمعهم سوية، وقادهم مرة اخرى في قتال كثيف.

فقد الشيخ حفتون خمسين من رجاله الذين قتلوا، اضافة الى المنهوبات الواسعة التي اخذت منه. وفي اليوم الرابع عشر من حزيران، شوهد العقيد لجمن عائدا الى الضفة اليسرى من النهر، ومعه سيارات مدرعة، واحدى سيارات «فورد» المقاتلة، وهو يعمل على اقامة جناح حراسة للعساكر التي اخذت الآن تقوم بانسحاب آخر حيث كملت العملية في اليوم الثاني والعشرين من شهر حزيران ١٩٢٠

حصل الملازم غورنغ على وسام الخدمة الممتازة، وعلى وسام القيادة العسكرية. اما الملازم «كلمنتس» فقد حصل على وسام القيادة العسكرية. وصدرت وصية بان يمنح خمسة منا المدالية العسكرية الممتازة، واثنين وسام الخدمة العسكرية الممتازة، كل ذلك جرى كما يكون شاهدا وافيا على طبيعة العمل الذي تم انجازه. اما العقيد لجمن فانه لم يحصل على شيء، ولكن الفخر في حصول هؤلاء على الاوسمة يعود الى شجاعة لجمن وقيادته المدهشة

في اليوم الثاني عشر من شهر تموز ١٩٢٠ جاء لجمن الى احد المعسكرات في الرمادي باوامر سرية. ذلك ان الاعراب المعادين كانوا قد اسروا اثنين من الضباط السياسيين واحتجزوهما رهائن في «عانة» وطلبوا فدية كبيرة لاطلاق سراحهما. تم اختيار ستة اشخاص منا مع ضابطين للعمل الذي يراد القيام به. قال لجمن انه قد فضل الاشخاص غير المتزوجين، لانه قد لاتتوفر فرصة كبيرة للعودة، نظرا لوجود الالوف من العرب المعادين في (عانة). وعلى هذا نصحنا العقيد لجمن بان نكتب وصايانا اذا كان لدينا ما نريد ان نتركه، لان فرص العودة كانت ضئيلة جدا

صمم لجمن على ان يقوم بعملية «حطم واختطف»، وان يعتمد في ذلك على سرعة الحركة، وعلى سرية النجاح. بدأت مسيرتنا اثناء الليل، ولم يسمح بايقاد اية اضواء الى ان وصلنا «هيت» قبل الفجر. ومن تم تولى لجمن قيادتنا مرة اخرى لانه هو الذي كان يعرف طريقه اثناء

الليل واثناء النهار على حد سواء. كان علينا ان ننتظر هنا الى ان قدم احد جواسيسه الذي جاء وابلغنا بان العرب المعادين كانوا قد قطعوا الطريق حتى الى (حديثة)، وبهذا تكون طريقنا قد سدت بوجهنا. قرر لجمن ان ننتظر مختفين الى ان يحل الظلام المقبل، ومن ثم نقوم بعملية التفاف عبر الصحراء الى (عانة). وعند الساعة الرابعة بعد الظهر، جاء جاسوس آخر فاخبرنا بان الضابطين قد قتلا، ولذلك عدنا اسفين الى الرمادي».

• • •

كانت يوميات نائب العريف (فرنك ونغ) قد اوضحت لنا وصف الاحداث التي قامت بها البطرية الآلية الخفيفة المدرعة السادسة الى آخر مساهمة لها مع العقيد لجمن. اما لجمن نفسه فانه لم يترك اي سجل عن تلك الاحداث، بل لم يتحدث عنها، ولم يكتب بها الى اهله.

وما ان انسحبت العساكر حتى بقي لجمن لوحده، بعد ان استطاع ان يعيد السلام الى منطقة الفرات، ولذلك فان اعماله المدهشة بل حتى اخطاؤه، هي التي خدمت قضية انكلترا!

«الفصل التاسع عشر»
مصرع لجمن

بقي لجمن في الرمادي طيلة شهر تموز وبداية شهر اب ١٩٢٠، وكانت حدة الدعاية التي وطدها الوطنيون قد تجاوزت كل شيء تمت تجربته قبلا لقد غدت مهمة الادارة عسيرة بصفة متزايدة، ومع كل ذلك كان لجمن ما يزال يمسك بزمام الحالة في الفرات، غير ان الضغط شرع يتم التحدث عنه بصفة جدية. وكما كتب في رسالته المؤرخة في اليوم السادس من شهر اب، فانه لم يعد لديه مايكفي للصمود.

يذكر لنا السر ارنولد ولسون انه حتى اليوم الثاني عشر من شهر اب، لم تكن الثورة الفعلية قد حدثت في المنطقة الممتدة، مابين بغداد والفلوجة، او على نهر الفرات في اعالي الفلوجة، ذلك لان «علي السليمان» شيخ الدليم، بقي صامدا، في حين كانت عشيرة «زوبع» تحت زعامة الشيخ «ضاري» غاضبة لكنها لم تكن نشطة».

ومع كل ذلك كانت الثورة تتأجج بصفة واضحة. ومع ان لجمن لم يكن سعيدا في تفكيره حول الاوضاع الجارية، الا انه كان يشعر بانه واثق من نفسه بحيث يستطيع ان يسيطر على الحالة، مثلما كان يفعل ذلك مرات عديدة من قبل. ذهب لجمن في اليوم الحادي عشر من اب الى بغداد، حيث امضى الليل هناك لكي يبحث الحالة مع رئيسه من ناحية، وليتعقب اثار خادمه «حسن، من ناحية اخرى، ذلك لان حسن كان قد تغيب مدة ثلاثة اسابيع خوفا من العقاب لما قام به من سوء الاستعمال.

يعطينا السر ارنولد ولسون، الوصف الموجز التالي لما حدث حتى الوقت الذي غادر فيه لجمن بغداد. «كان لجمن يبدو واثقا تماما بأنه مادام علي السليمان يستطيع ان يحتفظ بقبضته على الدليم، فلن يحدث اضطراب خطير في الطريق الممتد بين بغداد والفلوجة، او حتى الى نقطة ابعد باتجاه الشمال. غادر لجمن مكتبي في حدود الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالي وهو يقول بانه سيكون عند الفلوجة في الساعة الثالثة، وانه سوف يبعث الي ببرقية مفصلة من هناك. واضاف الى ذلك بانه كان قد ابلغ الشيخ ضاري بان يلتقي به في «خان النقطة» [1] في منتصف

---

(١) هو المعروف اليوم باسم (خان ضاري) وكان في السابق نقطة للشرطة.

الطريق بين بغداد والفلوجة، وقد طلب تحويله حق التنازل عن مطالبة الشيخ بدفع السلف التي اعطيت له لشراء بذور القمح خلال السنة السابقة، (ارنولدولسون: العراق ١٩١٧ – ١٩٢٠ ص ٢٩٢).

ومع ان لجمن كان قد وصل سالما الى بغداد في اليوم الحادي عشر من اب، الا ان سيارة اخرى كانت قد وصلت في ذات الساعات، قد اطلقت النيران عليها. كانت هذه الحقيقة هي التي جعلت لجمن يؤخر بداية سفر، دلك لان الفجر، وهو الوقت الذي اعتاد السفر فيه، قد يكون اكثر خطراً بالنسبة الى الطريق.

اصطحب لجمن معه خادما اخر يدعى «حسن» ايضا، وكان يقود سيارته سائق عربي، وفي الساعة الثانية عشرة والنصف التقي مع الشيخ ضاري رئيس «زوبع» في (خان النقطة) كما تم الاتفاق على ذلك. وفي الساعة الثانية بعد الظهر كان لجمن ميتا، وكانت عشيرة (زوبع) التي سيطر عليها بنجاح لمدة طويلة، قد اعلنت الثورة.

انتشرت الانباء انتشارا النار في الريف العشائري الممتد بين نهري دجلة والفرات حتى وصلت الى اسوار مدينة بغداد. واذ ذاك قال العقيد «تننت»[٢] مصيبا «لقد ذهب لجمن فانتهت الحكومة. ففي انحاء الصحراء الشرقية كان الناس متأثرين بالانطباع القائل بان لجمن هو الذي كان يقود القوات البريطانية، بل انه كان هو ملك انكلترا!»[٣]:

تنادت العشائر الاخرى القائمة على الفرات الى الثورة ذلك لأن رجال العشائر المتطرفين قرروا ان يضعوا نهاية لوجود الحكومة، ولذلك تخلوا عن اعمالهم، وانطلقوا باسلحتهم، فسادت الفوضى في المناطق التي كان لجمن يهيمن عليها. «كان شيخ ضاري وولداه سليمان وخميس واحد العبيد ينتظرون لجمن خارج «خان النقطة»، حيث كان يوجد هناك ايضا احد ضباط الشبانة مع عشرة انفار منهم. دخل لجمن الخان مع شيخ ضاري وجلس معه في احدى الغرف يتحدثان عن الشؤون العشائرية.

وفي الوقت الذي كانا فيه يتحدثان، وصلت طائفة من الاعراب، وافادت بانها قد اوقفت في الطريق وسلبت على بعد ميلين تقريبا من الخان باتجاه بغداد. طلب الشيخ ضاري من لجمن، بان يبعث برجال الشبانة لالقاء القبض على السلابين، واصر على ذلك في سبيل السلام، وان ذلك يجب ان يتم على الفور. ولقد وافق لجمن على الطلب، وامر ضابط الشبانة بان يأخذ رجاله، مع خمسة اشخاص من «زوبع» لهذا الغرض، لكن على شرط ان لايذهب الى ابعد من ميلين فيما وراء الخان. والحقيقة ان لجمن وضع هذا الشرط في موضع بالغ الاهمية.

لم يبق الان في الخان سوى كل من لجمن وضاري وولده سليمان واحد العبيد، في حين بقي في

(٢) العميد ج. ئي تننت الحائز على وسام الخدمة الممتازة. LIEUT. COL. J. E. TENNANT, D. S. O.

(٣) كتاب العميد تننت المعنون «في الغيوم المتلبدة فوق بغداد» IN THE CLOUDS ABOVE BGHDAD

ساحة الخان، (حسن) خادم لجمن، وسائق السيارة وربما رجل اخر من زوبع. وقد بدا بان نقاشا هاما كان قد جرى بين لجمن وضاري، بشأن عملية السلب التي وقعت، والتي اعتبر لجمن بان عشيرة زوبع هي المسؤولة عنها. واخيرا نهض لجمن لكي ينصرف. واذ اجتاز باب الغرفة إمام ضاري اطلقت النار عليه في ظهره فسقط على الارض، حيث سأل ضاري لماذا اطلق النار عليه وهو لم يكن قد اصابه باي اذى؟. غير ان ضاري مالبث بعد ذلك ان استل سيفه وقتل به لجمن، ثم اقدم القتلة على قتل سائق السيارة وتعقبوا الخادم «حسن» الذي حاول الهرب فقتلوه».

ينبغي لنا ان نبين بان هذه النقطة الاخيرة لم تكن قد اوضحت بشكل واف، لانه لم يتم العثور على جثة (حسن) ولم يعرف عنها اي شيئ من ذلك الوقت الى هذا اليوم وبعد ان عاد الشبانة بفترة قليلة تم احتجازهم وتجريدهم من خيولهم واسلحتهم، حيث ساروا مشيا على الاقدام الى ان وصلو الفلوجة، واعطوا انباء الاغتيال[٤].

وكما اوضحنا قبلا فقد ثارت عشيرة «زوبع» برمتها. اما القوات البريطانية التي كانت موجودة في الفلوجة، فلم تكن تكفي الا للاحتفاظ بالمدينة وحدها. ولما كان الريف باسره قد اصبح في ايدي الثوار، غدا من المستحيل العثور على جثة لجمن مباشرة. ذلك انها بقيت ملقاة في الموقع الذي سقطت فيه لمدة يومين في مدخل باب (خان النقطة). وفي اليوم الرابع عشر من اب استطلع الملازم «غورنغ. من البطرية الالية المدرعة الوضع، بأن ركب السيارة المصفحة «هارفستر» ومضى الى الخان، واكتشف جثة لجمن، فجاء بها الى الفلوجة، حيث تم دفنها في المخيم العسكري في اليوم الخامس عشر من اب.

هنالك شك ضئيل في ان تكون عملية قتل لجمن، قد وقعت بصفة متعمدة ومنظمة بعناية، وان رجال الشبانة قد تم ابعادهم عمدا عن الطريق. والامر غير المحتمل، ان يكون اي شيء قاله لجمن او عمله، هو الذي كان الدافع الى تلك الجريمة. ويبدو بان لجمن قد ارتاب في تعرضه الى الخطر بسبب الاوامر التي اصدرها الى قوات الشبانة بان لاتذهب بعيدا، ومن انطلاقة متأخرا، ومن الرواية التي روتها «المس غر ترديل»[٥] عن اخر امسية امضاها لجمن في بغداد، ، والتي اشير اليها ادناه.

ومع كل ذلك فان لجمن لم يكن مسلحا في ذلك الوقت، بل انه ترك حتى مسدسه في سيارته. ومع ان المناطق العشائرية لم تكن مأهولة جدا، فلم يتكون لدى كل من النقيب كارفر،

---

(٤) نقل المؤلف هذا القول عن العميد (تننت) وهو غير صحيح بالنسبة الى العثور على جثة لجمن ونقله الى بغداد.

(٥) سيرد ذلك في نهاية الهامش رقم (٦)

والنقيب بتكيرن، وهما مساعدا لجمن من الضباط السياسيين في الرمادي، اي احساس، بان كارثة خطيرة كانت على وشك ان تبرز.

فقبل ايام قليلة من المأساة، كتب النقيب (بتكيرن) يقول بان النقيب «وليامز» امر الجندرمة في الرمادي، كان قد امضى احدى الليالي في خيمة الشيخ ضاري. وان مقتل وليامز لن يفيد الشيخ ضاري في شيء. ويواصل (بتكيرن) قوله «لم يكن لدى احد اية فكرة عن اي امر ميؤوس منه يمكن تصور ظهوره في تلك المنطقة. كما انني متأكد ايضا بان العقيد لجمن، وان لم يكن فكره مبتهجا بالنسبة الى الوضع الراهن، لكنه لم يكن يرتاب في اي امر كان. واخشى ان نكون كلنا قد ذهب بنا التفكير الى ان سلامة لجمن كانت مضمونة طبعا، وانه حيثما يذهب كان يحظى بمثل ذلك الاحترام من جميع العشائر. «ان اعظم ما يستطيع المرء ان يقوله هو ان لجمن لم يكن راضيا عن الوضع الى ماهو اسفل من الفلوجة. اما بالنظر الى الاوضاع السياسية فان من النادر ان يؤتمن اي منا للكشف عن افكاره، ومن المتصور بأن لجمن كان يعتبر بان الثورة سوف تبدأ في المنطقة، نظرا لبعدها القصي عن بغداد، ونتيجة للتأثيرات الشريرة التي تركتها الدعاية المنبعثة من بغداد بين العشائر.

ومهما يكن الاحساس الذي كان لجمن يحس به، فانني متأكد بانه كان واثقا من قدرته على معالجة الامر بيسر، لانه كان يفعل ذلك في قضايا كثيرة لاتعداد لها، قبلا»[6].

---

(٦) ذكر «ونستون» في كتابه الذي اصدره عن «المس غرترود بل» في سنة ١٩٧٨ والذي اوشكنا على الانتهاء من ترجمته وطبعه بصدد مصرع لجمن يقول «كان لجمن قد ابلغ جماعة من العراقيين ان يخففوا من الاضطراب الذي ثار في الكاظمية واذ ذاك التفت الشيخ ضاري الى اصدقائه وقال لهم: ان لجمن قوي، وانه قد ينزل بهم الاذى اذا مارفضوا ما طلبه منهم» ونستون: لجمن امر الصحراء ص ٢٢٧».

اما بصدد مصرع لجمن فان ونستون قد ساق حكاية مؤداها ان احد ازلام فخر الدين كمونة زعيم كربلاء كان قد اخبر الشرطة عن يوسف السويدي مفادها، ان السويدي يحرض على الثورة كان ذلك الرجل من آل عواد وكان مرافقا لفخر الدين كمونه قال «لقد جئت من كربلا احمل رسالة من حميد خان الى المندوب السامي عندما احتجزني انصار «علوان شلال» واخذوني اليه. لقد ارادوا ان يقتلوني اثناء الطريق، لكن تقرر بعد ذلك ان ياخذوني الى شيخهم «فيصل» شيخ عشيرة جحيش، فامضيت الليلة في داره.

وفي الساعات الساكنة من الليل وصل الى فيصل شيخ جحيش رسول من الشيخ ضاري ومعه رسالة مستعجلة، وطلب ايقاظ الشيخ فيصل من نومه، فتم ذلك واطلع فيصل على الرسالة. وقد اعلنت الرسالة ان لجمن امضى الليلة مع ضاري، وان ضاري، او اخرين غيره قد قتلوا العقيد لجمن. وعندما كنت مع فيصل في (اليوسفية) وصل شخص دعاه الناس باسم «جلبي» ويبدو انه كان من اهالي بغداد، الى المكان الذي كنت فيه فابلغ العرب الموجودين باسم يوسف السويدي، عن وضع الخطط لكي يجتمع يوسف معهم، لكن الجلبي قال بان السويدي قرر ان الاجتماع لن يعقد، وانه سيعلمهم به فيما بعد. واذ ذاك سمح لي فيصل شيخ جحيش بالقدوم الى بغداد.(المصدر ذاته ٢٢٢).

تحدثت المس غرترودبل عن مصرع لجمن في رسالتها المؤرخة في اليوم السادس عشر من اب ۱۹۲۰ فقالت «كانت اسوأ الانباء قد (فادت بمقتل العقيد لجمن في كمين نصب له. ولقد سمعت الحكاية هذا اليوم من لدن الشخص الذي اثق به جدا من عشيرة (عكيل) وكان هذا ماسمعه واتوقع بان النبأ صحيح. كان لجمن قد توقف عند خيام شيخ (زوبع) وهو في طريقه الى الفلوجة، وقد اساء معاملة شيخ زوبع بعبارات عنيفة لانه لم يحافظ على سلامة الطريق. لقد اعتاد دوما ان يستعمل عبارات غير موقرة في مخاطبة العرب. وكانت للشيخ ضاري عدة شكاوي ضده، اضافة الى الحقد الذي يتسم به الشيخ ضاري» (ص)[۱٥۷].

وفي رسالة اخرى قالت المس بل «لقد كان لجمن ممقوتا مقتا عميقا ولقد اخبرني «فتوح» (دليل المس يل وجاسوسها منذ سنة ۱۹۱۰ وما بعدها وهو مسيحي من حلب - المترجم) في شهر ايار الماضي انه متأكد بان لجمن سوف يقتل، ولقد ابلغت السر ارنولد ولسن بذلك (ص ۱٦۳)[۷].

---

(۷) وردت هذه العبارات في الرسالتين المشار اليهما في الصفحتين اعلاه من كتاب (اليزابث بورغوين المعنون «حياة المس غرترودبل من رسائلها الشخصية) ويقع الكتاب في جزئين صدرا في سنة ۱۹٦۱ وقد بدأنا منذ ذلك الوقت بترجمة الجزء الثاني الذي يسرد رسائلها عن مجريات الامور في العراق ابتداء من سنة ۱۹۱٦ حتى وفاتها في بغداد سنة ۱۹۲٦ وتوقفنا عن اكمال الترجمة بعد ان تأكد لدينا بان جعفر خياط كان قد ترجم ذلك الجزء، والذي اقدمت وزارة الثقافة والاعلام في اوائل سني السبعينات على طبعه لكنها احجمت عن نشره وطرحه في الاسواق مثل بقية الكتب التي اخرجتها. وقد نعود الى اعادة النظر في الترجمة وطبعها ان سمحت لنا وزارة الثقافة والاعلام بذلك.

والذي نعتقده هو ان لجمن وغيره من رجال الاستعمار الصلفين، المتباهين بالسيطرة والسلطة، كانوا وما يزالون حتى الان يجهلون جهلا مطبقا صفات الشعب العراقي ومدى تعلقه بالحرية والموت في سبيلها على مر العصور. وان لجمن وامثاله قد انخدعوا بماكان يبديه ضعاف النفوس من الخونة والجواسيس من تملق للحاكمين، بحيث جعلهم ذلك التملق والهتاف والتصفيق، يثقون ثقة عمياء في مقدرتهم على اخماد اية ثورة. ولقد فاتهم ان ثورة العشرين كانت ثورة الشعب العراقي برمته، بعربه واكراده وقومياته الاخرى، ولولا تلك الوحدة لما نجحت الثورة واعطت اكلها.

«الفصل العشرون»

المدينة المحبوبة[1]

في صباح اليوم الثامن والعشرين من شهر شباط سنة ١٩٢١ كان الفجر مشرقا وصحوا وكان الرجال والحيوانات تمر رائحة غادية في امان غير مسرع، على امتداد الطريق من «الفلوجة» الى بغداد. وعلى اي من جانبي الطريق كان الريف يمتد في شكل واضح الى السهل لاحدود له. كانت انبساطاته هنا وهناك، قد تغضنت، اما بفعل أجمة من اشجار النخيل، او بعناقيد من قرى متفرقة بشكل واسع، وهي تتلألأ كيفما اتفق على سجادة مؤلفة من مزيج من اللونين الاغبر والاخضر. فاللون الاخضر هو لون القمح النامي اللامع والجديد في نور شمس الصباح. واما القطع الغبراء فمن العشب الخشن، فقد تناثرت فوقها مجاميع من الماشية، والاغنام، والابل وهي ترعى كسالى.

لم يكن هنالك اي صوت يحطم السكون، عدا صوت سيارة تمر مصادفة، او قرقعة كئيبة لاحدى العربات. هذه الارض التي تغفو الآن مستريحة بهذه الصورة، كانت قبل فترة قصيرة مضت، قد شهدت مسيرة رجال مسلحين، وسمعت اصداء المدافع وقرقعة البنادق، لقد انتهى ضجيج العنف وحل السلام محله. على هذه الطريق امضى لجمن ساعات قلائل في اخر رحلة له الى مقر استراحته في بغداد. وضع جثمانه الذي انتشل من مقره الموقت في الفلوجة، على ذات السيارة المدرعة «هارفستر» التي كان يركب فيها الملازم غورنغ الذي اكتشف جثة لجمن في خان النقطة. وما ان زينت السيارة بالزهور، وبالعلم الوطني، حتى راحت تسير ببطء على امتداد طريق الفلوجة الى بغداد. انه لامر غريب ان تكون هذه السيارة التي نقلت بخفة جثمان لجمن هي سيارة الهارفستر ذاتها! وهكذا يفعل الموت!؟

ما ان وصلت السيارة جسر القوارب على نهر دجلة [2] حتى توقف السير على الجسر لمساعدة الهارفستر على ان تواصل السير. تحطم السكون حين مرت السيارة فوق الواح مخلوعة من الجسر

---

(١) حاليا يقصد بها مدينة بغداد

(٢) هو جسر «مود» سابقا وجسر فيصل الاول لاحقا، ثم جسر الاحرار

، فاحدثت صوتا اشبه باصوات الطبول . لقد كان هذا الصوت يؤذن بان لجمن كان قد عبر الصحراء الى المدينة التي احبها . ومن هناك توجهت السيارة الى كنيسة الحامية»[٣] حيث طرح التابوت حتى الليل مع حراس كانوا يركبون حوله.

وفي الساعة الثانية بعد ظهر اليوم التالي بدأت صلاة الدفن. غصت الكنيسة بالداخلين اليها، وفي الخارج كان جمهور غفير من الناس ، ينتظر انتهاء الصلاة!

ملحق

ثلاث كلمات رثاء

هذه صورة عن العقيد لجمن اعطاها فهد بك رئيس عنزة، وهو شيخ ذو سلطة عليا على خمسة عشرالف من الرجال المقاتلين، قال فيها «كان لجمن شديد التحمل، ولم يكن متغطرسا. فقد اعتاد في غاراته ان يمتطي بعيرا يقود حصانه خلفه مثلما كان العرب يفعلون ذلك تماما. وكان ينظر اموره بنفسه، ويرفض ان يكون له خادم

واذا اراد احد رجالنا ان يمد يد العون اليه، كان يتواضع ويقول بانه رجل مثلهم تماما، وقد يشاركهم نفس مصيرهم. فهو يأكل ويشرب ويركب بل وحتى يسحب الماء من الآبار مثلما كانوا يفعلون ذلك.ويخبز خبزه بيده على النار ويأكله، ويركب البعير من دون مساعدة اي انسان، وينطلق على ظهره مثل اي بدوي ممن اعتاد آباؤهم وآباء ابائهم، مثل هذه الاعمال الفذة. كان ينام ملتفا «بفروته» وعباءته على الارض الجرداء، او في وهاد معشوشبة من دون اي غطاء وخيمة، ويتحمل مصاعب سقوط الامطار، وهبوب العواصف، ووقدة الشمس. وكانت طاقته وتحمله الذي لايكل لاوضاع الصحراء قد جعلاه يتفوق على كل ما اعتاده من الشدائد.

جعله مقامه في الصحراء محبوبا من لدن الجميع، فكانوا يعتبرونه واحداً منهم، بل من شيوخهم لانه كان يتحدث برقة اليهم، ولم يكن يثير او يغضب احدا منهم، واذا ما احتاجوا الى اي شيئ يجدونه مستعداً لمساعدتهم، ولم يكن يتحمل بان تتم معاملتهم له بشكل خاص. كان يعرف كل غار في الصحراء، وكل واد، وكل تل، وجميع المواقع التي يوجد الماء فيها

(٣) اقيمت كنيسة الحامية البريطانية مكان الباب الجنوبي لسور بغداد القديم وكانت تقع في المدخل الحالي لشارع ابي نؤاس. ولقد بقيت هذه الكنيسة قائمة حتى اوائل سنة ١٩٤٨ حين ازيلت بافتتاح شارع ابي نؤاس القديم واقامة الساحة التي كانت تتجمع عندها باصات المصلحة العامة للركاب

ويعرف اسماءها معرفة صائبة ويستطيع ان يسافر اليها من دون ان يقوده الى ذلك احدما. تلك هي معرفتنا بالعقيد لجمن اثناء مكوثه مع عشائرنا

فهد بك الهذّال

شيخ العمارات من عافرة

* * *

ولقد تركت لنا «المس بل» وصفا موجزا له يصوره بالصورة التي يبدوبها في نظر شخص، كان مثلها يعيش في الخيام السود، مما ادرج اسمها بين اسماء الرحالين في البلاد العربية فقالت عنه: —

«انه طليعي لايبارى، سواء في السفر او في ادارة الحدود. كان من المستطاع قراءة مسلك لجمن واحساسه الباطني في شخصه هو. انه رجل نحيف الجسم، شديد النشاط، يحمل معه على الدوام حقيبة ركوب قديمة، ويكون وجهه مفعما بتغيرات الجو، بحيث يبدو وكأن الشمس، والريح، والمطر، ينبغي لها ان تفعل المزيد لتكوينه، اكثر مما يستطيع اي انسان سابق، «فالمظاهر المرقعة لسيمائه كانت تشع في عينيه بحدة النظر المدققة للانسان الذي كانت مهمته هي ان يضع تقييما سريعا للرجال وللاشياء، وان ينهض بالعمل الصادق حقا. لم تكن واجباته هي التي تقوده في الغالب الى مقرات العمل. واذا ما ادت الى ذلك، فلن يكون هنالك مثله من يستمتع اكثر من غيره بعشاء فاخر مع اصدقاء مختارين. وليس هناك من يستطيع ان يمضي الساعات مبتهجا بالحكايات الطريفة عن طرائق الناس واقوالهم ممن كانوا يعيشون في موطنه المختص به، ومن الجامحين ليس الا.

«غير ان الحكايات لم تكن كلها من موطنه. فقد يهبط عليك شيخ بدوي وانت في مكتبك، ويروح يقص لك كيف ان «نجم»[1] قد وصل اليه في سيارته[2] الى ارض متنائية للرعي. والله[3] كانت تلك السيارة اشبه بالجواد المطهم تحته. فهي تقفز الوادي، وتندفع فوق اعشاب الربيع. والله انها اشبه بحصان عربي بين العشائر. ومن ثم قدمنا[4] الذبيحة[5] وقد جلس «نجم»

---

(١) اطلق البدو على لجمن اسم «نجم» و«نجمان» وكان هذا الاخير اكثر شيوعا لديهم.

(٢) سمتها المس بل بلهجة العامة «طرمبيله» وهذه الكلمة محرفة من «اوتومبيل» وهو الاسم الفرنسي للسيارة

(٣) ذكر المؤلف الكلمة باللفظ العربي wallah

(٤) اخطا المؤلف في تهجئة حروف عبارة «قد منا الدبيحة» فقال «قدنّا الذبيحة اي ابدل الميم نوناً هكذا QUDDANA AL - DHBIHA

(٥) اي الشاة الذبيحة التي شويت وقدمت للضيوف

بجانب النار حيث تحدثنا اثناء الليل. ولكن القاص قد يضيف باكتتاب قائلا «كان ذا يد قوية والله» ومن هذا يمكن الحكم بان ذلك القول لم يكن قد تم الادلاء به كله الى الاشرار من افراد العشائر!

لقد التقيت به عائدا من احدى هذه الجولات على ظهر جواد في ذلك الوقت. كان ذلك على الطريق من جسر الفرات الى الكوفة، عبر الاراضي اللينة التي تظهر فيها اثار عجلات السيارات، والاخاديد التي كانت سيارتي تكافح فيها. ولقد برزت لنا، من اكام رملية جماعة غريبة كان نصفها يرتدي الملابس الرسمية، والنصف الاخر يرتدي العباءات العربية. كان العقيد لجمن وسط هذه الجماعة، ولم تظهر منه سوى العلامات البيض للضابط السياسي على ياقته والتي لا يمكن تميزها عن البقية.

كان الجميع مسلحين. كان احدهم يحمل صقرا على رسغه، اما كلاب الصيد العربية، فكانت تجري في اعقاب الخيل. كان «نجم» يسافر مثل اي من اخوانه اقطاب الصحراء.

اضافتنا تلك العصبة السخية ذاتها في تلك الليلة، فقدمت الذبيحة[٦] ثم مضى الحديث، واستمر صادقا ومتوقعا حتى منتصف الليل، حين اويت انا، كعادتي، الى الفراش. اما مضيفنا فكان منتفخ العين في صباح اليوم التالي، وان كان قد صرح بانه قد امضى امسية لايمكن ان تنسى!. اما ملامح (نجم) فلم يكن يبدو عليها اي اثر. وبعد فطور شهي امتطى حصانه، وجمع حاشيته الغريبة تلك، ومضى في طريقه الى مكان لا يعرفه احد سوى الله!

المس غرترور بل

* * *

كلمة رثاء رئيس شمر طوقه

كانت هذه العشيرة، قد امضت القسم الاكبر من الحرب الى جانب الاتراك. ولذلك فان مثل هذا الرثاء من لدن زعيم عشيرة معادية، له اهمية اكبر.

الاول من شهر شباط ١٩٢٥

يسرني ان اقدم اليكم طيا ببيان عما عرفته، بصفة شخصية، عن العقيد لجمن حين كان معنا. انني مسرور جدا لان استطيع المساهمة بشيءٍ ما في ذكراه.

التوقيع

جلوب الصبر

رئيس عشيرة شمر طوقة

(٦) كتبت كلمة الذبيحة باللفظ العربي ايضا

وكان العقيد لجمن حاد الطبع، وتمكن اثارته بيسر. لكنه كان على استعداد للمسامحة. كان يحب الصدق ويكره الكذب، ويقدر حقوق الصداقة. وقد يبتسم ولكنه سرعان مايعتذر لانفجاره بالضحك، ويعوض بالطيب عن الشر. كان عميق التبصر صادقا في كلمته، يتجنب الكذب، وكان مستقيما على الدوام ومرحاً يود ان يكون له العديد من الاصدقاء. واذ ذاك يروح يتجاذب اطراف الحديث مع الصغير والكبير بكل رقة، ولم يكن يحاول ان يبرز اي مظهر من مظاهر نفسه. كان وطيد العزم وذا ذاكرة قوية جداً.

طلب الي ذات مرة ان اجلب له رؤساء كل الصنوف التي كانت تخضع لسلطتي. وما ان جاؤوا حتى اودعهم في التوقيف، وبعث بواحد من اعز اصدقائي الى غرفة الحرس. لقد علمنا فيما بعد بان ذلك التوقيف يعني مقدمة الابعاد والنفي الى مكان الله وحده هو الذي يعرفه. رحت اتقرب اليه لاطلاق سراحهم لكنه كان في مزاج سيئ، وقد طلب اليّ فيما بعد بان لا اتوسط لمثل هؤلاء الاشخاص الخطرين

وحين عاد الى نفسه بعد نصف ساعة، بعث الي وقال بان السربرسي كوكس كان قد بعث باوامر لاعتقال شخص يدعى «عوف بن سخل» الذي ذكر عنه بان له ميولا تجاه الاتراك، وانه يعتزم ان ينضم الى معسكرهم. وعدته بان ابذل كل جهدى لاعتقال ذلك الرجل. غير ان هذا قد يتم بكل يسر ان هو اطلق سراح الرؤساء الذين اعتقلهم. وعدني بان يفعل ذلك. ولكن ما ان عدت الى بيتي حتى وجدت لشدة عجبي، بان ذلك الرجل الهارب كان يتمتع بالامن تحت سقف داري. لقد لاحظ التغير الذي حدث في ملامحي فسألني عن السبب، فاجبته بانه اذا لم يرحل غدا فلسوف يجلب علي وعلى عشيرتي الدمار الكامل بايدي القوات البريطانية ابلغني الرجل بانه الان تحت رحمتي وتصرفي تماما. هنا اصبحت في ورطة والا اعرف اي طريق اسلكه. فان سلمته الى العقيد لجمن فان ذلك التصرف سيكون خرقا مشينا للتقاليد العربية. وتلحق بي وبيتي تهمة الخيانة، ولذلك صممت على ان اصحب ذلك الرجل مع اربعة من رجالي وايصاله الى عبر الحدود الى المعسكر التركي.

وحين ذهبت الى لجمن حكيت له الحكاية كلها، واوضحت له كم كان مشيناً لي ان انا سلمت احد الهاربين الذي كان يتطلع اللجوء الى شخص يحميه. خاب امل لجمن حين سمع نبا خلاص ذلك الرجل، فلم ينبس ببنت شفة حوالى نصف ساعة. ومن ثم نهض وجلس الى جانبي وقال بانني قد قمت بعمل صائب لانني لم اسلم ذلك الرجل في مثل هذه الظروف. ثم اضاف الى ذلك قوله «انني فخور بمثل هذا التصرف النبيل، وبانني لوفعلت غير هذا لسقطت في نظره» وبرهانا على رضاه سلمني جائزة مقدارها مائة حينه!

محتويات الكتاب



«الصور»



































